

الفن المعماري الجزائري

سلسلة "الفن والثقافة"

الفن المعماري الجزائري

إهـــــــداء٢٠٠٨
الأستاذة / ليلى على إبراهيم
جمهورية مصر العربية

الفن المعماري الجزائري

سلسلة "الفن والثقافة"



كان الناس يسمون المهندسين المعماريين « أرباب المهنة » وكان على هؤلاء آنذاك أن يشيدوا القصور والهياكل والمساجد أو الكنائس والحصون . فكانوا غالباً ما يقضون حياتهم كاملة في انجاز هذه المشاريع العمرانية عندما تكون حياتهم كافية لانجازها . غير أنه يحدث أحياناً أن يتولى أناس آخرون تلك الأعمال التي أوقفها الموت .

على أن مأوى الانسان بقي على حالته البسيطة . ولم يتميز هذا البيت عن ذلك إلا بالحجم تبعاً لأفراد الأسرة واختلاف الثروة . لقد كان الانسان مهندساً معمارياً لذاته ، فيقوم غالباً ببناء منزله بنفسه . ولم يكن يجهل أنه سيدعي إلى البناء . فكل واحد كان « يعرف » وكل واحد كان يستطيع أن يسير الأعمال البنائية أو ينفذها بنفسه . وذلك أن « المراس » والنظر يومياً إلى كل تلك المنازل المتناسقة التي يكاد يشبه بعضها البعض (كلمة تكاد بالذات هي ضمان جمال ذلك التنوع الدقيق) . كان بمثابة تكوين وثقافة طبيعية تقدمها للجميع تلك المنازل التي يخضع بناؤها إلى مبادىء هندسية جد متشابهة .

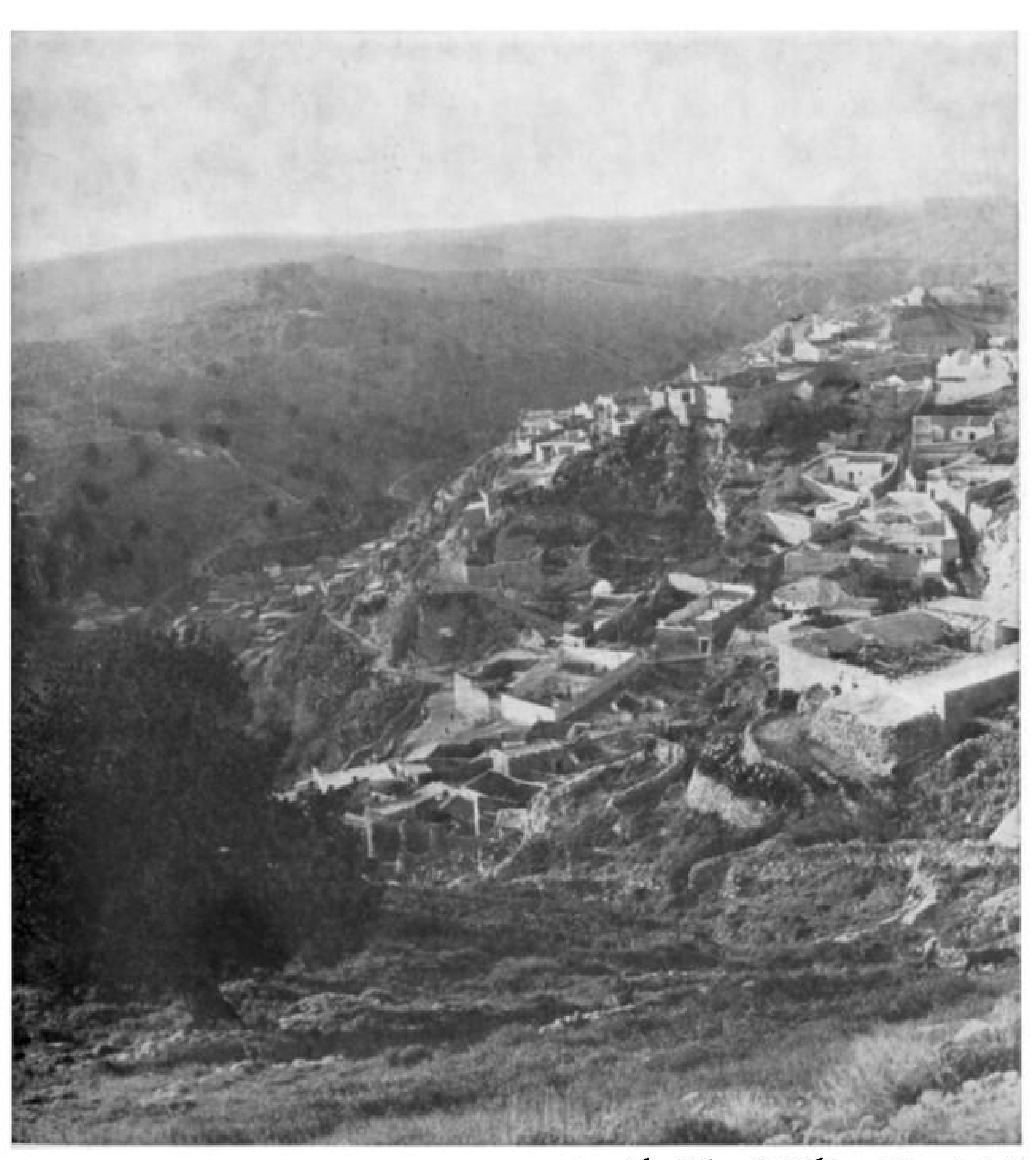
ولم يكن هناك أيضاً مهندسون معماريون مخصصون للبناء في العصور القديمة ، ومع ذلك لم تخل تلك العصور من بناء . فحاسة النظر والمراس كانا يضبطان طاقة العمود وسمك العارضة ومداها ، ومتانة الهيكل بالقياس إلى ثقل السقف ومقاومة هذا السقف لتسرب الماء وكثافة الجدران .

إن هذه الخبرة ، والعلوم الشعبية كانت راجعة إلى حد ما إلى أن مواد البناء بطبعها أثقل المواد المنقولة . وإذا كان الناس يأتون اليوم بالخشب من النرويج ، دون صعوبة كبيرة ، أو بالقرميد من مصنع يبعد بعشرات الكيلومترات فان ذلك لم يكن ممكناً إلا للمحظوظين من الناس من الأسياد أصحاب الجاه أو المجموعات الغنية (المساجد مثلا) . فهؤلاء كانوا يستطيعون أن يأتوا بالرخام من إيطاليا أو بالزخف من هولاندا بل حتى من بلاد الصين .

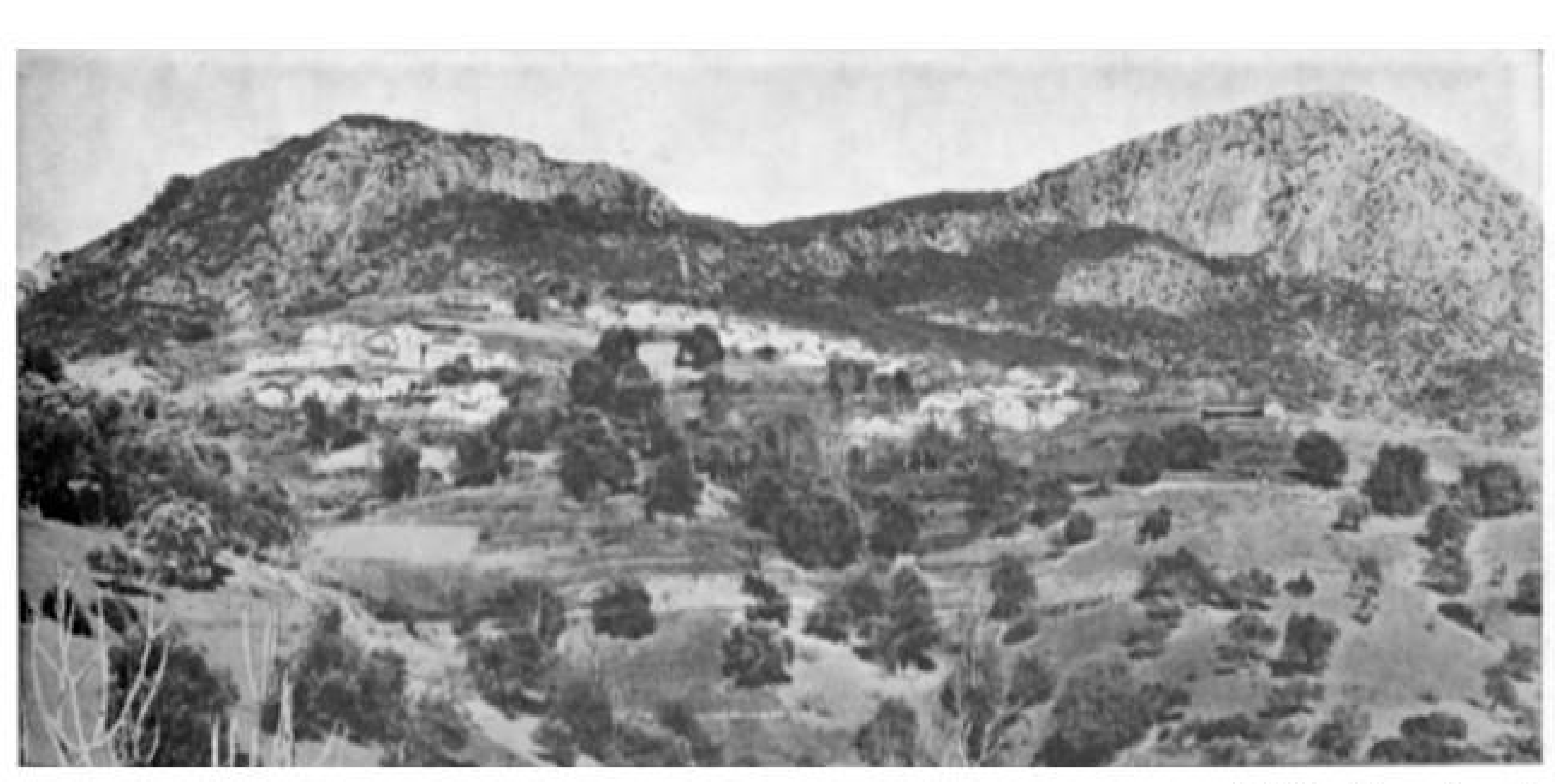
إن الانسان المتوسط ، الانسان فقط ، لم يكن يملك إلا اللوازم القريبة منه . ففي البلدان الاسكندنافية كان الناس ولا يزالون يسكنون منازل من الخشب في غالب الأحيان . أما في الجزائر ، في منطقة الأوراس ، فان الناس يسكنون منازل من الحجر ، بينما نجد هذه المنازل مبنية باللبن (الطوب) في الصحراء . هكذا تمكن الانسان الذي تعود استعمال المواد الموجودة حوله من الابداع في بنائه وإنجاحه عبر القرون وفي كل جهة ، ومن الوصول إلى أبسط التعابير ومن ثمة إلى هندسة معمارية خاصة به بلغت منتهى الأناقة .

لم يكن الانسان في تلك العصور الغابرة يحلم بزخرفة واجهات منزله ، ولم يكن يحفل بالتباهي والمفاخرة فيما يتعلق بالبناء . فالزخرفة الوحيدة ، التي كان يفكر فيها هي تلك التي كان يتطلبها الهيكل . وسنتحدث عن ذلك في باب الحديث عن الهندسة النوعية الجزائرية ، التي هي خير مثال يمكن أن نراه في هذا الميدان .

إن صفاء النية هذا ، الذي يكاد ينسى اليوم في جميع الأنحاء ، أي تركيز المجهود وعدم تبعثره ، قد جعل من منازل الانسان القديمة ـ أو من المنازل الحديثة التي روعيت فيها نفس الشروط وبنيت بروح قديمة ـ محل دراسة ربما شغف به الباحث أكثر من شغفه بالمعالم التي خلفها « غزو » المهندسين المعماريين أو المهندسين .



قلعة بني راشد ، المكان الذى كان يكتب فيه
الكاتب العظيم ابن خلدون



قرى في بلاد القبائل

فالمناخ ، في أول الأمر ، ثم تقاليد الحياة فيما بعد تتجلى كلها في ترتيب الغرف . كما تتجلى أيضاً في الواجهات والمنافذ التي تتخللها للتمكين من الرؤية والدخول وتسلل الأنوار . ولم يكن هناك شيء يؤثر في أنماط البناء تأثيراً حاسماً إلا مواد البناء وحدها ، وما مواد البناء سوى الجغرافيا وعلم طبقات الأرض للمكان . وبناء على ذلك ، فان المناخ مع التقاليد مع الجغرافيا مع روح ويد الانسان تساوي بيوت . وقد دامت هذه الحالة في العالم أجمع حتى عهد الآلة .

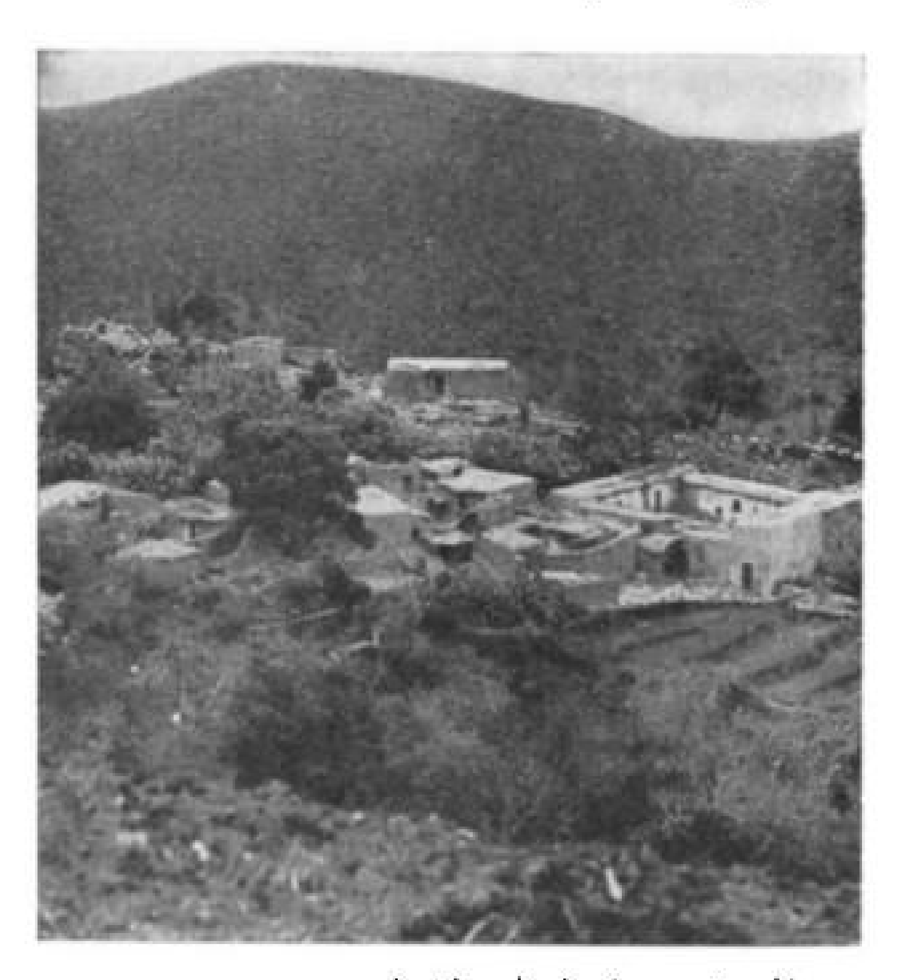
وعندئذ وقع الانقلاب . فالسكة الحديدية ووسائل النقل بصفة عامة والاسفار وفضول كل واحد من جهة ، وإمكانيات نقل مواد البناء من جهة أخرى ، قد مكنت من إيجاد تلك البدعة الأولى ، ألا وهي « الموضة » . وقد شوهدت المنازل الخشبية « النرماندية » في البلاد المستعمرة حديثاً أو البيوت الخشبية السويسرية على شاطيء البحر . وإلى جانب ذلك ظهرت مواد البناء الجديدة ، أي مواد البناء « الصناعية » .

لقد كان الناس يستعملون باديء ذي بدء هذه المواد لتقليد ما كانت تعبر عنه مواد البناء في العهد السابق ، فجعلت أوربا من الفن « الغوطي » ، الذي امتد حتى إلى الجزائر ، نوعاً من الفن « الاسلامي العربي الجديد » وهي لم تدر في الواقع أيهما تختار . والملاحظ أن كلا النمطين قد فقد ـ مع استعمال الأسمنت المسلح ـ ذلك الجمال الذي كان يتميز به في عهد الحجر أو الرخام .

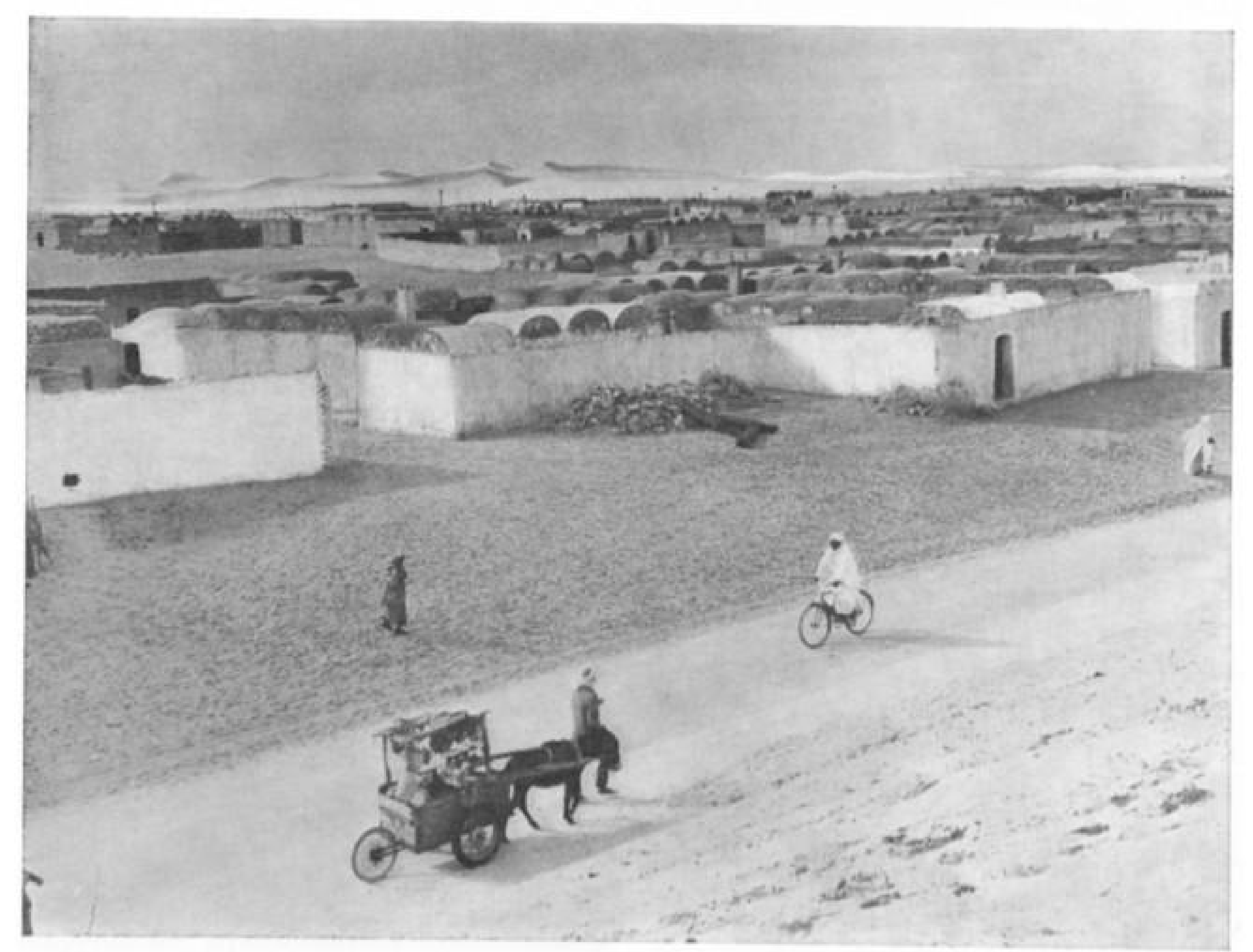
أما داخل البلاد الذي نجا (وكيف لا) من عواقب هذا النمط فانه استمر شيئاً فشيئاً في تلطيف وتحسين بادرة الأجداد ، بادرة الانسان المهندس المعماري .

قصر القليعة القديم كان موقعاً حصيناً
وعند قدميه تبدو القرى الجديدة بسيطة مثله وأصيلة





حوالي ندرومة (تلمسان)

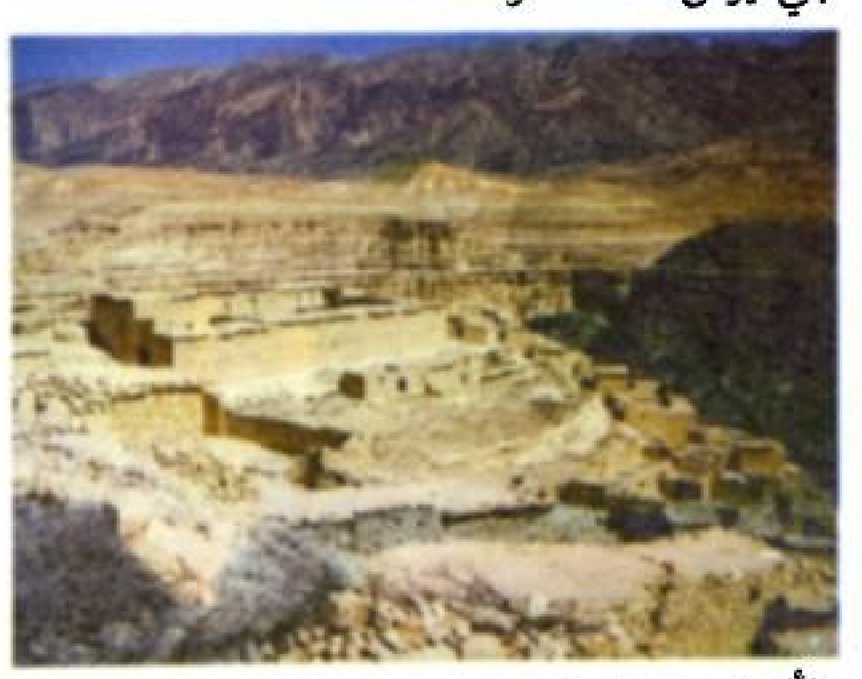


الدار غلاف لوظائف طبيعية
تتصدى للرياح بظهرها
قرية في سوف

مزرعة ، ساحة ، إنها نواة قرية
ديار ، عائلة كبيرة ...
في عمالة قسنطينة ،
وسط مزارع فسيحة .



بني يزقن عمالة الواحات



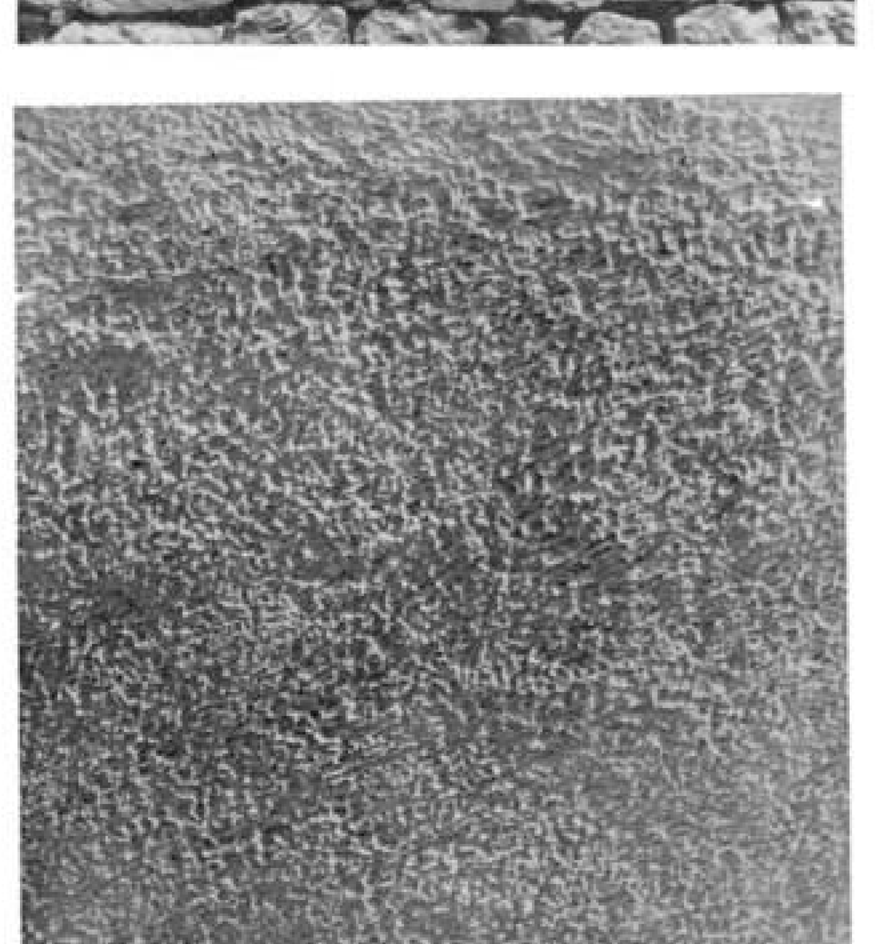
الأوراس - غوفي

ففي جميع البلدان الافريقية والأوربية على حد سواء ، اتسعت المدن الحديثة تحت السيطرة الخارقة التي فرضتها مواد البناء الجديدة وأنماطها . ولم يبق من هذه المدن إلا الروح الذي احتفظ به بعض الناس الذين احتارت ضمائرهم احتراماً لها . وهكذا تولد مفهوم « المعالم التاريخية » عن هدم الأشياء القديمة التي اعترفت الانسانية والناس بجمالها ، وهي فكرة تهدف إلى الحفاظ على آثار الماضي . وقد كان هذا المفهوم عديم الجدوى قبل اليوم ، وذلك أنه لم يكن أحد يفكر في إعادة بناء منزله على شكل آخر إذا أصبح بالياً . بل إن نمط الحياة نفسه لم يكن يتغير إلا قليلا قبل عصر الآلة . ولكن لسوء الحظ لم يطبق قط هذا المفهوم المحافظ إلا على ما كان يسمى بالمعالم ، وأهملت المنازل التي يتوسم فيها المرء التحام العقل واليد بصورة دقيقة مؤثرة .

على أن الانسان بقي ، في الاماكن النائية التي لم تصلها الطرقات ، وفي الجهات الفقيرة المحرومة من وسائل النقل وبالتالي من مواد البناء ، التي كانت تكلف ثمناً باهضاً ، بقي على عادته يستعمل ما منحته الطبيعة في عين المكان .

إن البادرة القديمة ، والدقة القديمة قد خلدتا ، وموعظة تلك الهندسة المعمارية « الناجحة » لا تزال حية تثير إغراء المهندسين المعماريين العصريين الذين يعانون الكثير من تراكم المواد واختيارها إلى درجة أنهم لم يعودوا يعرفون كيف ينجزون أعمالهم .





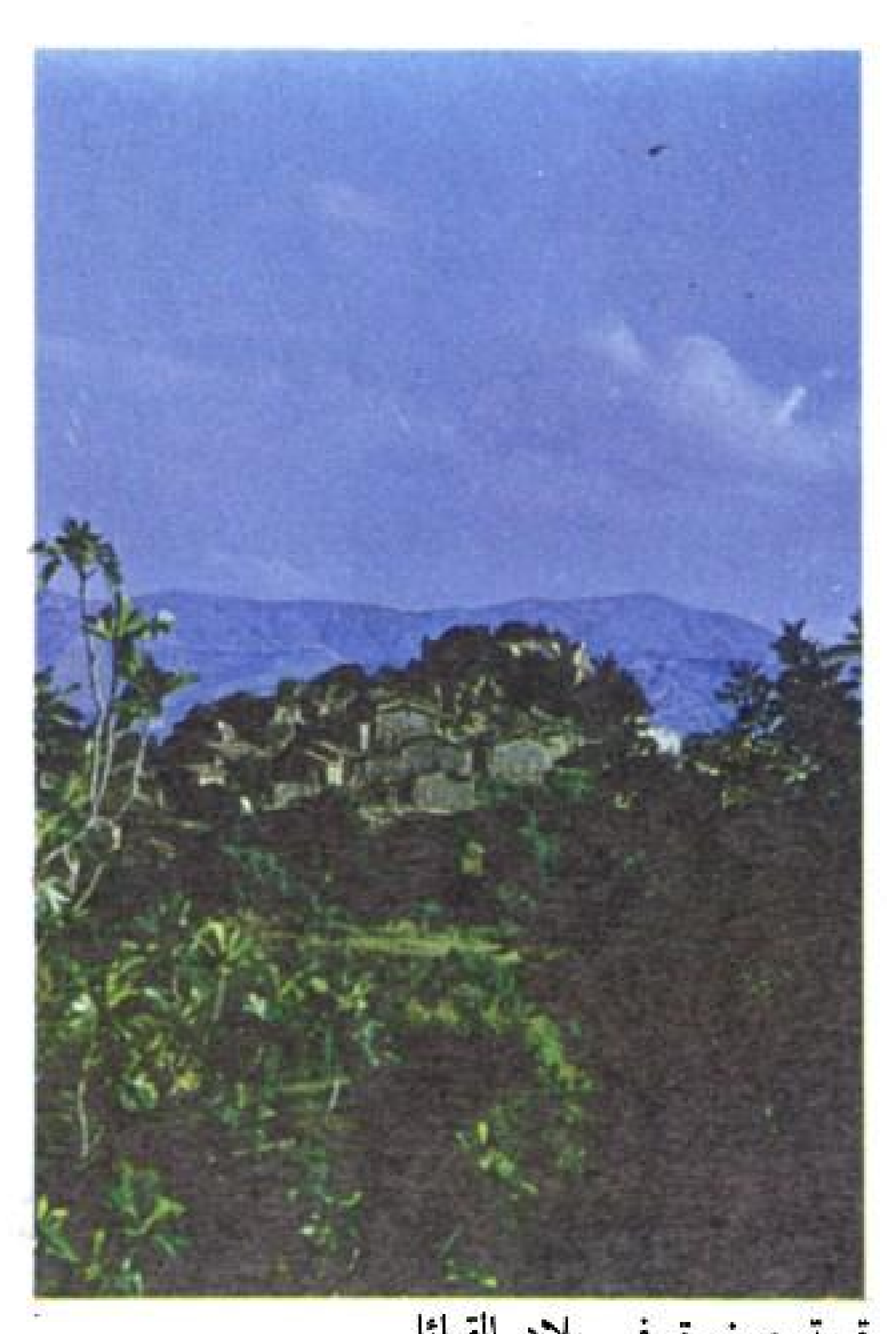


آلات : في المزاب ، الأغواط ، الأوراس ، المزاب... وهذا الأخير يتحصل عليه بدلك السائل بواسطة عرجون انتزعت منه ثماره

لقد بقيت الجزائر ، لأسباب سهلة الادراك مهداً حقيقياً للهندسة المعمارية القديمة ، بينما زالت هذه الهندسة في بقية البلدان الأخرى أو تكاد ، أو على الأقل في قسمها المتعلق بمسكن الانسان .

فالجزائر ، وهي الأرض الشاسعة المختلفة المناخ والجغرافيا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، التي تتوفر بها التربة والمواد البنائية المتنوعة ، والأرض التاريخية أيضاً ، التي غالباً ما كان الغزو الأجنبي يرغم أهلها على اللجوء إلى الجبال والحصون المنيعة - إن هذه البلاد تمثل عدة جهات تمتاز بالهندسة المعمارية الأصيلة والوحدة التي تأخذ بمجامع القلوب . ونجد اليوم في قرية واحدة في بعض الأحيان ، وأحياناً أخرى في مساحة جغرافية واسعة مثل بلد أو بلدين مجتمعين من البلاد الأوربية كيف أن عمل الانسان ، الذي حسنته الأجيال عبر القرون ، أسفر عن نتيجة حقيقية .

لقد اختار المهندس المعماري « لوكوربيزيي » مدرسة وحيدة لنفسه : هي أن يسأل فن البناء في الهندسة المعمارية القديمة والريفية . فأسفاره وجولاته في الشرق معروفة أكثر من تجواله في الجزائر ، الذي أثر على إنتاجه تأثيراً عميقاً لأنه وقع في سن النضج دون شك . فالنصوص التي كتبها في شأن ميزاب مثلا تهيب بذكاء بناة هذا العمران الذي يرجع عهده إلى القرون الغابرة ، وبالبساطة الواعية لتلك الهندسة المعمارية التي تمثل القدوة الفضلى . وتشير هذه النصوص خاصة إلى العلاقات الوثيقة بين الفلسفة و « الحياة الداخلية » التي تفوق أهميتها هناك أهمية الحياة في أوربا بكثير ، والتي تعبر الهندسة المعمارية عن نمطها . ذلك الانسجام الذي نال إعجاب هذا المهندس المعماري الذي عرف كيف يحتفظ به ويبعثه في كتابه . إن الأمر لم يتعلق ، كما أكد ذلك بنفسه ، بوضع قاموس للزخرفة العربية (الفن



قرية صغيرة في بلاد القبائل

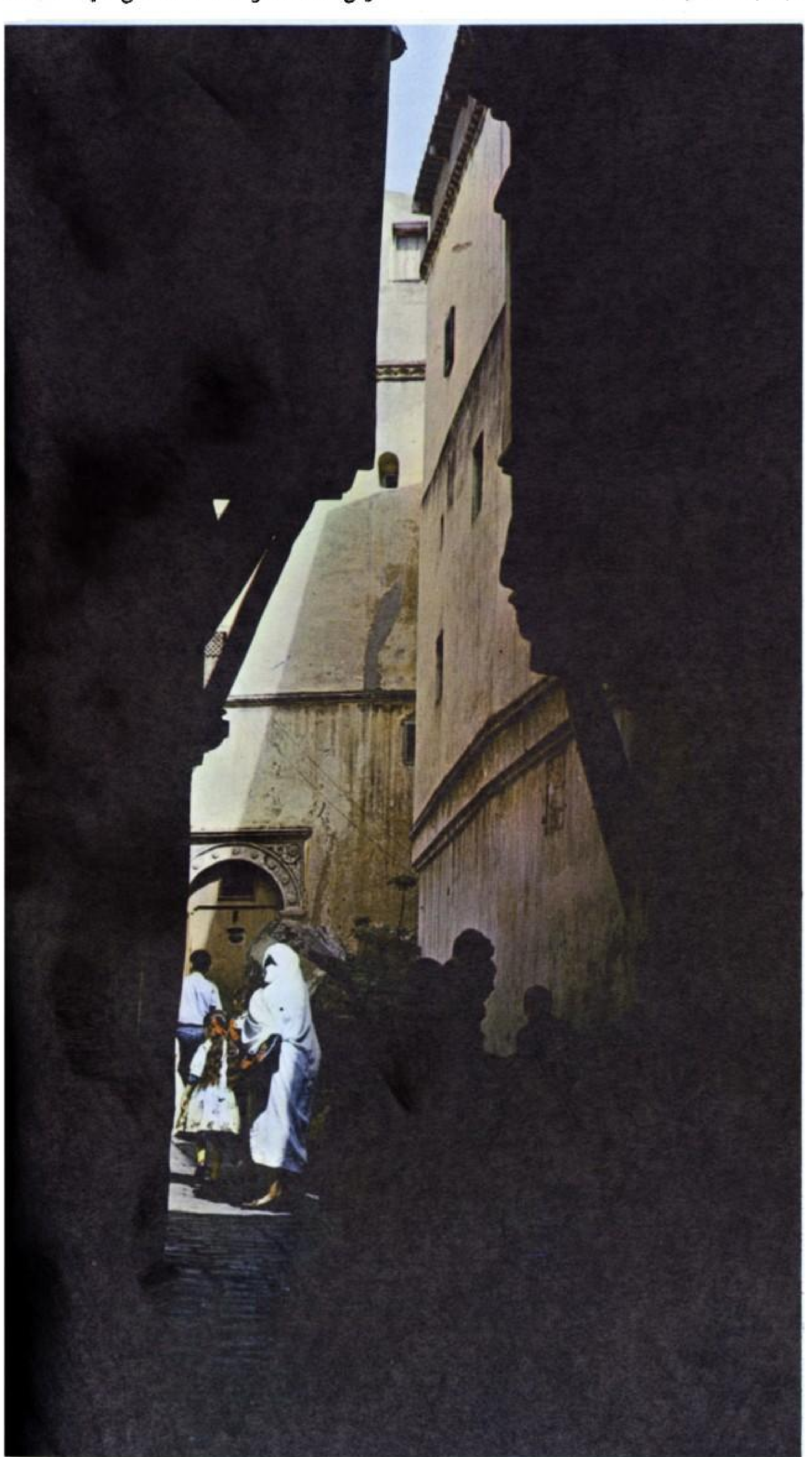
المعماري العربي الاسلامي الحديث) ولكن بتمييز الجوهر ذاته للهندسة المعمارية والعمران .

ثم واصل بحثه فـأعطى مثـالا عجيبـاً لمـا أسماه « بتمييز جوهر الهندسة المعمارية والعمران » فمن الدرس المستخلص من حي القصبة وأزقتهـا الضيقة وواجهاتها التي تبدو منعدمة النوافذ والآبار العميقة التي تجدهـا في فنـاء المنـازل ، من كل ذلك احتفظ المهندس « لوكوربيزيي » بالبنـاءات العالية الخطوطية التي يمر بها طريق مفتوح لحركة مرور نشطة . وهذا يتفق مع المنطق تماماً . ذلك أنـه لمس في الأنهـج الضيقـة « ظـلالا ونسيماً » ومناعة المـارة وانعدام ضجيج المحركات والأبواب والروائـح وبخـار البنزين . وقـد عبر عن ذلك « بالأروقـة الداخليـة » أو البنايـات المروقـة التي يحميها هذا الرواق الممتد على طول واجهاتها من حرارة الشمس الشديدة .

أما بخصوص الواجهات التي تكـاد تكون عاريـة تمامـاً فـانه لاحظ عن حق تلك النوافـذ الصغيرة ، التي تتخللها ، والتي تكـاد تند عـادة عن أنظـار المتجـول البسيط بتـرتيبهـا المنحـرف لتمكين النساء الأكثر انزواء من الرؤية على طول النهج . وقد سجل بهذا الشأن : « لا أحد يواجه أحداً » والمواجهة هنا هي تلك المضايقة التي يشعر بها الانسان عند ما يفتح نافذته فيرى جاره المقابل لا أنه يستطيع أن يراه فحسب ولكنه يرى كل مـا في داخـل الغـرفـة . وقـد عبر عن ذلك : « بنايات تتجه نحو الفضاء لا تتقابل فيها أنظـار الجيران » . ولقد أعجب بما رآه في القصبة من أن مشاكل « الخلوة » و « الاضاءة » قد وجدت حلهـا في وجود فنـاء بكـل منـزل ، بينما حل مشكل « العمران » الذي يبحث عنه الناس اليوم لايجـاد متسع للمشاة يحيط بالمبـاني ويحميها في وجود الأنهـج الضيقـة وكـل ذلك بوسائـل غير عصريـة .

أما سطوح القصبة ، التي تبدو وكأنها درج هائل يهبط نحو البحر ، حيث يستطيع المرء أن يرى الفضـاء والبحر ، فـان « لـوكوبيـزي » قد خصص استعمالها لبنـاء شقق تشرف على المنـاظر الخارجية ، واستعمال سقوفهـا التي لا وظيفة لهـا لأداء دور هذه الطرقـات الواسعة لتيسير حركـة المرور ، وهي طرقـات لم تكن موجودة بعد في عهد بناء القصبة .

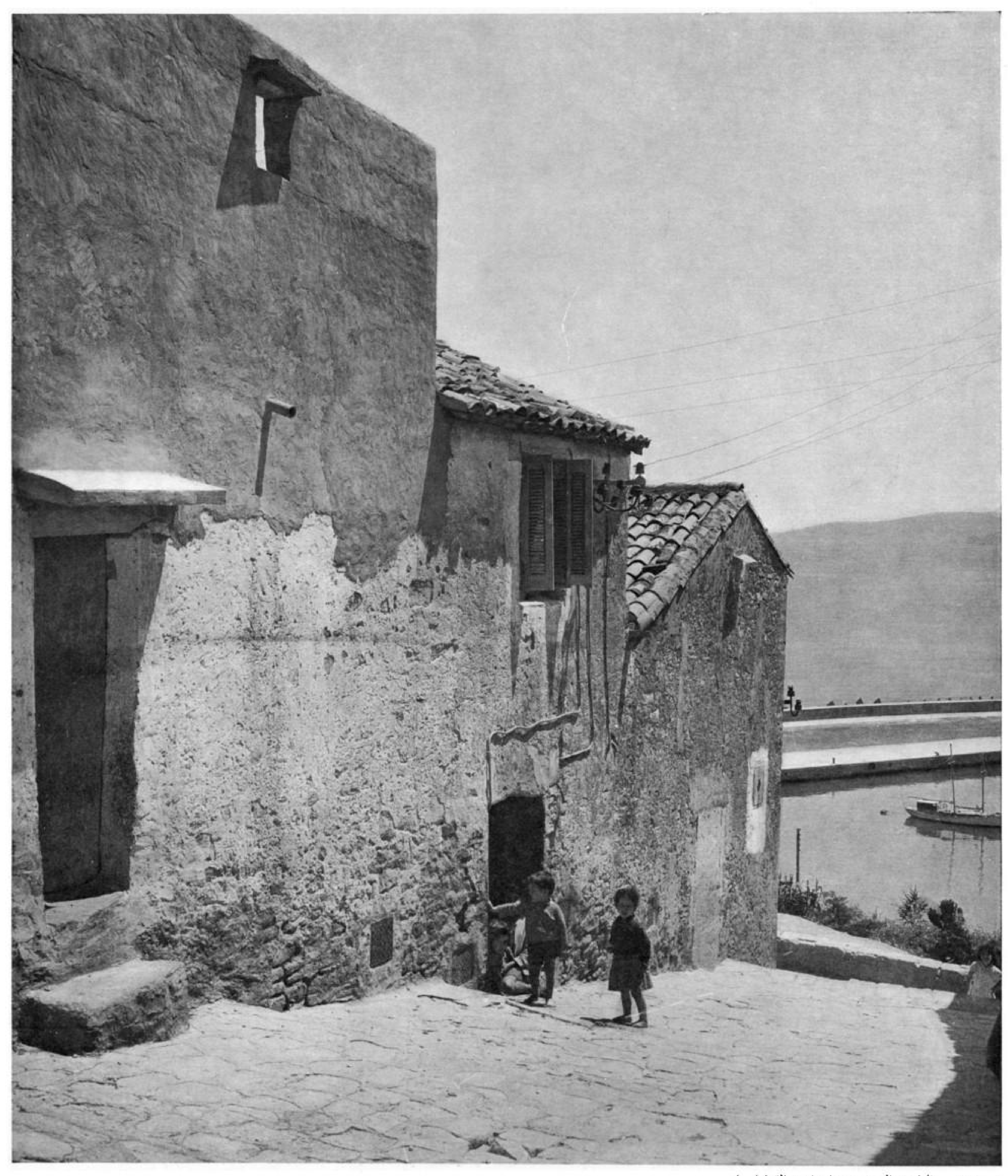
كـل واحد يعلم كيف « أن المجلس البلدي الفرنسي » في ذلك العهد . الذي شعر بالاهانـة والمس بعـاداته التى لم تكن تخضـع إلا للمصالح الخاصـة ، لم يكتف برفض التصاميم المقترحـة عليه فحسب ولكنه طلب من عامـل العمـالة أن يلقـي القبض على هذا « المجنـون » العبقري الذي كرس ثلاثة عشر سنة كاملـة من حياته . تدفعه



شارع في القصبة بالجزائر العاصمة . تطل النافذة الصغيرة على امتداد الشارع

رغبته الجامحة في تكييف عبقرية هذه الخصائص الدائمة للهندسة المعمارية والعمران اللذين اكتشفهما في القصبة وفي الجزائر مع الوسائل العصرية .

لذلك لا ينبغي أن نتحدث عن « نمط » الهندسة المعمارية الجزائرية ، ولكن عن الروح الجزائرية للهندسة المعمارية . وإذا كان المنزل في واحة ميزاب ـ تلك الناحية الصحراوية التي تقع



في دللس البلدة الصغيرة (بلاد القبائل)

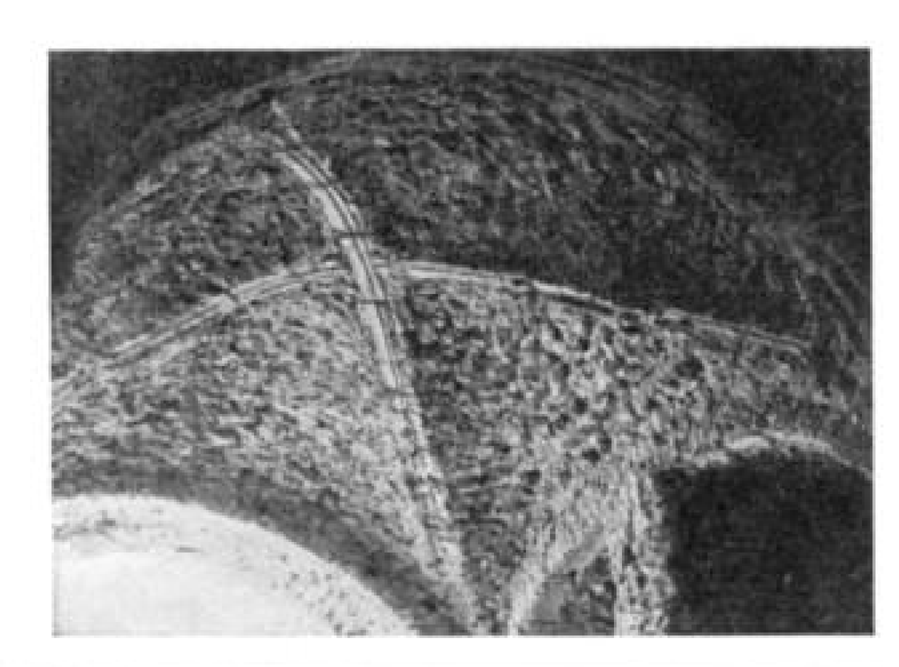
على 600 كم جنوب العاصمة ، والتي تمتاز بتاريخها الثقافي الحافل ـ إذا كان يبدو لأول وهلة لا يشبه في شيء المسكن في شمال الأوراس ، وإذا كان هذان المنزلان اللذان يشكل كل منهما قسماً من تلك الوحدة الكبرى ثمرة روح واحدة ـ فان نفس الخاصيات موجودة بهذا وذلك بالرغم من اختلاف الظروف والبعد والجغرافيا والمناخ . إن التاريخ نفسه أراد أن يجمع بينهما بتقارب روحي كبير .

إن الجهات الكبرى المختلفة للهندسة المعمارية الجزائرية تجمع بينها ـ مع قوة شخصيتها ـ ميزة رئيسية تتمثل في الحشمة والاعتدال وصفاء الخطوط والمستوى الانساني ، وفي ذلك التقشف الاسلامي الذي يجعلها تفضل دائماً الدقة و « الدخلانية » على اللمعان .

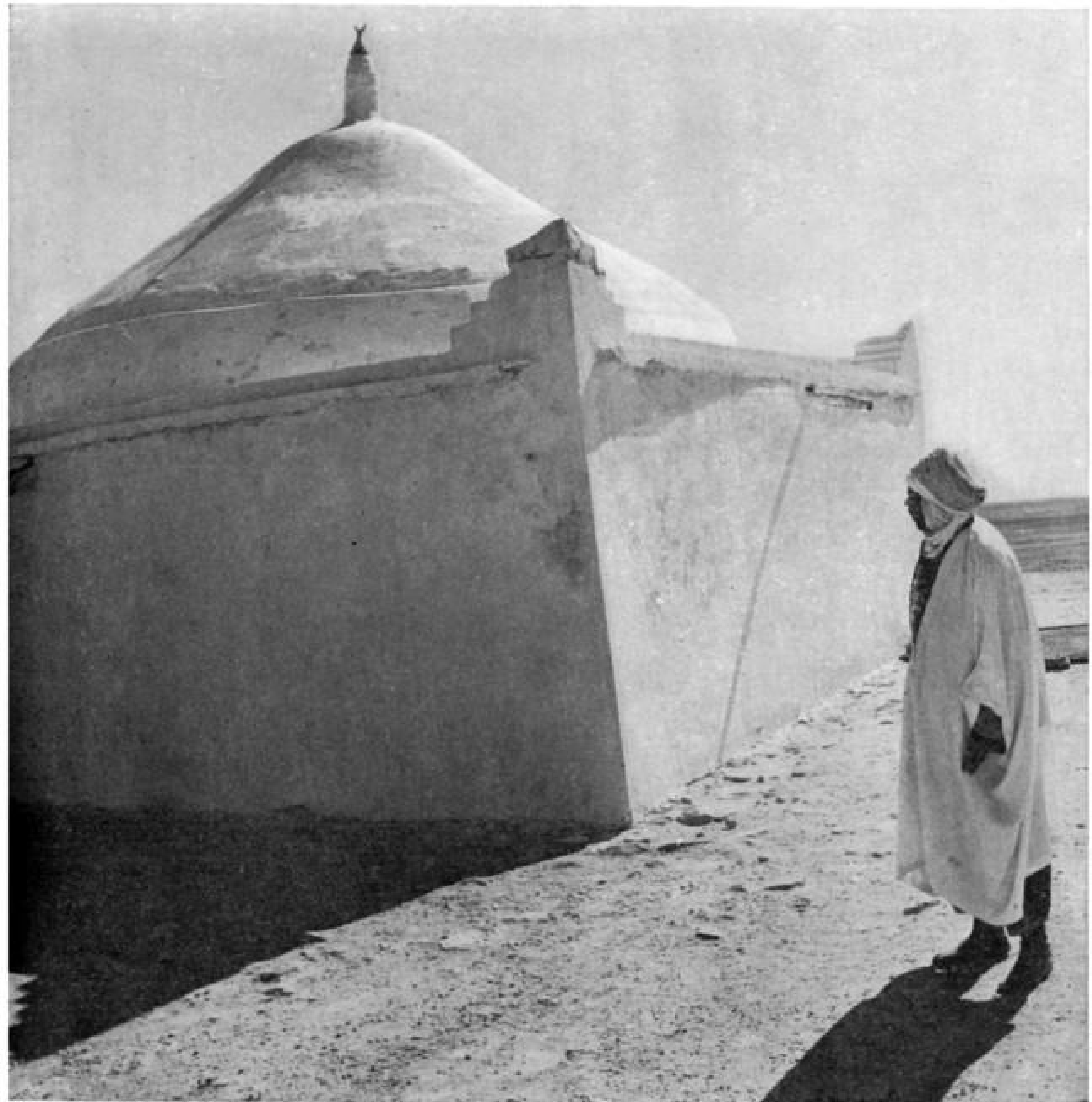
فالبادرة البناءة تتجلى في أصالتها وتقرأ بوضوح في أصغر منزل من منازل طولقة أو تيماسين وأكثرها تواضعاً . فالشاب المهندس المعماري في الجزائر (وفي أوربا وفي العالم) يجد هنا الدرس المطلوب ، إذ ليس بها ما هو عديم الجدوى أو زائد . وذلك أن عقل كل واحد قد أوحى بصناعة جزء من الدرج أو الطنف أو السقيفة بكثير من الشغف والسليقة في آن واحد ، إلى درجة أن المرء لا يستطيع إدراك ما يمكن أن تحتوي عليه البساطة من جمال إلا برؤية هذه الهندسة الرائعة .

فالزخرفة ، كما يتصورها العقل ، منعدمة من هذه الهندسة التقشفية بطبيعتها ، لكن كل عنصر من عناصر تكوينها زخرفة في حد ذاتها . وإذا أخذنا عارضة ما ، من تلك التي أشرنا إلى أهميتها فاننا نجدها بمثابة منفذ للتهوئة ، سواء بحكم ترتيبه فوق الواجهة إلى جانب المنافذ الأخرى التي توازيه ، أو بشكله الذي يشبه « الورديات » المصنوعة من الحجر أو اللبن في الأوراس .

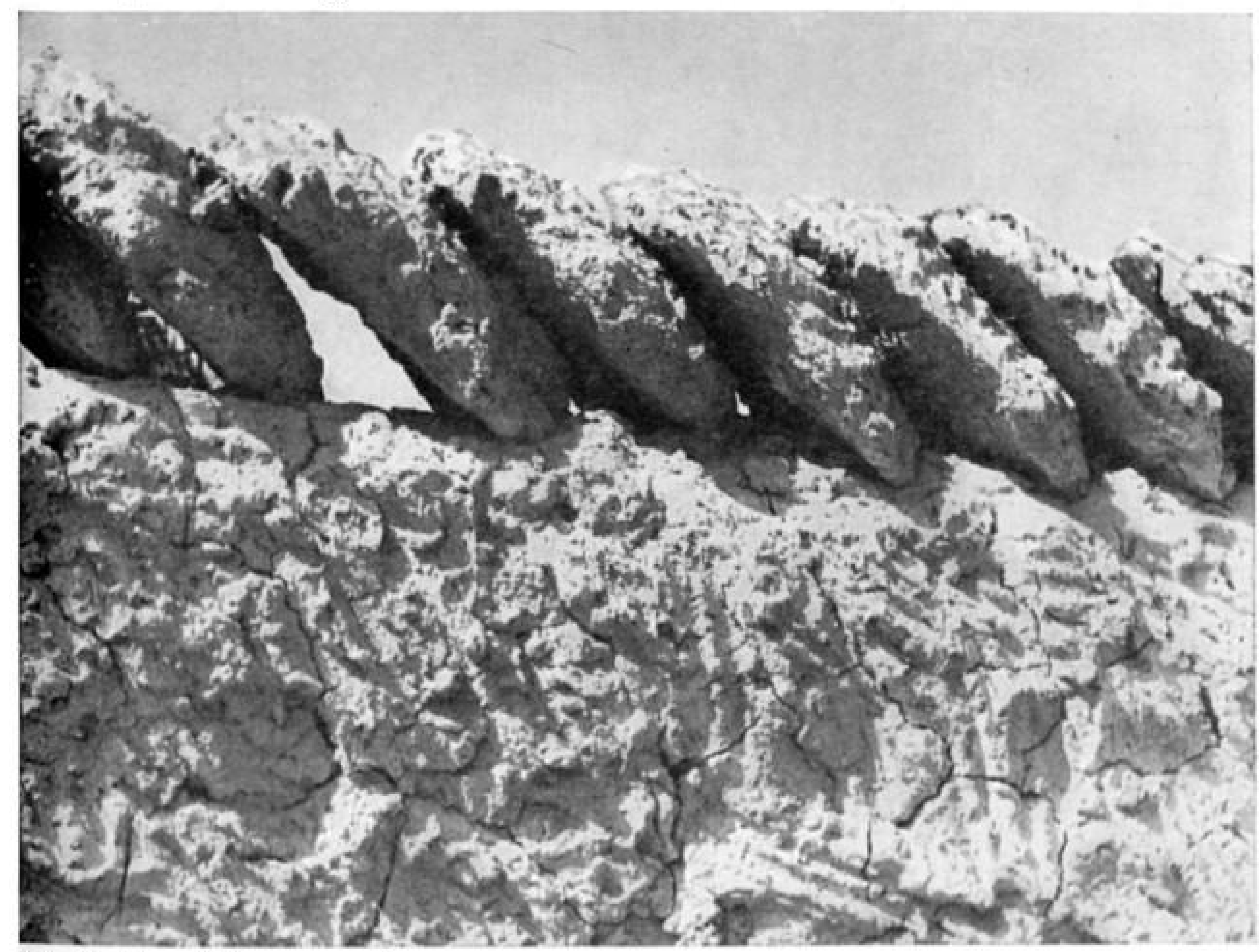
إن ناحيتي ميزاب وسوف هما الوحيدتان اللتان نجد بهما الهندسة المعمارية الجزائرية المحضة ، حيث كان استعمال الأقواس لا يختلف في المنازل عنه في المساجد . فالأقواس هنا لم تبن بالأسمنت ، الأمر الذي يسهل إنجازها (مع الملاحظة أن هذه الجديدة لا تلائم بناءها) ولم تكن أيضاً



← قبب في تاملهات ، ناحية توقرت



↑ إحدى قبب المقابر في المسيلة (سيدي سعيد)

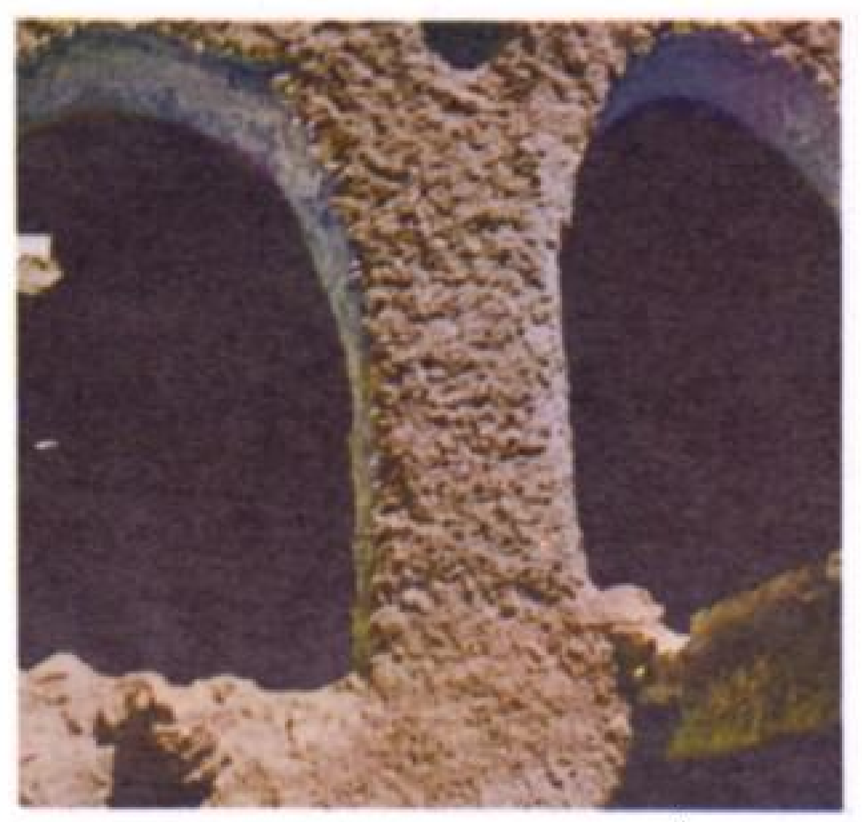


جدار سور من الطوب في الزيبان

دار في الأوراس

مصنوعة من الآجر أو الحجر المصقول ، كما نستطيع أن نرى ذلك في بعض المساجد أو في بعض أروقة القرى النادرة أو في المنازل الكبرى بالجزائر الشمالية ـ ولكن القوس الميزابي مصنوع من خوص النخلة ، الذي عوض أن يستعمل لاقامة البناء بقي ممزوجاً في البناء نفسه . وهو في حد ذاته زخرفة ، رغم أنه غالباً ما يكون الوحيد بالنسبة إلى الهندسة التي يتوجها .

فجمال هذا القوس يكمن في أن خوص النخيل لم يكن أبداً متساوياً من حيث الحجم ، إذ أنه يختلف اختلافاً طفيفاً بالقياس إلى صف واحد من الأعمدة ، اختلافاً في العرض أكثر منه في الارتفاع .

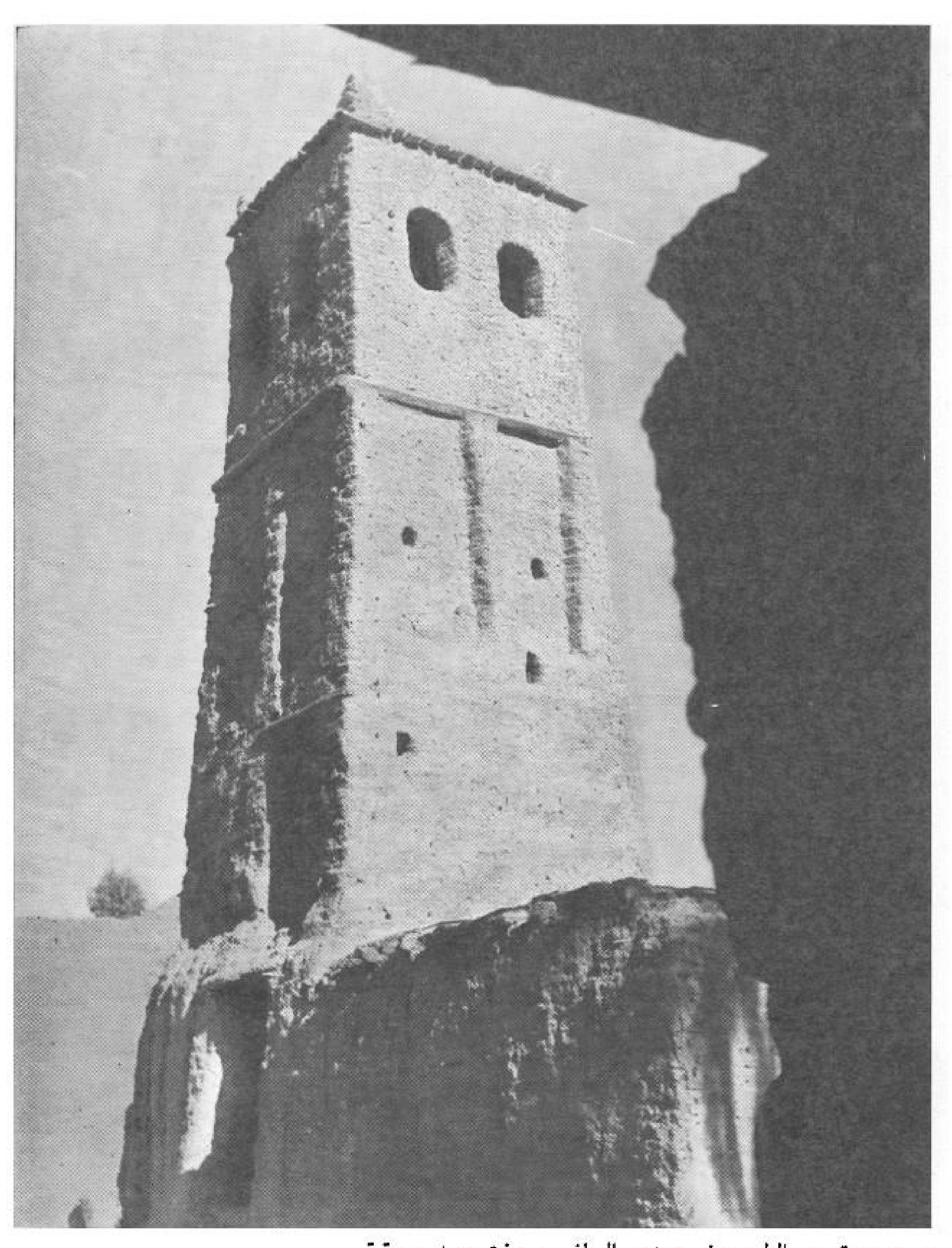


إحدى الأقواس العتيقة في المزاب ، العطولس

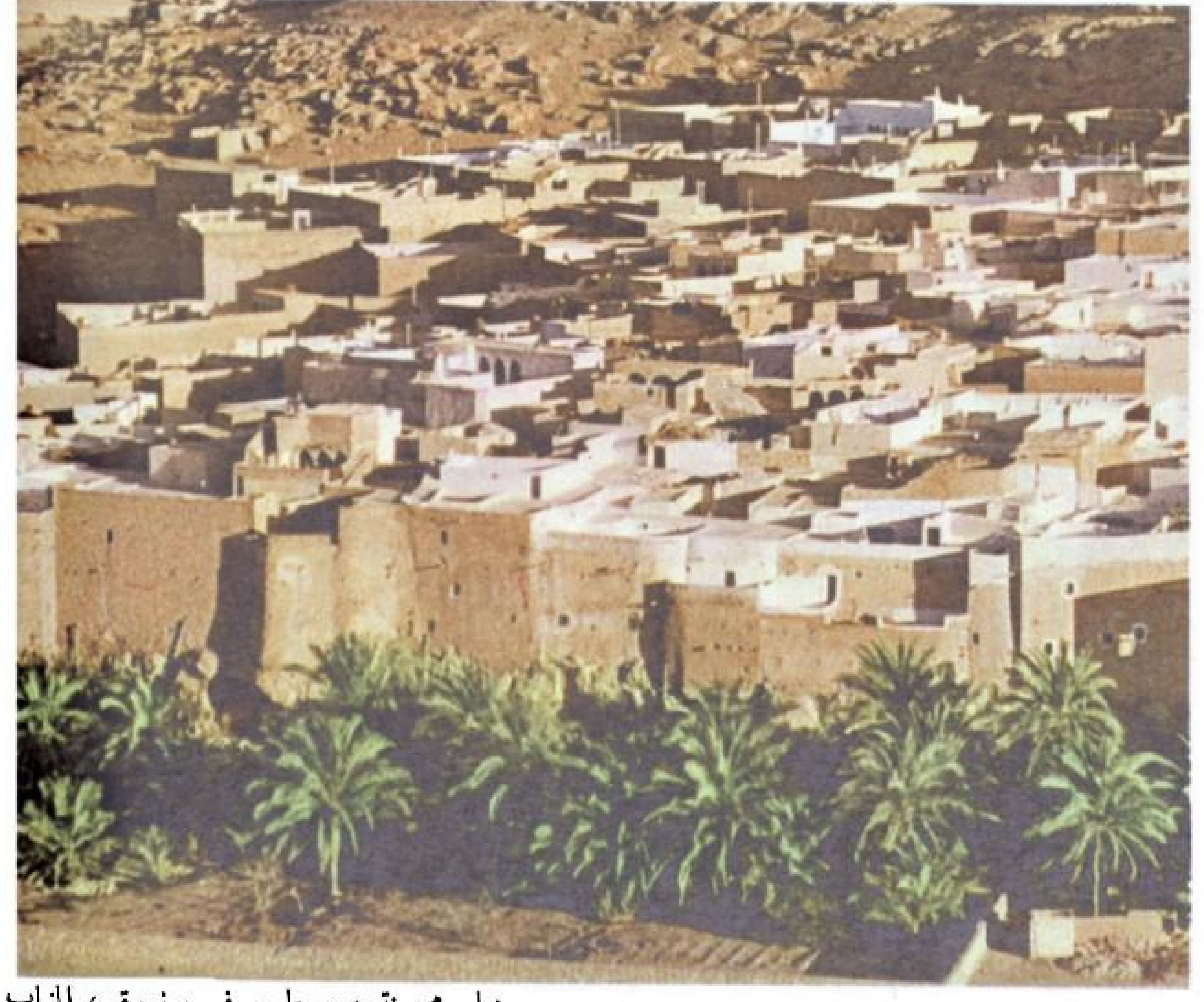
وبما أنه من المستحيل إيجاد خوص أكبر من تلك الأحجام المتساوية نسبياً ، فان القوس التقليدي فى ميزاب يضفي على الجهة مستوى واحد ، سواء فى المساجد أو في المنازل ، مستوى داخلي يشكل المستوى البشري بالذات .

إن هذه الروح نراها هنا تتجلى رغبة في التقشف ، ونراها في غير هذا المكان تتمثل في التقشف الضروري ، الذي يفرضه نقص الوسائل وقساوة المناخ وصعوبات الحياة ، وهي في كلتا الحالتين تبدو وكأنها جمال ساحر يحرك اليد الصانعة ، اليد التي تعرف كيف تصنع .

وسواء كان الأمر يتعلق بقوس المدخنة (الذي يكثر استعماله محلياً في الجزائر) أو قوس




↑ صومعة من الطوب في سيدى الحافي ، رفيق سيدي عقبة


ديار محصنة ، وسطوح في بونورة ، المزاب

الدرج أو السطوح الجميلة الترتيب المتعددة أو بذلك القرميد المسمى « بالروماني » والذي نراه في المساكن القبائلية ، فان كل ذلك يشكل أحد الآثار الأخيرة الحية من آثار الانسان المهندس المعماري . إن الانسان الذي يقطن المدينة أصبح يجهل فن البناء ، لأنه صار مقيداً بكثير من المتنوعات الظاهرية والعتاد ، وحائراً ، أكثر من المهندس المعماري نفسه ، في الاختيار المعروض عليه في الأنهج أو في المجلات المختصة وغير المختصة ، التي لم تكن في يوم من الأيام وسيلة صالحة للتعليم . على أن الانسان الذي يقطن الأرياف ، في داخل الجزائر ، لا يزال يعرف فن البناء ؛ يعرف كيف « يعالج » الحجر أو اللبن (الطوب) بدقة لم يعرفها إلا القليل من البناة أو المهندسين في العالم . وقد آن الأوان أن



دولمان بونوارة

نطلب منه إفادتنا بهذا العلم الثمين قبل أن يغريه التقدم المتزايد فيحمله على النسيان .

إن تـأليف كتـاب في هذا الفن لا يكـفي لابراز كل جوانبه . لأن ذلك لا يعدو أن يكون سرداً للخطوط الكبرى للهندسة المعمارية الجزائرية لا غير ، وهي الهندسة المعمارية التي تبحث عن الطبيعـة وتريد أن تكون في مأمن من أخطـارها في آن واحد ، والتي تعبر عن فلسفة حياة بسيطة ومثالية . لقد ذهب الناس مذاهب شتى في تشبيه هذه الهندسة المعمارية بتلك التي تريد « الموضة » أن تفرضها على جميع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط في صورة نموذجية تمثل واجهات كبيرة بيضاء تتخللها نوافذ صغيرة بأقواس . وهو تبسيط للأشياء يجب الاحتراز منه . فالعـالم الحديث لا يعكف أبداً بصورة كافية على ما تركـه الأجداد

دولمان بونوارة

من رسوم . والجزائر تملك اليوم من هذه الرسوم ثروة لها قيمتها تجعل من هذا البلد ـ بالاضافة إلى جمال المواقع ـ أرضاً مأثورة ومفضلة .

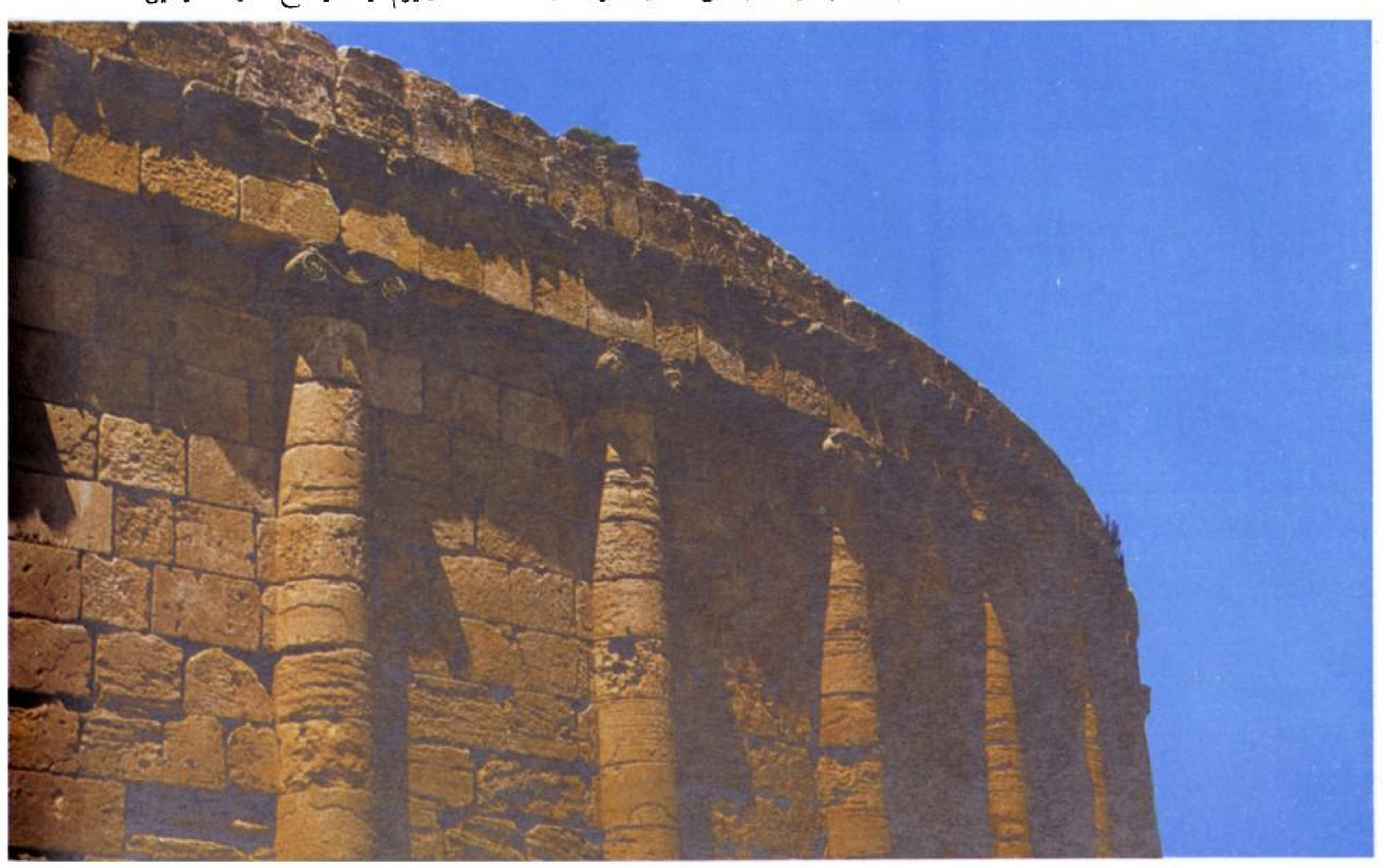
إن المهندسين المعماريين الجزائريين يستعدون اليوم للحفاظ على هذه الثقافة المتمثلة في معالجة الحجارة والتربة والمادة التي بقيت من حيث تنوعها على حالتها الخالصة ، وإبراز قوتها وأصالتها ودرس خصائصها الدائمة إلى الوجود ، إلى الناس .

الجانب التاريخي

إن وضع جزء من صخرة أو صخرة منبسطة ، ووضع أخرى ذات زاوية مستقيمة ثم ثالثة موازية للأولى وتغطية هذه « الجدران » الثلاثة ببلاطة ضخمة ، تلك هي البادرة البدائية الأولى في البناء ، وذاك هو ما يسمى بالنصب .

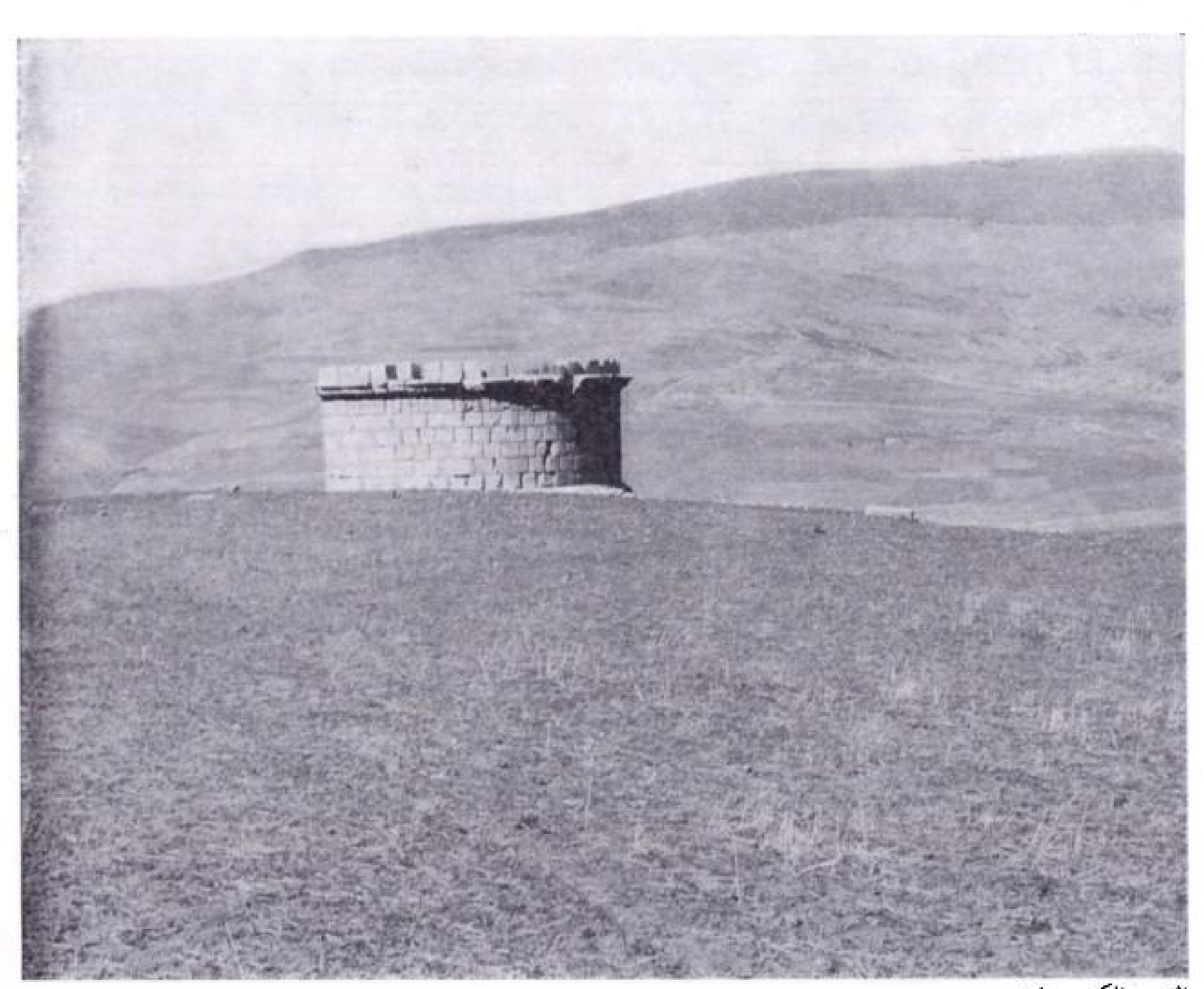
فالانسان ، ذلك الكائن الضعيف جسمانياً ، الذي تربيه أمه وتعتني به ويغذيه أبوه خمس حياته (ربع حياته اليوم) خلافاً لدنيا الحيوان ، إن هذا الانسان كان دائماً في حاجة إلى مأمن . والانصاب ليست بمآمن ولكنها لحود . والانسان ،

كليوباترة سيلين
بنت كليوباترة الكبيرة
وأنطوان زوجة جوبا
نامت طوال قرون
في هذا القبر
الذي يبدو عبر المتيجة
ويبدو أيضاً من البحر على مسافة بعيدة
واليوم أيضاً يصلح مناراً للصيادين



خلافاً لدنيا الحيوان إلى أن يحصل العكس ، كان أيضاً في حاجة إلى البقاء ، إلى ضرائح لدفن الأموات وإلى إله أو أكثر لطمأنة روحه .

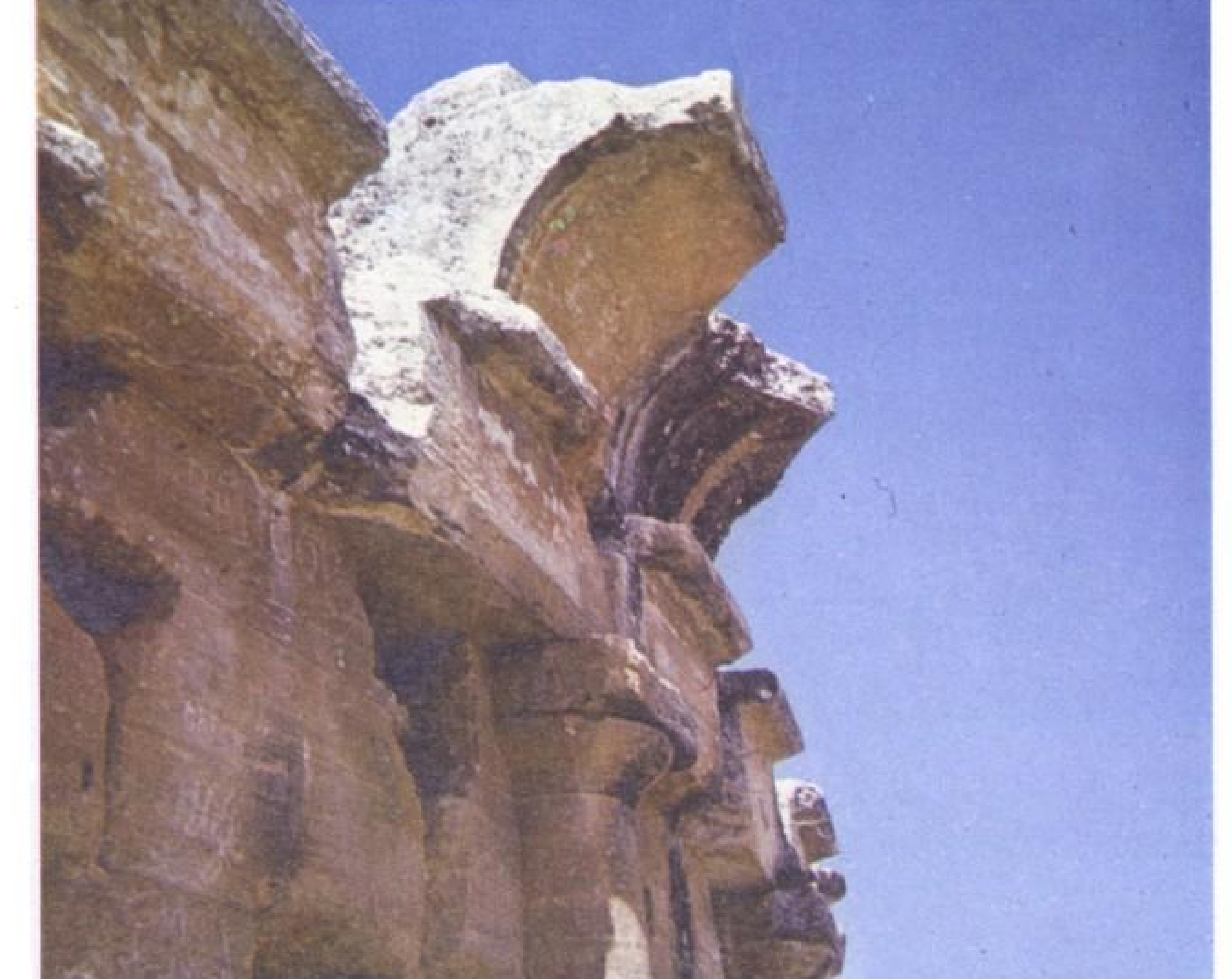
لم يتوصل علماء التاريخ إلى تحديد عهد الانصاب في الجزائر بصورة مضبوطة . ومعلوم أن هذه الأنصاب تضم أحياناً ـ علاوة على الاجسام المدفونة ـ جواهر من النحاس ، ونقوداً ترجع إلى عهد قرطاجة أو نوميديا ومصنوعات فخارية . والأشياء التي استطاع العلماء ضبط تاريخها ترجع إلى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد . ولعل الناس الذين خلفوا تلك الأنصاب ، أو البعض منهم على الأقل ، كانوا يعيشون في بيوت من الحجر أو من التربة الكثيفة ، التي تشكل وقاية مؤقتة كاملة من البرد أو الحرارة أو الحيوانات الضارية . وبهذا الصدد نجد في حي من أحياء بسكرة القديمة بيوتاً من اللبن (الطوب)


القبر الكبير لتديس

لا تكاد تتميز عن الطبيعة التي خرجت منها ، مما يعطينا فكرة عن ميزة هذه البيوت التي غالباً ما تكون جد جميلة ، ولكنها قابلة للاضمحلال مع طول الأمد .

إن الاهتمام بالبقاء ، الذي طغي على الحاجة إلى المأمن ، قد خلف في الأرض الجزائرية أول رسوم تدل على الرغبة في البناء بقيت واضحة حتى عصرنا هذا . وقد تم اكتشاف حقل بقرية الركنية بالقرب من قسنطينة يضم 3000 نصب . ومن المؤكد أن هناك حقولا أخرى من هذا القبيل لا تزال مجهولة .

لقد كانت الضرائح موجودة في الجزائر قبل الفتح الاسلامي وقبل الاحتلال الروماني بالذات ، ثم في العهد الروماني نفسه . وكانت هذه الضرائح المحلية المستديرة الشكل تسمى « شيشي » لأنها تشبه « الشِشية » . وقد كانت هذه اللحود ، التي يتراوح قطرها بين ثلاثة وخمسة أمتار وارتفاعها


مدراسن

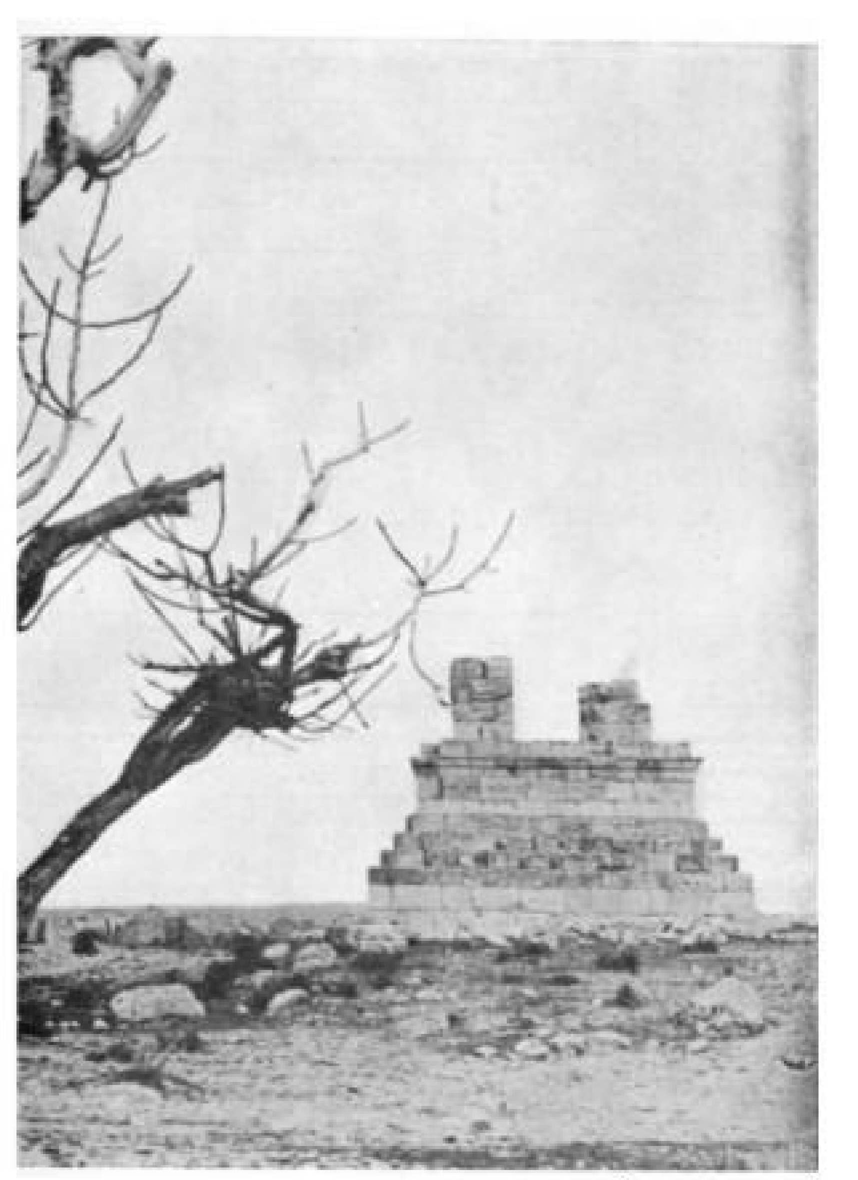
بين مترين وثلاثة أمتار ، تمثل بناءات صغيرة . إذ أنها كانت تبنى بالحجارة المنبسطة بغير ملاط وتسقف بملاطة أو عدة أملطة . ونجد على هذا الشكل المستدير أيضاً (مع الفارق العظيم في الحجم) « مدرسن » الأوراس الشهير ، الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد . وتعلو هذا الأثر التاريخي قبة هائلة على شكل مخروط مدرج . إن الحجر المصقول الذي تتكون منه هندسته المعمارية يدل دلالة واضحة على إمكانيات البناء في ذلك العصر . وفي هذا المضمار نشير إلى ضريح آخر من هذا القبيل ، أي ما سمي خطأ « بقبر المسيحية » . ونقول خطأ لأنه يكاد يكون من غير المحتمل أن يضم هذا الضريح رفاة كليوباترا سيليني ، بنت كليوباترا الشهيرة . ولو سلمنا بصفة ذلك ، أصحيح أن « سيليني » كانت تدين بالمسيحية ؟

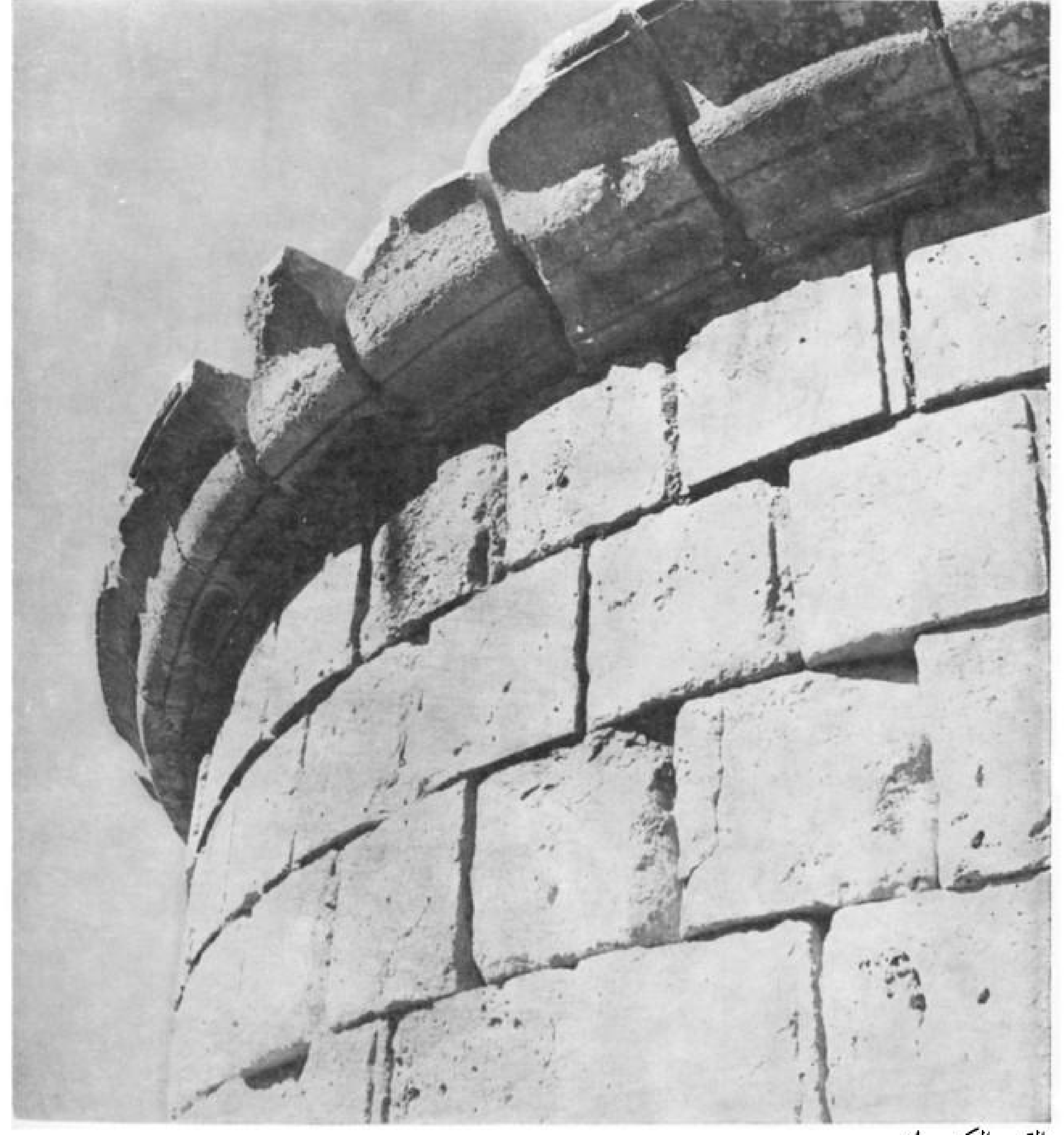
ومهما يكن من أمر فان هذا الضريح يشكل بالنسبة إلى المصرية الصغيرة منظراً طبيعياً مزدوجاً : منظر سهول متيجة التي تحدها جبال الأطلس التلي جنوباً ، وامتداد البحر المتوسط شمالا .

لقد كان باب هذا الضريح على شكل مقصلة ، أي كان مكوناً من بلاط كبير يتزلق بين قطعتين من الحجر المصقول ، وينفتح على دهليز حلزوني الشكل ، مبني بالحجر المصقول الجميل وينتهي في أعلاه بحنيات تشبه المهد ، ويؤدي هذا الدهليز إلى المكان الذي يرقد فيه الموتى ، والذي داسته الأقدام قبل أن يكتشفه علماء الآثار .

وهناك ضريح آخر في أهبة الضرائح الرومانية ، ونعني بذلك ضريح « تديس » المستدير الشكل ، الذي أقامه أحد الجزائريين لنفسه وهو على قيد الحياة . ويبلغ قطر هذا القبر حوالي عشرة أمتار ويرتفع سفحه في صورة منحدر يستهوي الأنظار من بعيد ، مثل كل القبور الكبرى لذلك العهد .

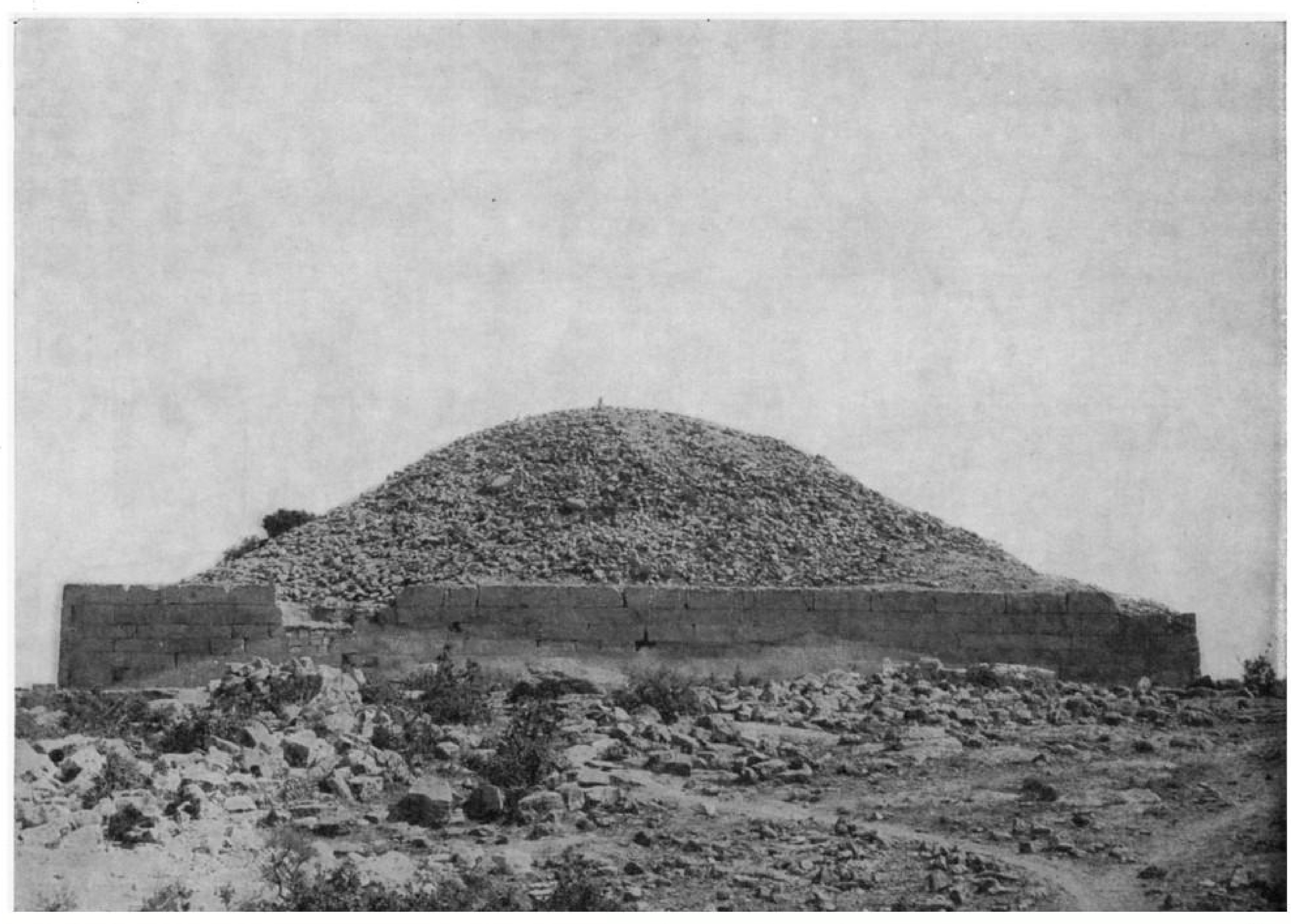
ولنبق في ضواحي قسنطينة ، أي في الخروب الواقعة جنوب العاصمة الشرقية حيث يوجد قبر مربع الشكل على جانب كبير من الأهمية ، يرقد فيه أحد كبار المحاربين البربر ، ربما كان ماصينيصا . ويوجد هذا القبر بالضبط في موقع جبلي يبدو للناظر من بعيد (إذ أنه يشرف على قسنطينة وسهولها الفسيحة التي تمتد حتى أبواب الأوراس) ! فهو بمثابة قاعدة ضخمة مكونة من الصخور الكبيرة المصقولة والمنقوشة بدقة . وقد كانت تعلوه أعمدة تهدمت اليوم ، يحتمل أنها كانت مغطاة بسقف هرمي الشكل تحيط به أطناف


قبر مسينيصا


القبر الكبير لتديس

رشيقـة . أمـا الاتراس (تذكـار النصر) فانهـا منحوتة في الصخور . وقد كان هذا القائد يرقد في تابوته المزخرف بـالفضة مع خوذتـه وأسلحته ودرعه المشبك (كـل هذه الأشياء معروضة اليوم في متحف قسنطينة) .

وفي ناحيـة الهقـار ، بقريـة « عبـانسة » الواقعـة قرب تمنراست بني قبـر الأميرة « تين هينان » قبـل الفتح الاسلامي بقليل . لقد قدمت هذه الأميـرة ، أم قبـائـل الطوارق النبـلاء من « تافيـلالت » . ويمتـاز قبرهـا عن تلك التى ذكرناها بخاصيـة كبيرة : فهو لم يكن ضريحاً فحسب ولكنـه كـان ـ وهذا جد محتمل ـ قلعـة كانت تسكنها الأميرة وجندها قبل أن تتداعى من

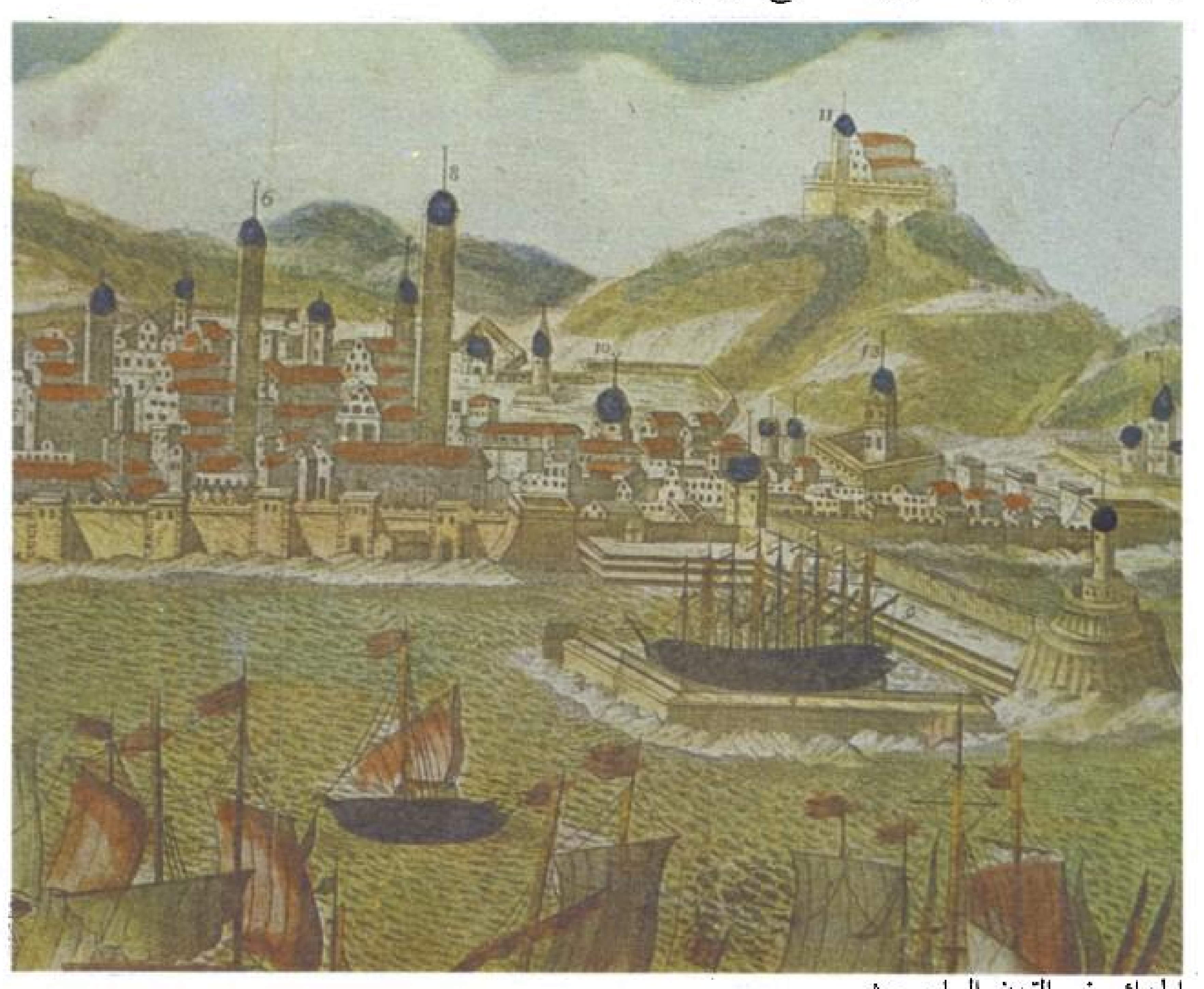




تمغاد

فوقهـا القاعـة وهي راقدة على سرير من الخشب المنقوش ، حاملة لبـاساً من الجلد الأحمر وجواهر من الفضة والعقيق والذهب .

وتتكـون جدران هذه القلعـة الكثيفـة من حجارة كبيرة متنـاسقة (تتراوح كثـافة الجدران بين متر واحد وأربعين سنتمتراً وثـلاثة أمتـار وسبعين سنتمتراً) . ومن الخـارج تبـدو هذه



الجزائر في القرن السابع عشر



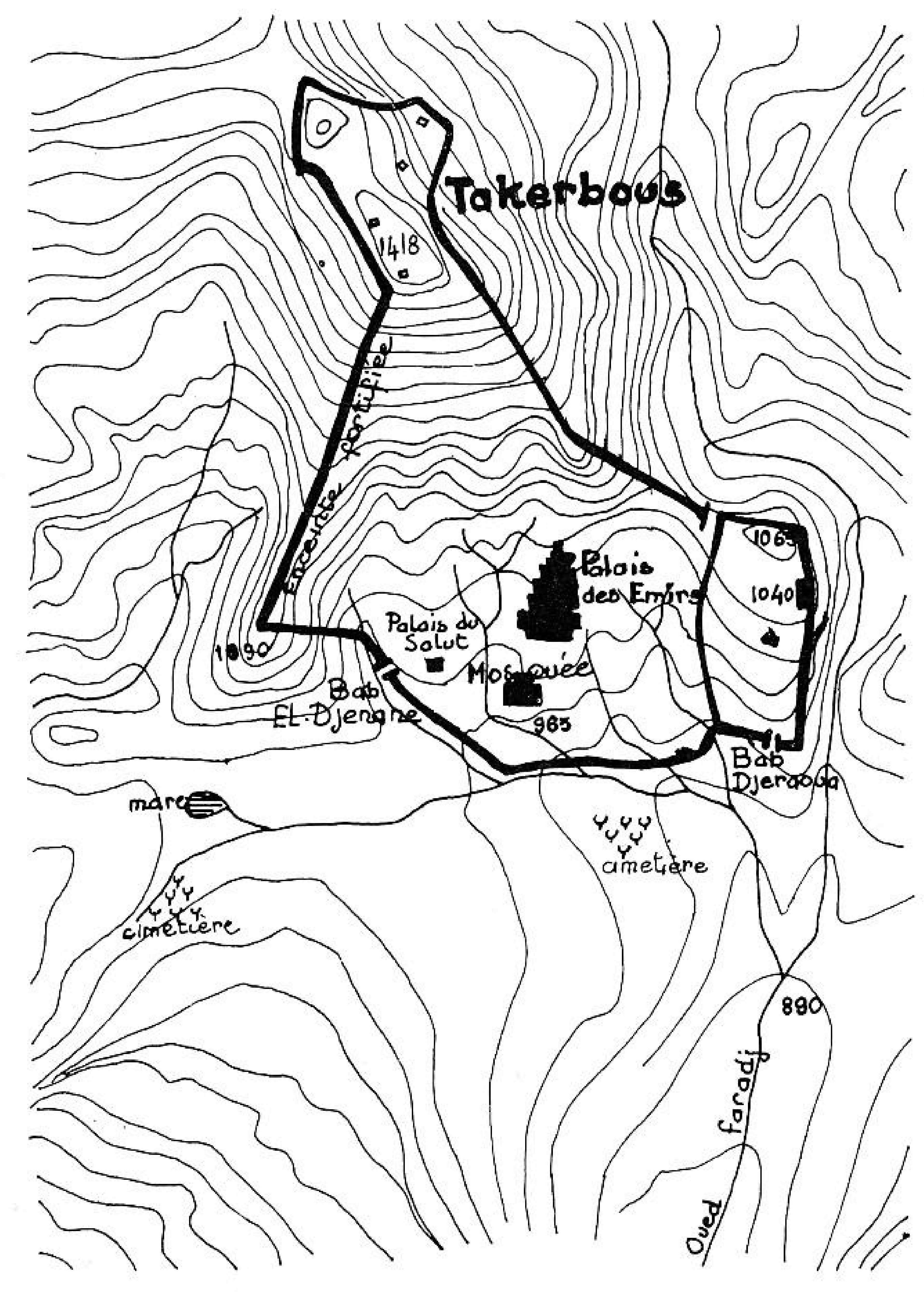
الجزائر في القرن التاسع عشر

الجدران منحنية ليس بها زوايا . أما الغرف الحادية عشر الداخلية فانها بنيت على شكل منحرف غير منتظم الأضلاع ، وتتصل ببعضها دون أن يكون لها دهليز مركزي . ولهذه القلعة باب واحد فقط ، الأمر الذي يدل على أنها قلعة . إن هذا النمط للهندسة المعمارية ، الذي لم يدرس إلا قليلا سيجلب الاهتمام مرة أخرى من دون شك ، إذ أنه يتعلق بأول بادرة بنائية في المقار ، وهذا يستحق أن يشار إليه .

هل كان الانسان لا يبني إلا لنفسه فقط ؟ ذلك أنه لم يحصل العثور على مساكن معاصري هذه القبور التي تحدت الزمن مع ذلك ، أو أن الحضارات المتتالية كانت تكتسح بعضها البعض في تلك العصور القاسية ، عصور الغزو والحروب، فلم تحترم سوى هذه الضرائح إحتراماً للشعوذة والخرافات ؟

لقد قامت مملكة الأمراء في ضواحي تيارت من القرن السادس إلى القرن السابع بعد الميلاد ، ببناء الجدار . ويعلو هذا الجدار المربع التصميم بناء آخر على شكل هرم مدرج ذي زوايا غير حادة . ومما لا شك فيه أن هذا البنيان كان مكللا بسطح ، الأمر الذي يذكرنا بهيكل « إنكاس » بالبيرو . ولعل هذا السطح كان محلا للقربان أو الضحايا . ولعل الدرج قد عرف ارتقاء الجماهير إلى القمة فكل ذلك محتمل . ويحيط بهذا النصب التذكاري سور مربع الشكل هو الآخر ويبعد عنه بعدة أمتار . ويتكون الحائط العمودي الذي يفوق الدرج ارتفاعاً من الحجر المصقول .

وهناك أيضاً مدخل يؤدي إلى الرواق على شكل مربع أيضاً قد بنيت في أركانه الأربعة قبور كلها في اتجاه واحد ، أي تتجه نحو الشرق . وفي الغرف تصطف القبور على طول الجدران .



تصميم قلعة بني حماد

Echelle:
500 400 300 200 100 0 500 1000m



القلعة

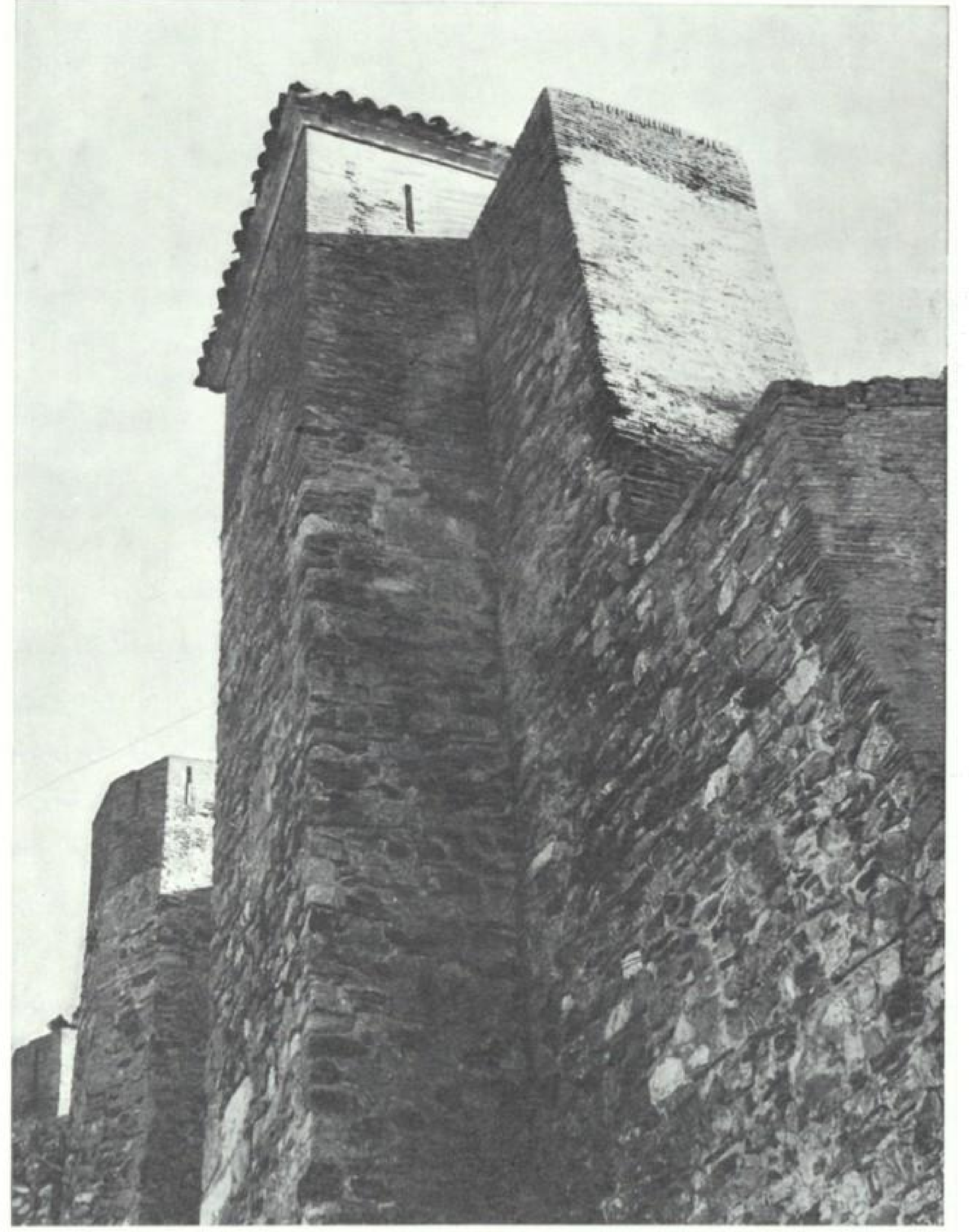
إن أصالة هذا البنيان من حيث هندسته المعمارية تكمن في الحنيات التي تشبه قليلا الحنيات الرومانية ، والتي تنتهي في أعلاها بعقد منكسر فوق الغرف أو بعقد يشبه المهد فوق الأروقة ، مغطى بالأملطة العريضة الطويلة التي تحتل عرض الدهليز كله وترتكز على الجدران من كل جانب . ونجد فوق هذه السقوف المغطاة بالأملطة فراغاً مغطى هو الآخر بالملاط . ومن شأن هذا الفراغ ، الذي يبلغ ارتفاعه سبعين سنتمتراً ، أن يخفف من ثقل الغطاء الذي قلنا أنه مكون على شكل هرم مدرج مملوء بالضرورة، وبالتالي ثقيل جداً . أما الأبواب الداخلية المؤدية إلى الغرف فانها تمتاز بنقش بارز هندسي يشبه إلى حد الغرابة تلك النقوش التي نجدها على أبواب المنازل القبائلية الحالية .

من المؤكد أنه يبقى علينا أن نقول الكثير ونعمق البحث ، علاوة على الدراسات التي تمت بعد ، حول الهندسة المعمارية للضرائح في الجزائر، التي لم ننته بعد من معالجتها . غير أننا سنتطرق إليها من الآن فصعدا في نطاقها الحديث . فالقبور التي سنذكرها بصدد الحديث عن الهندسة المعمارية التي تحيط بها هي الضرائح الاسلامية . ذلك أن عهد الاحتلال الروماني وهندسته المعمارية في الجزائر قد درس كثيراً ، مما لا داعي للوقوف عنده طويلا . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن الرومان قد عملوا على تطوير مظاهر العظمة

في مدنهم الجزائرية بتدر تطور الحياة العمومية . لكن الميادين الفسيحة وألعاب « السرك » والمسرح لم تكن لتؤثر تأثيراً حقيقياً على الحياة المحلية . وباستثناء الحمامات ، حيث كانت تلتقي نخبة الشباب ، والتي فقدت هي الأخرى جانبها « التأسيسي » للحياة العصرية ، فان جميع التظاهرات الأخرى والأماكن العمومية لم يبق لها أثر في الحضارة الاسلامية التي تلت العهد الروماني ، فطبعت الأشياء بروحها . وخلافاً للآثار الرومانية فان نمط البيوت التي تمتاز بالفناء (وسط الدار) ، الذي هو علامة من علامات الحوض المتوسط لحماية الداخلية العائلية ، قد بقي على حاله دون أن يستطيع أحد أن يقول أكان نمطاً مغربياً تلقائياً أم لا .

لقد بدأ الفتح الاسلامي في الجزائر حوالي القرن العاشر الميلادي بفتوحات عقبة بن نافع في

القوة والأناقة
باب فوكه
بقي الشاهد الوحيد
لروائع بني حماد في بجاية





↑ ملاط في اسدراتن ، منظرعصري

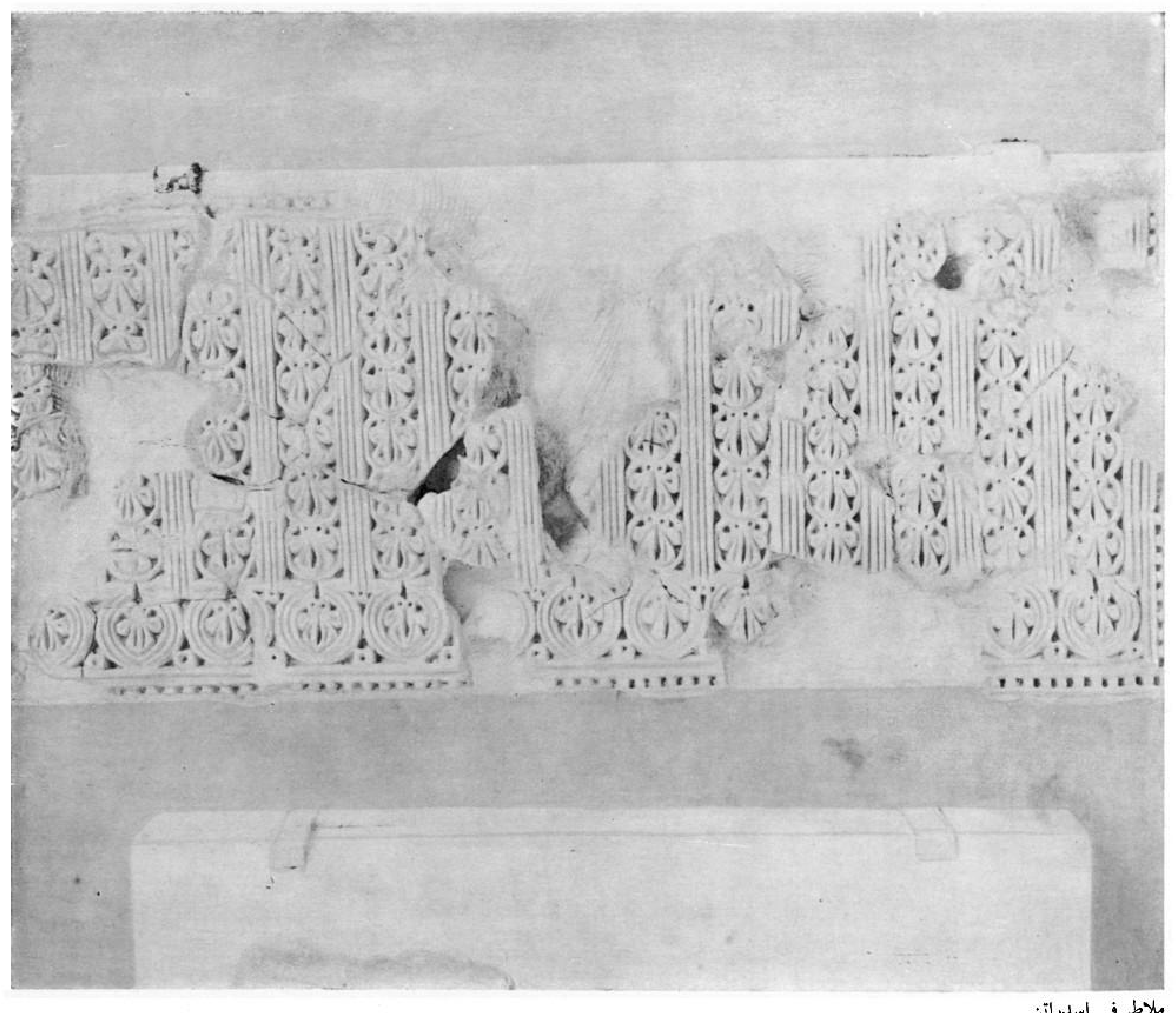
عهد دولة الأمويين ببغداد . وفي القرن الثامن الميلادي قام الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون بفتح إسبانيا ، ممهدين بذلك لخلق مهد للهندسة المعمارية الأندلسية المسماة « بالاسبانية ـ العربية » .

وفي القرن التاسع كان سكان المغرب يخضعون إلى ثلاثة أنواع من الحكم : الادريسيين في فاس ، العباسيين في القيروان ، الرستميين في تيهرت (بالقرب من تيارت الحالية) .

لقد وفد ابن رستم إلى الجزائر من بلاد الفرس ، فاختاره المحاربون وطبقة النبلاء البربر الذين اتبعوا الخوارج في معتقدهم قائداً لهم . فالمذهب الاباضي يسوى بين المسلمين العرب وغير العرب ، وهذا ما استحسنه البربر الذين كانوا حديثي عهد بالاسلام ، ويأمر بالتقشف والزهد

في العيش والسكن ، وهذا ما يعنينا بالدرجة الأولى ، وبذلك كان يتجاوب مع مزاجهم الكريم والمتقشف في آن واحد . وكل واحد يعرف قصة الامام ابن رستم الذي كان عليه أن يستقبل وفداً أجنبياً جاء لزيارته وتقديم الهدايا له . فقد كان جاثماً على سقف بيته يضع بنفسه الملاط الذي يقدمه له عبده بعد أن يعجنه . فرمم السقف ثم حيا ضيوفه ، وذهب يغسل يديه ويبدل لباسه ، ثم استقبلهم في منتهى البساطة .

إن هذا الميل إلى التقشف والعدالة أيضاً قد برهنت عليه الجزائر في جميع العصور . فهو لم يكن يتجلى في الميادين الدينية فحسب ولكن في الميادين الأخرى أيضاً (لم تكن الدوناتية فى الجزائر الرومانية هي المذهب المسيحي الوحيد الذي يمتاز بالصرامة) . ولنذكر في الميدانين السياسي والاجتماعي ، ثورة الأهالي التي أقلقت المحتلين



ملاط في اسدراتن

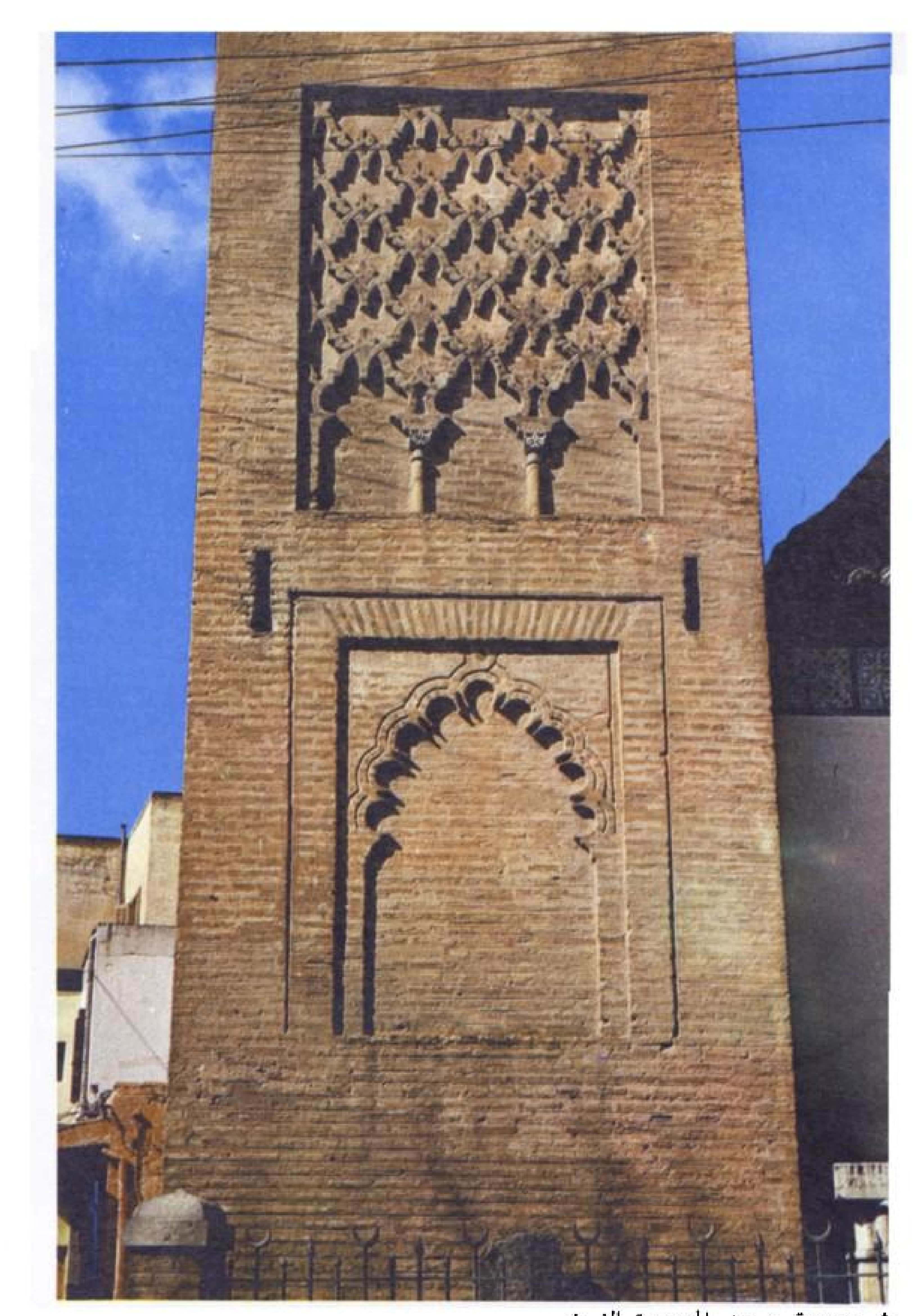
الأجانب . فقد كانت هذه الثورة ، ثورة الفلاحين البربر فى الجزائر ، تمتاز بطابع المساواة .

وفي القرن العاشر الميلادي كانت الجزائر المسلمة قد احتفظت بقادتها المحليين الذين خلدوا - بالتحالف مع خلفائهم في بغداد وفي القيروان - الممالك التي كونها العرب . وقد لجأ بنو رستم ، بعد هزيمتهم في تيهرت ، إلى « إسدراتن » بالقرب من ورقلة ، بينما قام بنو حماد والزيريون في « أشير » وقلعة بني حماد وبجاية بانشاء قصورهم ومدنهم الخاصة . وقد تمت دراسات وافرة في تاريخ قلعة بني حماد ، تشيد بازدهارها خلال القرن الحادي عشر بأكمله . وقد نجحت هذه العاصمة الجديدة لافريقيا الشمالية بازدهارها في إخفاء القيروان التي كانت تشرف على الانحطاط .

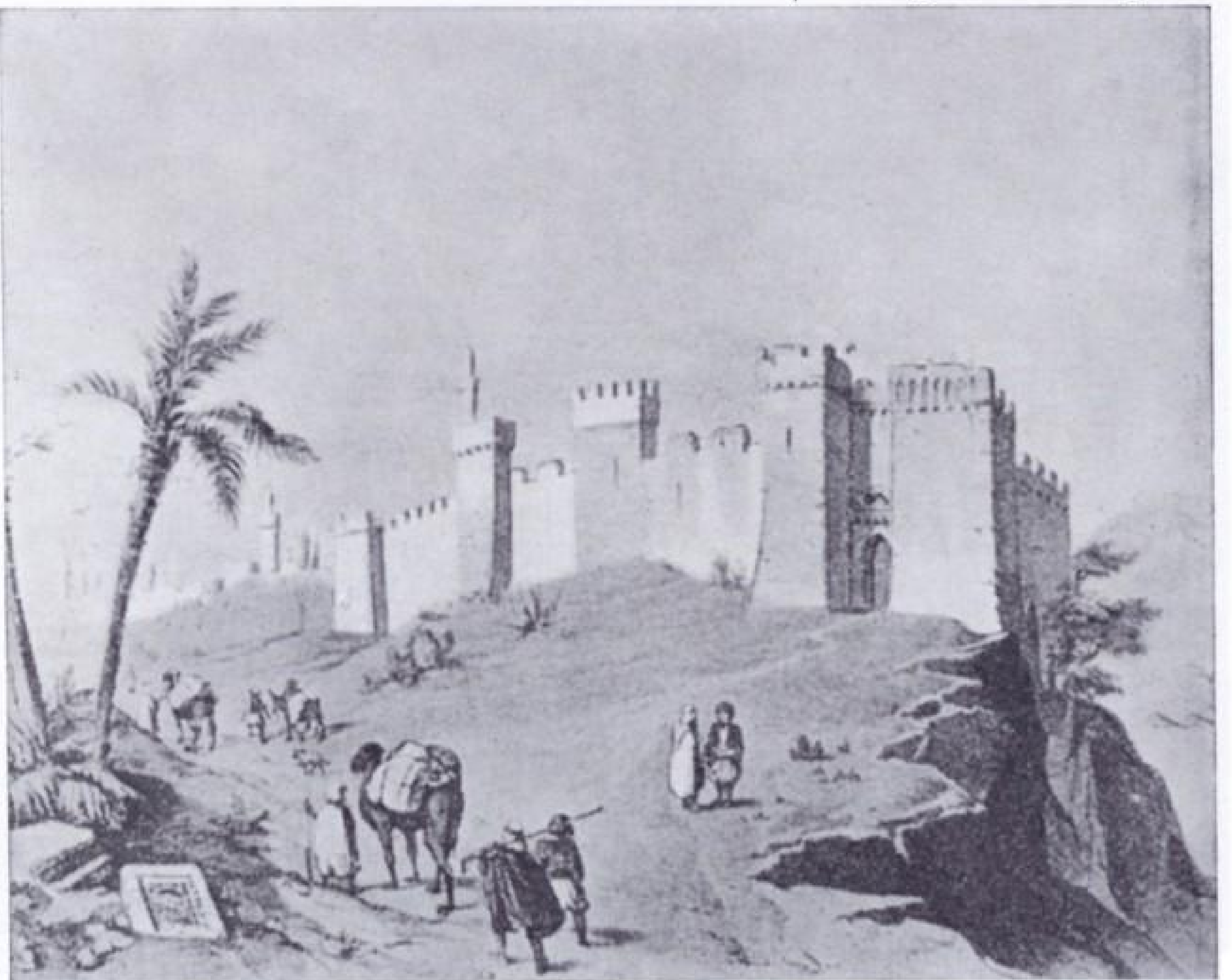
وقال ابن خلدون في شأنها ما معناه : « إنها لم تلبث ، أي قلعة بني حماد ، أن بلغت قمة الرخاء . فكان سكانها يزدادون بصورة سريعة ، وكانت محط الوفود ، من أصحاب الحرف والطلبة ، تيممها من أقصى البلدان ومن أطراف المملكة » .

لقد كانت الزخرفة الهندسية ، مثل الأقواس والملاط المنحوت والقاشاني الأزرق والأبيض (في شكل صليب أو نجمة ذات ثمانية فروع) موجودة في قلعة بني حماد قبل قصر الحمراء بثلاثمائة سنة . وقد ثبت أنها « من صنع محلي » .

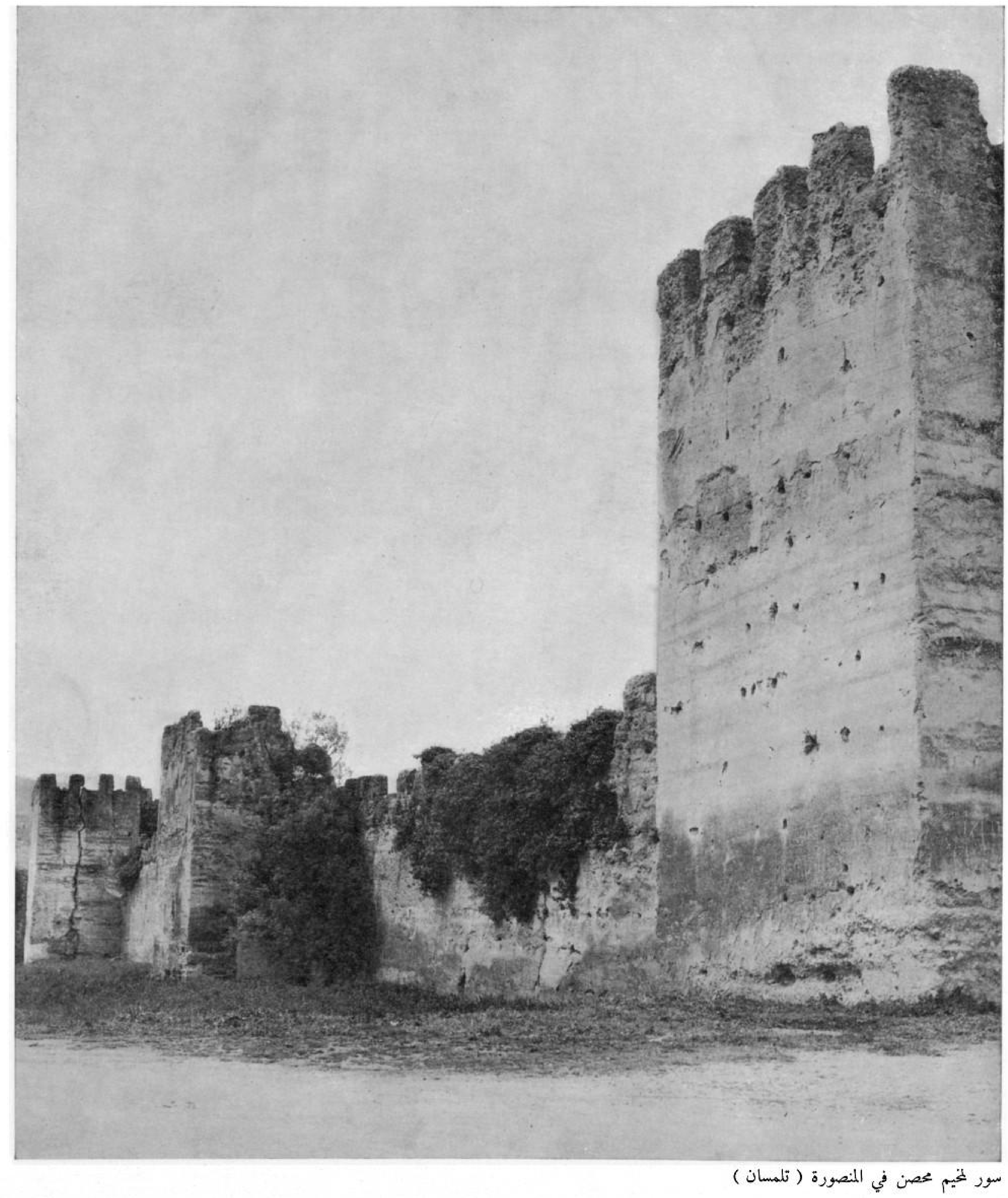
كانت هذه القلعة مثلثة الشكل تزينها عدة أبواب محصنة ، وتشتمل على قصور عظيمة رشيقة



↑ صومعة مسجد المنصورة الضخم



في هذا الرسم القديم لتلمسان
يساهم الفكر بقسط كبير
إلا أن الأبراج المربعة ، الكثيرة
تكشف عن تحصينات عهد مقر المرينيين ←



سور لمخيم محصن في المنصورة (تلمسان)

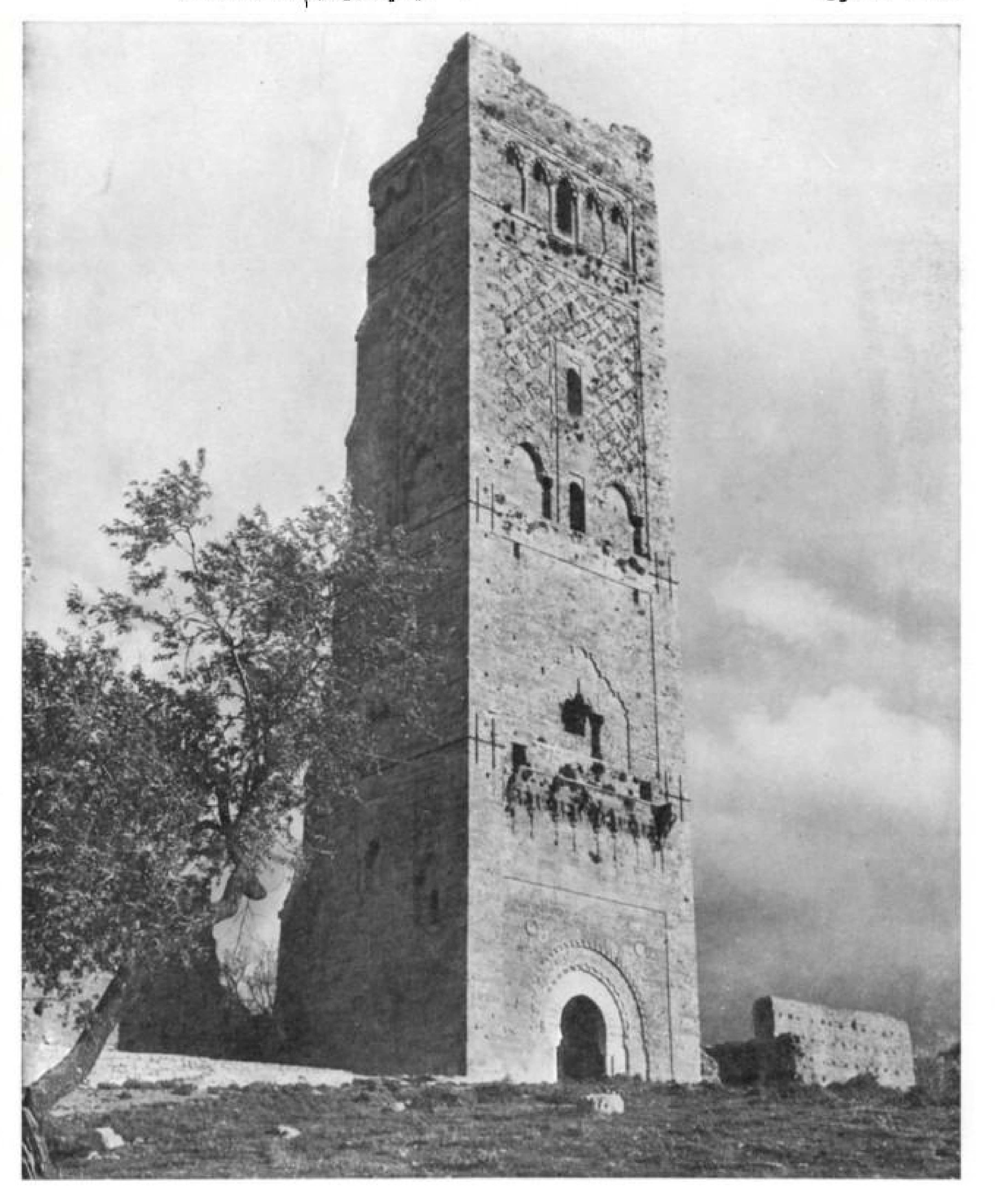


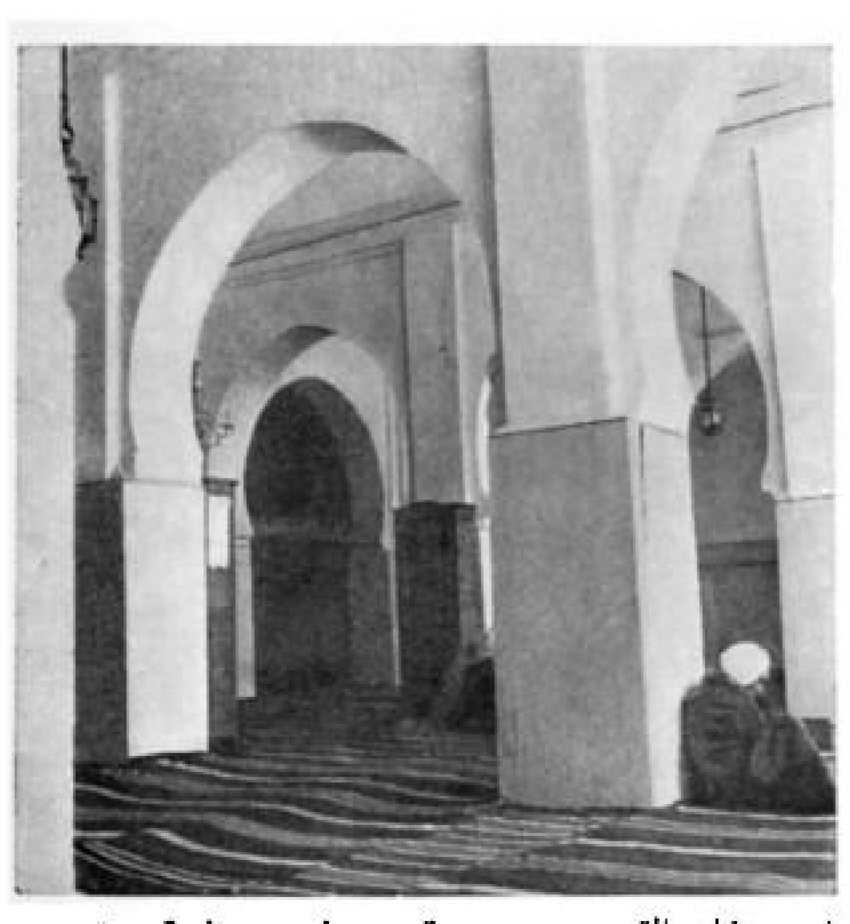
مئذنـة المنصورة





↑ سيدي إبراهيم (تلمسان)

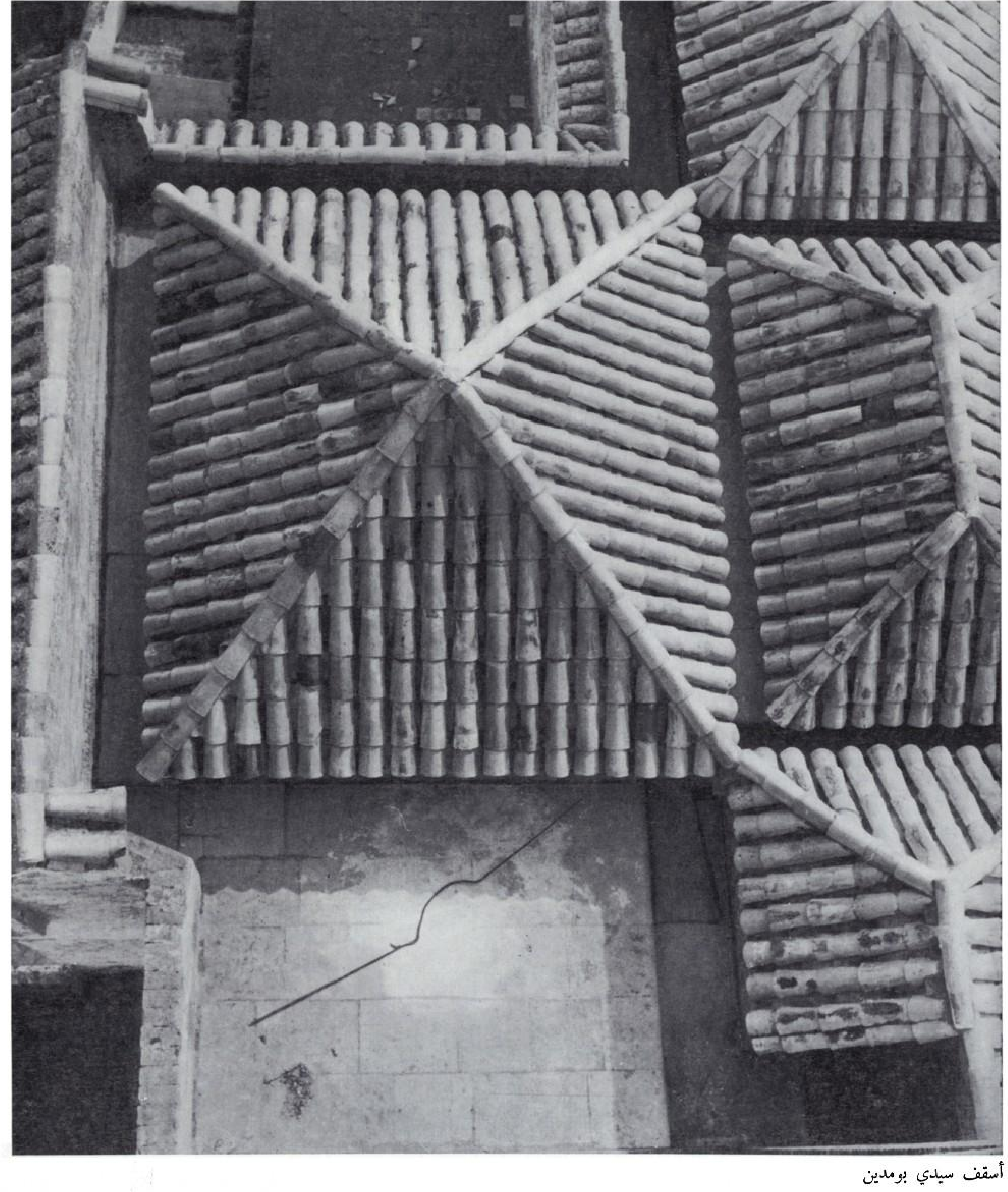




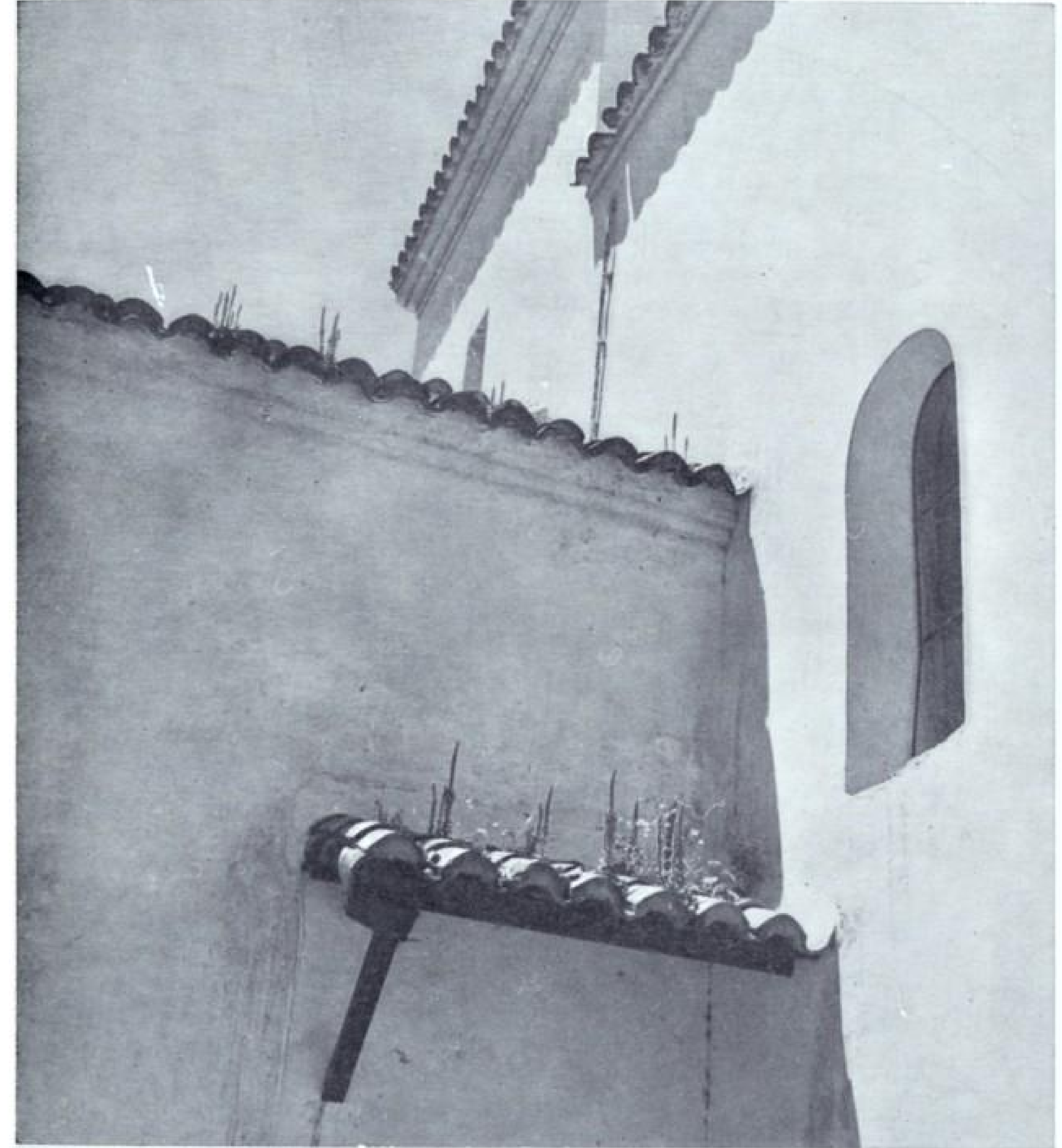
↑ صفاء القوس ، روعة ، وفن دون تزويق سيدي إبراهيم يرجع إلى عهد مجيد تجاهله تاريخ المرينيين

البنيـان من بينهـا « قصر البحر » برسمه المـائي الهائل . غير أنه لم يبق من كل ذلك إلا الأطلال والصومعـة التي لا تـزال قـائمـة ، وقصر المنـار بواجهته التي تشقها خطوط كبيرة على غرار قصور بلاد ما بين النهرين ، وبعض بقايا السور ، التي لم يتنـاولها البحث بأكملها وحيث لا تزال أجمـل الصور باديـة .

إذن ، كانت هذه المدينة المحصنة مهداً للفن والعقـل والتسامح أيضاً ، إذ كان يوجد بها حي مسيحي . وكان من الطبيعي أن يميـل هؤلاء الأمراء ، سكان البلاد الذين تولوا شؤون الحكم



أسقف سيدي بومدين

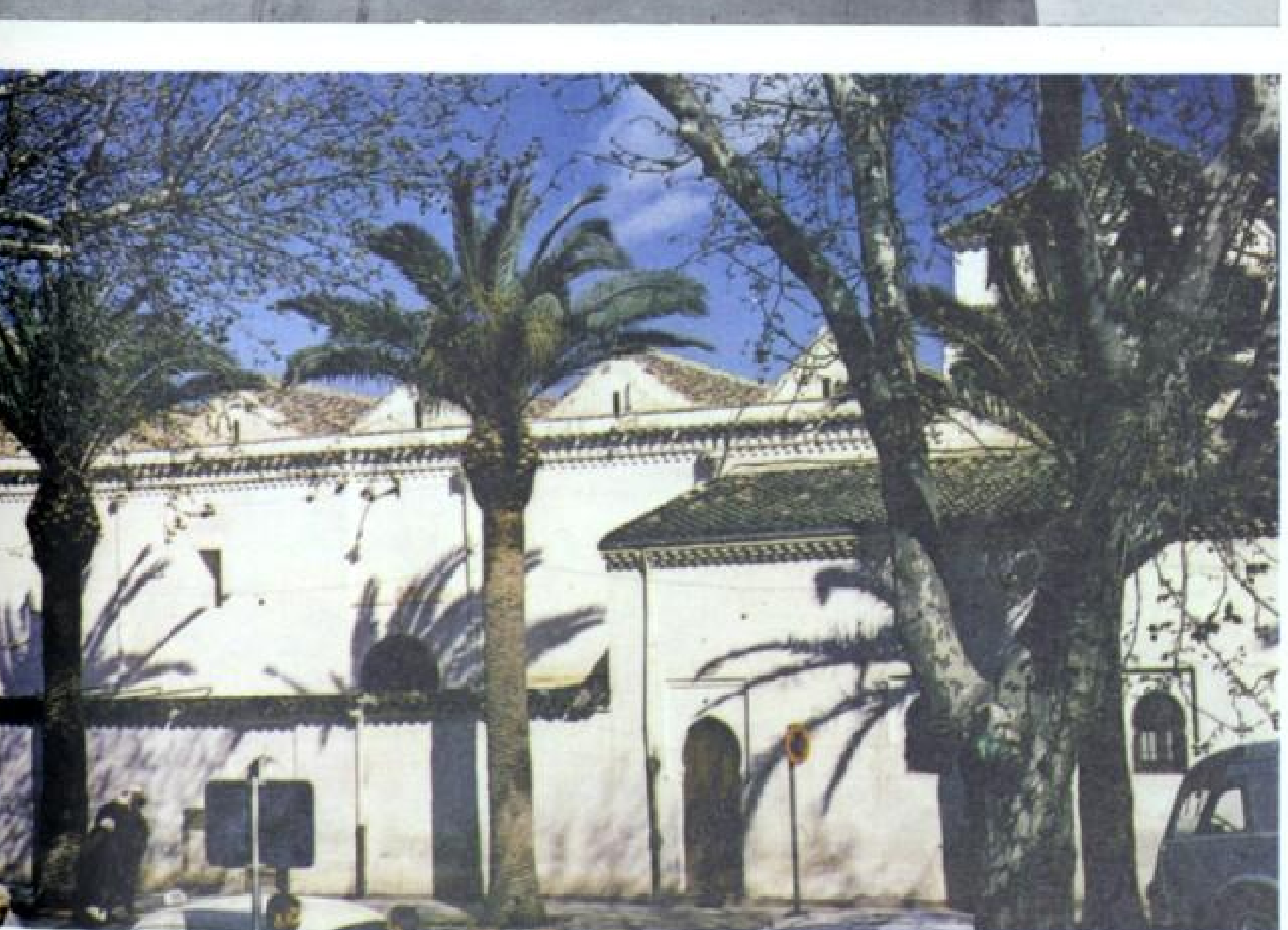


مدرسة سيدي بومدين ، تقوم بمهمتها منذ أجيال
هدوء وبياض وبساطة جديرة ←

في هذه الأرض الفسيحة ، إلى تلك الابهة وتلك العظمة . لقد أقاموا الدليل على أن الافراط و « الاعجاز » في الهندسة المعمارية فى الجزائر لم يكن أبداً وليد جهلهم بالتقنيات أو عدم حذاقتهم . فقلعة بني حماد ، التى هي من إبداع الأمراء سكان البلاد ، كانت فى طليعة التقدم التقني والفني فى القرن الحادى عشر .

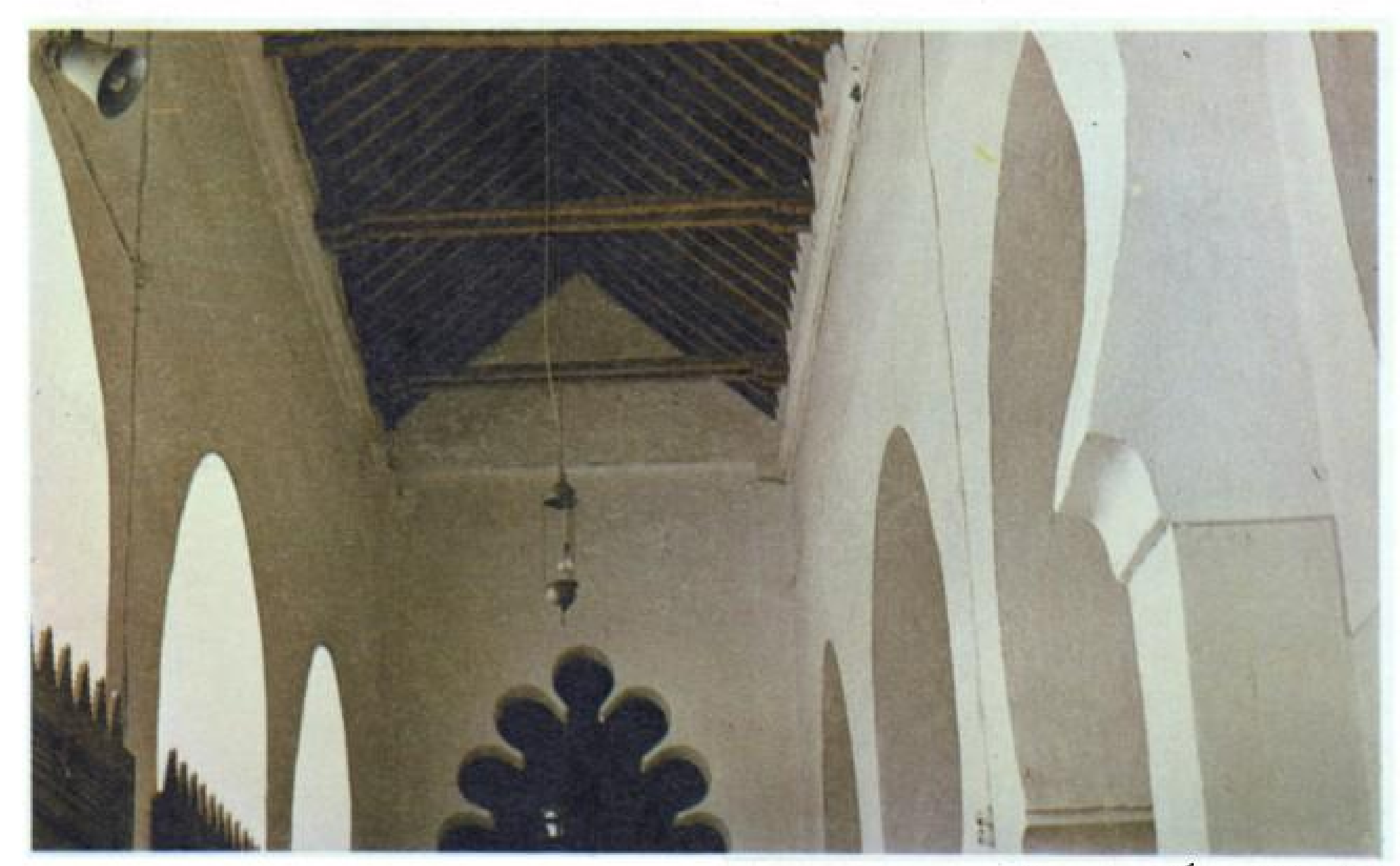
لقد واصلت دولة بني حماد الابداع الذي خلفته في القلعة فى بجاية ، عاصمتها الثانية . وبعد الغزو الاسباني العابر ثم غزو الأتراك لم يبق من بجاية بني حماد إلا الباب الكبير المحصن ، الذي يكاد لم يمسسه شيء ، والسور الذي خرمته يد الدهر ، وبعض القبور . لكن الناس لا يزالون يرددون الأسماء الشاعرية لما حققه بنو حماد في بجاية ، ومن جملة ذلك قصر اللؤلؤة الذي يكون قد بهر الزوار الأجانب من أوربا إن كان هناك زوار .

سبق أن قلنا إن بني رستم لجأوا إلى الصحراء حيث أقاموا باسدراتن بالقرب من ورقلة . وبوصفهم أصحاب صنعة يمتازون بالنشاط والثقافة فانهم قد جعلوا من مدينتهم مفترق أفكار في نفس الوقت الذي عملوا فيه على ازدهارها المادي بفضل حقولهم التى كانت تشتمل على 400.000 نخلة وموقعهم في مركز المبادلات في آن واحد .



واجهة الجامع الكبير

لقد كانت تسمى إسدراتن بالمدينة « المجيدة » ، ذلك أن بني رستم ، مثلهم كمثل بني حماد ، لم يكونوا يجهلون دقائق الفن الاسلامي في عهدهم . ولئن كان التقشف الخوارجي هو القاعدة الصارمة بالنسبة إليهم فان رخاءهم كان يحدو بهم إلى الأساليب الشعرية . وقد تم اكتشاف منازل واسعة وجميلة تحتوي على فناء محاط بالأروقة فيما تبقى من آثار إسدراتن ، التي أصبحت شبه مغطاة بالرمال . وهي بمثابة قاعات كبرى تقوم في أقصاها أنواع من المقصورات المعزولة عن باقي الغرفة بقوس من الأعمدة البارزة . والتقنية المستعملة فى هذا البنيان (أي العارضات المنشورة من خشب النخيل بصورة تمكنها من تحمل أقصى ما يمكن من الثقل) تخول هذه القاعات عرضاً محدوداً وطولا غير محدود . وقد كان نمط الحياة يتلاءم كل التلاؤم مع هذا الترتيب . فالغرف الكبيرة المستطيلة ، التى نجدها فى الهندسة المعمارية « الأهلية » بالجزائر (كالقصبة مثلا) قد أقيمت بكل صواب على هذا الشكل بحيث تكون سهلة التقسيم إلى عدة « أجواء » . إن ملاط إسدراتن ، الذي كان من شأن التقشف الديني ألا يسمح به يتميز بطابعه الخاص وبالاعتدال والتنوع فى آن واحد بالرغم من أن الاعتدال الذي روعي في



داخل الجامع الكبير ، رواق

صنعه يخالف هدف التواضع المنشود . وتلك الزخرفة التي يرجع عهدها إلى القرون الغابرة لا تزال زخرفة « حديثة » و « فناً دائماً » خلفه أولئك الذين لم يعرفوا « الموضة » ولكنهم لا يبلون أبداً .

لقد استولى المرابطون ، الذين ربما كانوا يشبهون في الهيأة إلى حد بعيد من نسميهم اليوم بالطوارق ، على المغرب الأقصى حيث تمركزوا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر ، فخلفوا به الحصون والمساجد ، وعلى الجزائر

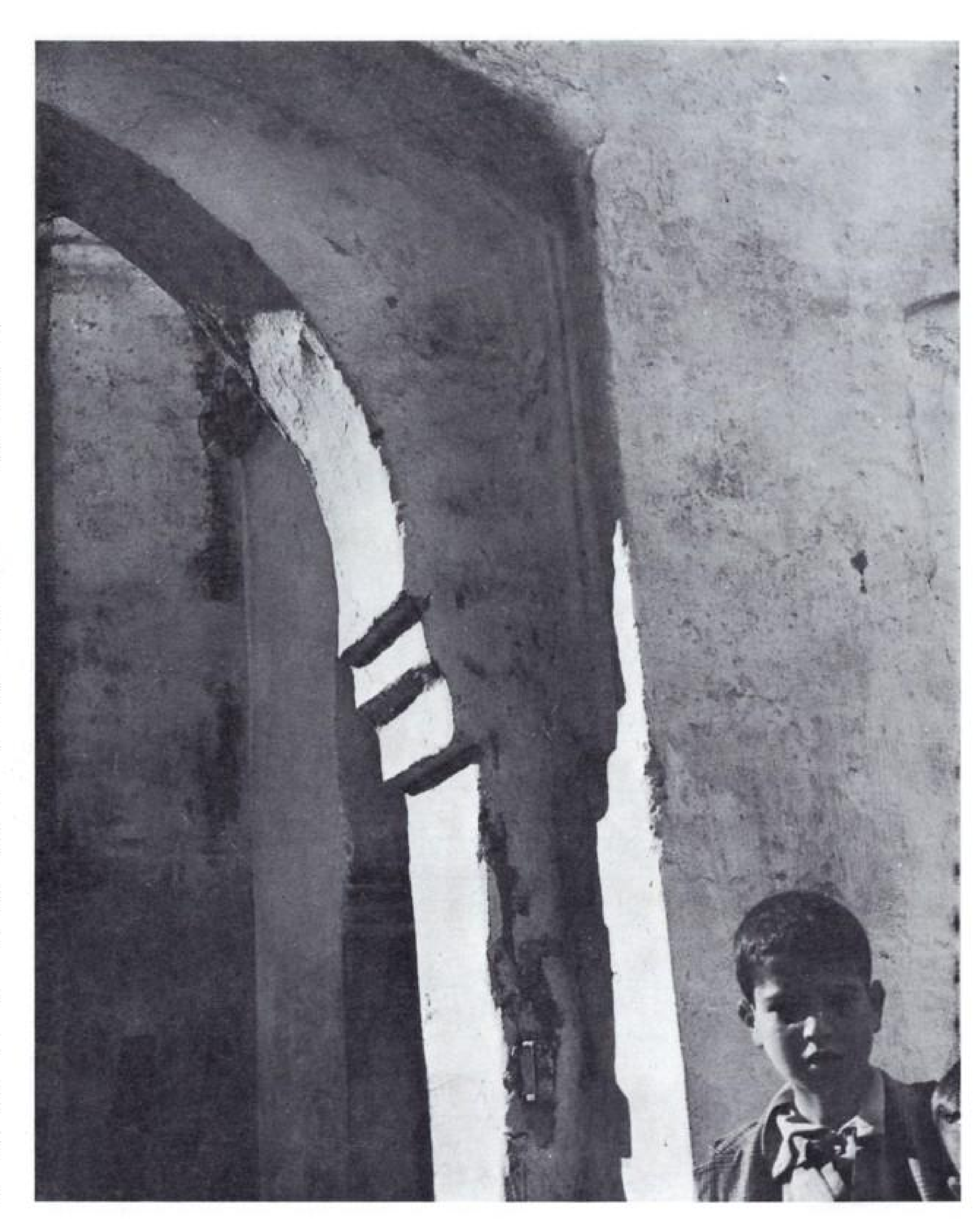
سطوح سيدي الحلوي



سطوح ندرومة

حيث خلفوا أروع مساجد ذلك العهد التي اشتهرت إلى درجة أنه أصبح من الصعب أن نضيف شيئاً إلى كل ما كتب وقيل عنها ، ولا سيما الجامع الكبير بالعاصمة ومسجد ندرومة وخاصة مسجد تلمسان . فصور هذه المساجد أفصح بكثير من وصف ما تمتاز به من ثراء الهندسة المعمارية . وفي تلمسان أيضاً نجد المسجد الذي بناه الموحدون في القرن الثالث عشر ، وهو مسجد سيدي بلحسان الذي أصبح متحفاً للآثار القديمة .

وفي القرن الرابع عشر استولى ملوك بني مرين القادمين من فاس على مدينة تلمسان المنهوكة القوى بعد أن حاصروها مدة ثماني سنوات من قلعتهم المحصنة بمحلة المنصورة الواقعة على أبواب المدينة . وقد حاول بنو مرين أن يساهموا في مجد الهندسة المعمارية عوض أن يأمروا بهدم المدينة . وهكذا عاد الفن الأندلسي إلى أصله بعد أن ازدهر خارج الحدود الاسبانية . فتولى بنو مرين تشييد مسجد حول ضريح سيدي بومدين

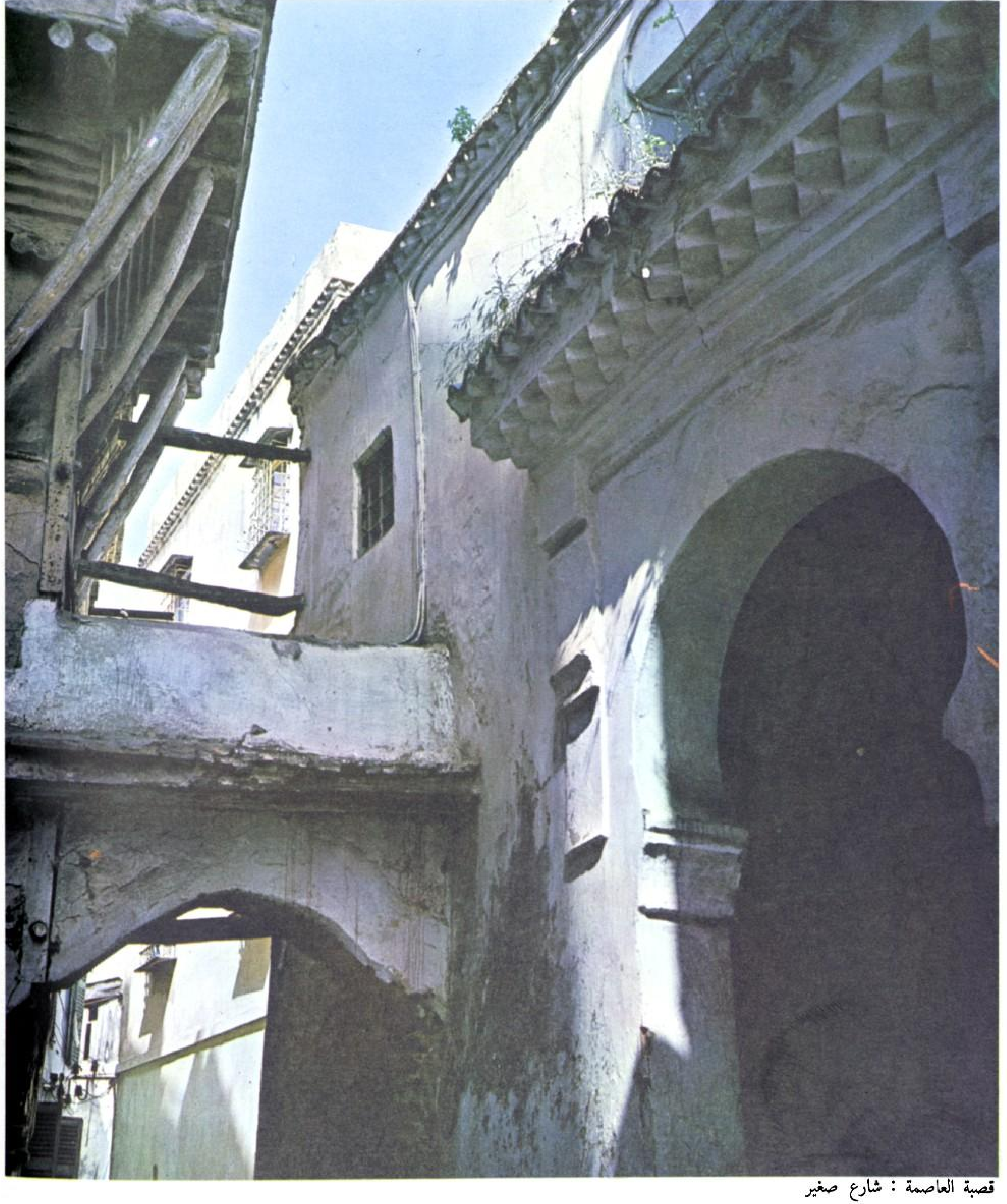


منظر يكشف عن ابداع الانسان القديم ويشكل وجه الطفل الجديد الذي تنقل إليه الهندسة المعمارية الثقافة الحية التي لم يستطع أي شيء أن يأتي عليها

وكل ما يتبعه من مرافق ، ثم تشييد مدرسة أصبحت تشكل مع المسجد المذكور تحف المدينة بل تحف هذه القرية الصغيرة التي تقع بجنبها حيث يوجد الضريح . كما ترك لنا بنو مرين صومعة سيدي العلوي ومئذنة المسجد المرابطي الكبير . إنها شعلة باهرة حقاً ولكنها شعلة . ويستخلص من كل ذلك علامة تدل على الارادة الخالصة التي تحمل الطابع الوطني . فمسجد سيدي إبراهيم الذي بني سنة (1361 م) والذي هو أحدث المساجد الشهيرة في ذلك العهد بتلمسان قد احتفظ بالنسب الهندسية المرينية ولكنه تجرد من ترفها ، من الترف الخارق ، لتحل محله الصرامة الساحرة الخلابة .

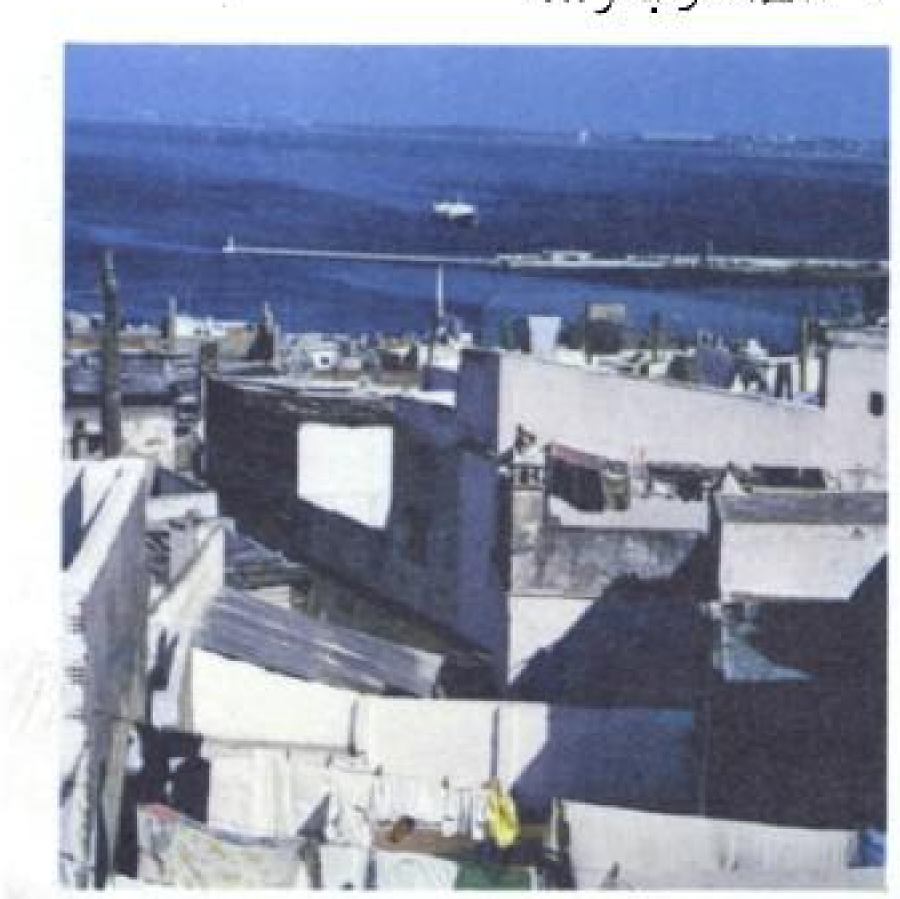


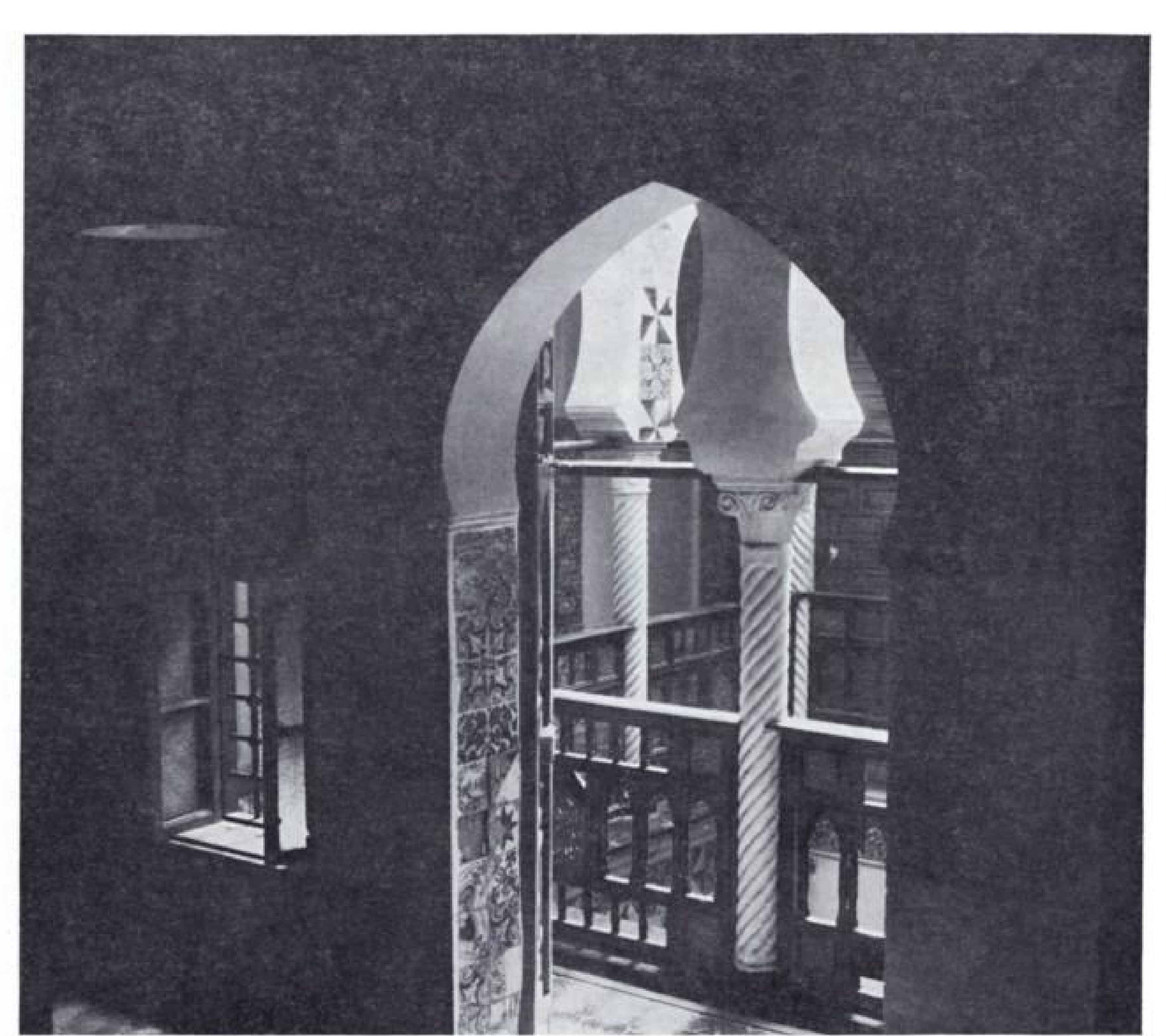
رسوم قديمة للجزائر في عهد الأتراك



قصبة العاصمة : شارع صغير

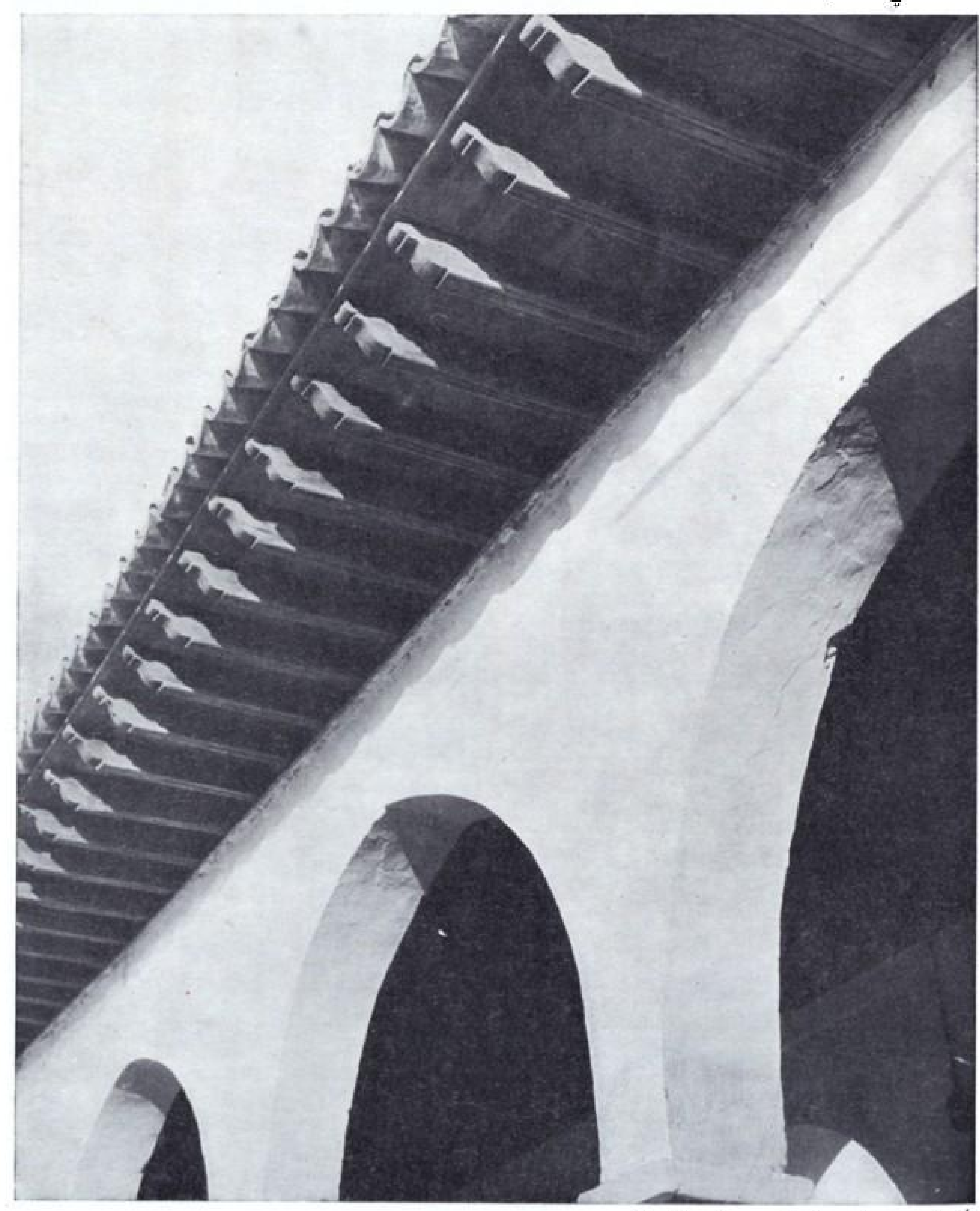
« مثل درج ضخم ، ينحدر نحو البحر حيث نرى الفضاء والبحر... » ↓





ساحة في القصبة

إن المظهر الدائم لمساجد ذلك العصر يتجلى بكل بساطة في هيكلها . فهي تتكون ، كما تبين ذلك صورنا ، من عارضات متوازية مقرمدة ، وفناء وصومعة . وهناك بعض المساجد التي قد تكون أقدم من هذه مثل مسجد تنس ، مغطاة بسطوح ولكنها حافظت مع ذلك على العارضات . وهذه العارضات تختلف ارتفاعاً وطولا (لتمكن من اختلاف سعة المساجد) ولكنها لا تختلف عرضاً ، وتتجاوب مع قطع الهيكل ، وهذا هو المبدأ الذي تعتمده الغرف الطويلة في المنازل . فقطع الهيكل الخشبي تقترب من بعضها بثلاثين إلى خمسين سنتيمتراً ، فتكون السقف وتحمل القرميد . وهي تعتمد بأقصى أطرافها على الجدران . وإذا أريد بناء قاعة كبرى فان هذه القطع الخشبية تحوف على شكل أقواس أو أروقة ، وهذا في حالة بناء سطوح . أما إذا كان الأمر يتعلق بالقرميد ، كما هو الشأن في مساجد المرابطين وبني مرين فان ترتيب القطع الخشبية التي تحمله لا يكون أفقياً ولكن زاوياً ، ونعني بذلك الزاوية التي يكونها منحدر القرميد . ومهما يكن من أمر فان هذه الزاوية تعتمد هي الأخرى على جدران على شكل أروقة كما هو الشأن بالنسبة إلى السطوح . وتتكون هذه الزاوية من ضلعي المثلث النظري الذي تتكون



أقواس ومشرعة بقصر داي الجزائر

الأروقة العليا لقصر الداي في الجزائر
في القصبة العليا ، تشرف على المدينـة وعلى البرج
التركي ومنار « البحريـة »



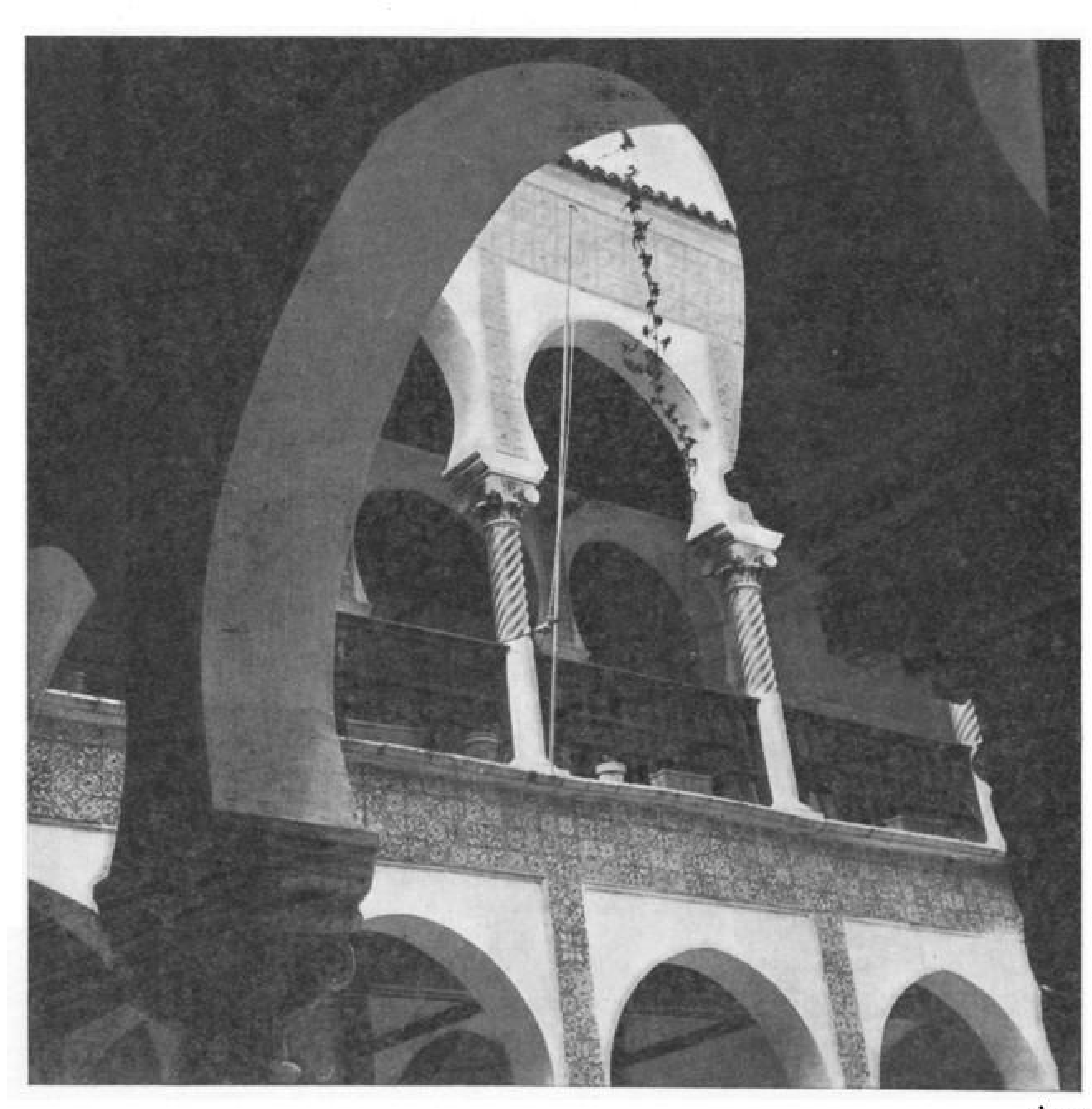
قاعدته من المساحـة الموجودة بين رواق وآخر ، وهو مثلث يكاد يكون متساوي الأضلاع . وهكذا نرى أن استعمال الهيكـل الخشبي تحت السطوح ونظام السقوف مع وجود الزوايا المذكورة ، يعطيان نفس المتسع بين الأروقة لأن الهندسة كانت تعتمد لترك هـذا المتسع ، على مقـدار طـاقـة القطعـة الواحـدة من الخشب بالقيـاس إلى الثقـل الـذي تحمله . (انظر الرسم) .

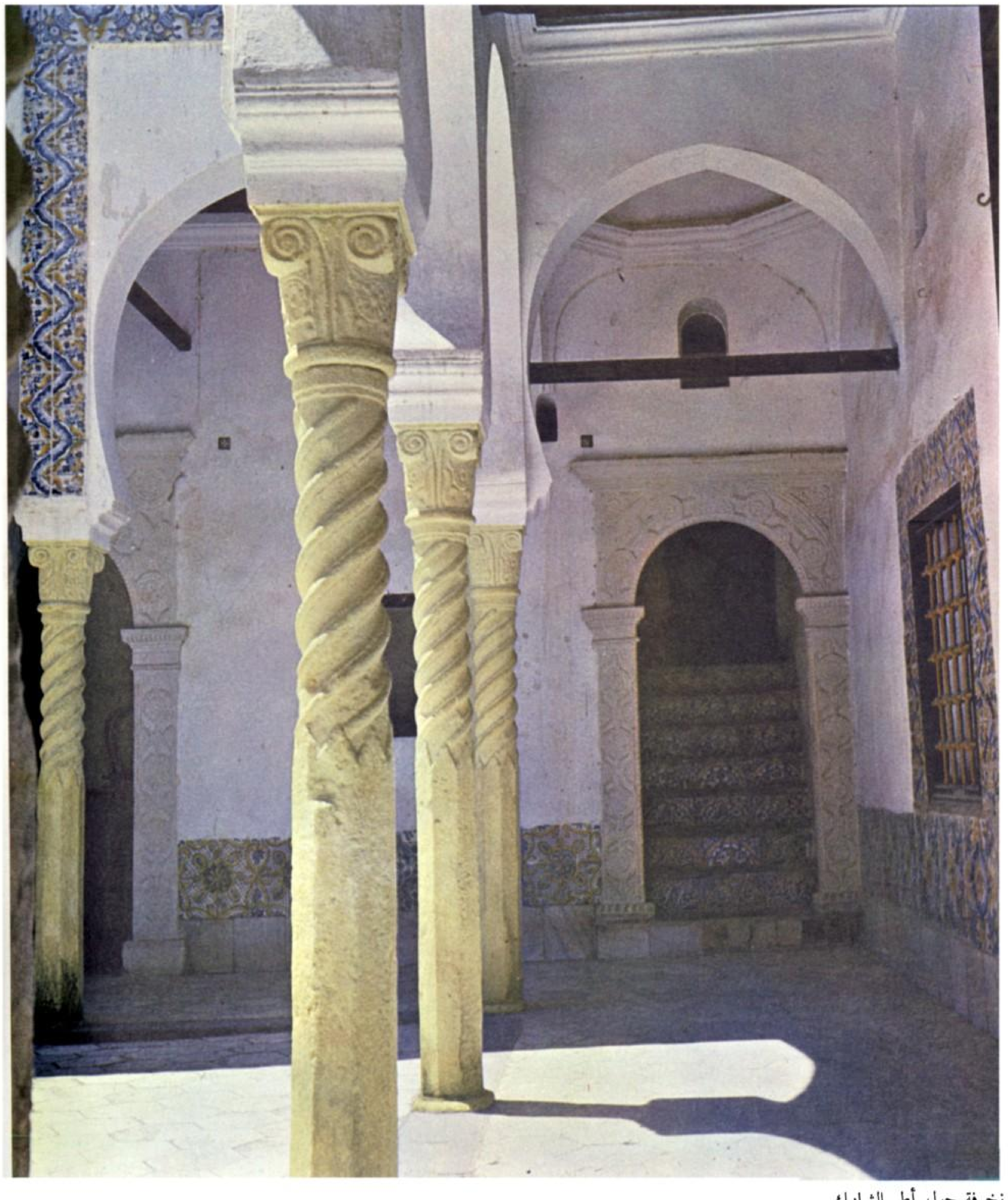
وبفضل الجهود ، التـي لم تات عرضـاً من دون شك ، لأن الحالة الثقـافيـة في ذلك العهد كانت تسمح بالبحث عن الهياكل التي تمكن من عبور أكبر فضاء ممكن ، جاء هـذا المتسع على صورة مرضية ، كافياً لسجود المصلي .

وفـي هـذا المضمـار يمكن الاحـتـفـاظ بمجموعتين من تصاميم المساجد في الجـزائر في هـذا العصر : التصاميم القـديمة التي تنسب إلى الشرق ، والتي تكون فيها العارضات موازية لجدار القبـلة حيث يوجد المحراب ، مثـل مساجد تنس وسيدي عقبـة ومسجد المـدينـة المنـورة . ونجد هـذا الترتيب أيضـاً في سوريـا ومصر والعربيـة السعـوديـة .

والتصاميم التي تكون بها العارضات مصطفة فى اتجاه القبلة . وهذه المجموعة الأخيرة هي من النـوع الأندلسي مثـل المسجد الكبير بقرطبـة . والجزائر تملك أكثر الأمثلـة لذلك فى تلمسان . وبمـا أن مسجد القيروان الكبير قد بني على هذا المنوال فلا ينبغي أن نحدد تاريخ المساجد بصورة مشددة بحسب ترتيب عارضاتها .

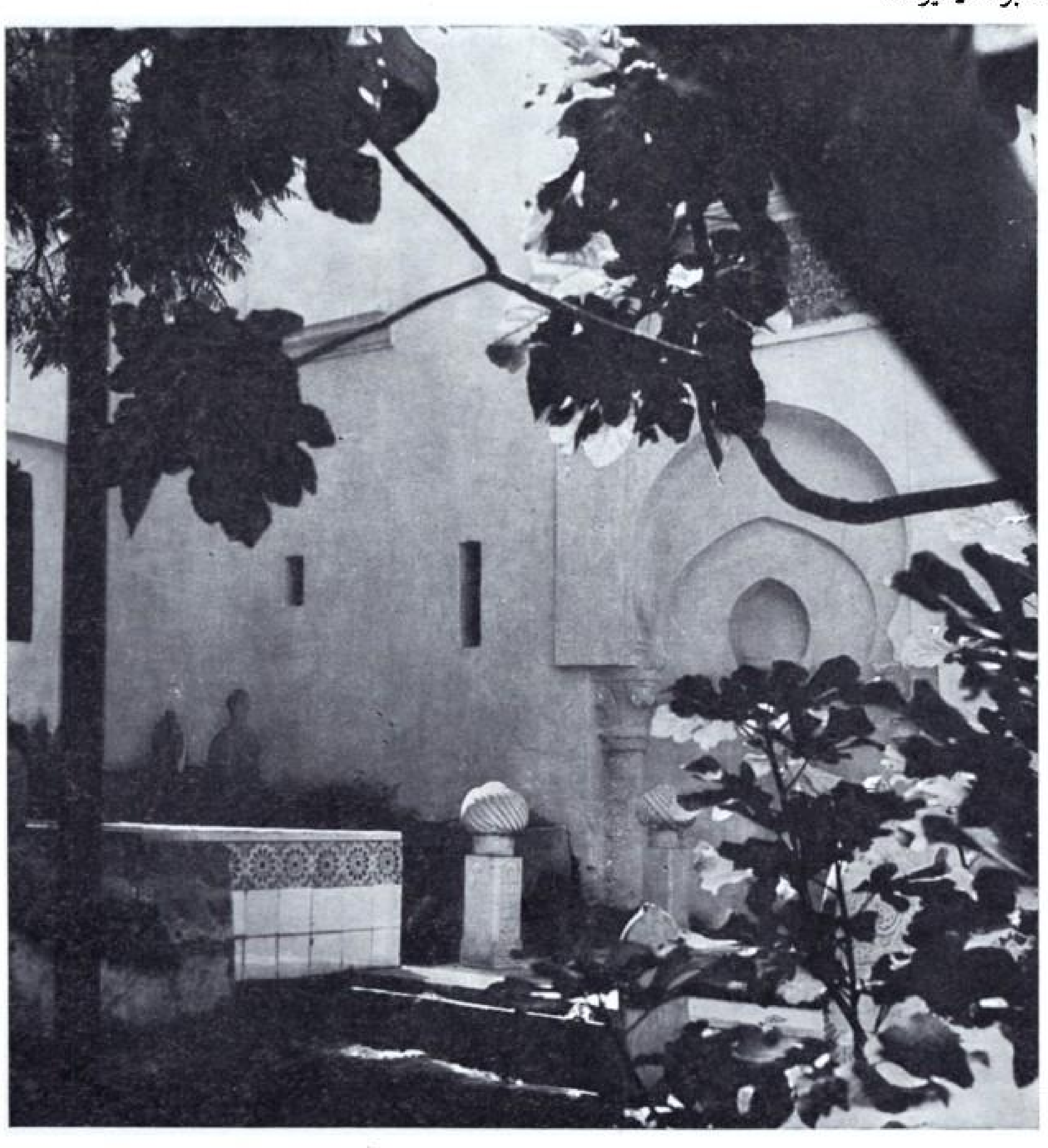
إن الصومعـات المزينـة بـالخزف الملون ، والزخرفـة التى تبرز الخطوط الرئيسيـة للبنـاء أو إطارات الأبواب ، والنوافـذ والمحراب والمـلاط المصقول وخشب الأرز المنقوش ، كـل ذلك قـد وصفه العلماء والرحال كثيراً وفي كـل العصور . فهذه المساجد قد اشتهرت منذ تأسيسها .


حوش

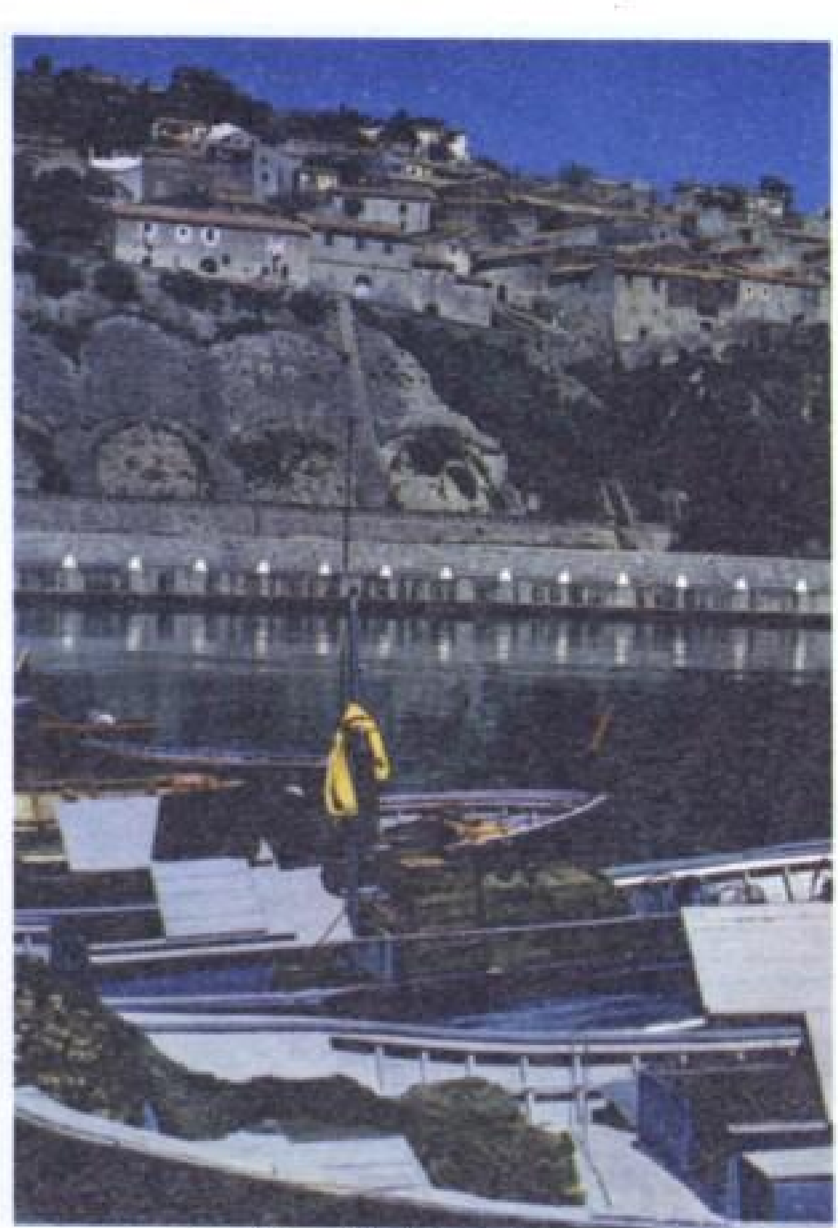


زخرفة حول أطر الشبابيك

مقبرة الأميرات



على أن الأسلوب التركي قد ظهر بشدة منذ القرن الخامس عشر في الهندسة المعمارية للمساجد والقصور والبناءات العمومية في الجزائر . وهذا الأسلوب بالنسبة إلى المساجد مستمد مباشرة من الأشكال البزنطية بالقسطنطينية وفي بعض الأحيان (من العقود البزنطية) . والمساجد من هذا النوع تمتاز بقبة ضخمة فوق صحن واحد يشمل مساحة داخلية واسعة دون أعمدة تضايق النظر . ومما لا شك فيه أن هذا الترتيب أقل جمالا من غيره ولعله أقل تلاؤما ، ولكنه أكثر عظمة . غير أن الزخرفة قد صارت متزنة إن لم تكن منعدمة كما تؤكد ذلك الرغبة الكامنة في الصرامة التى سبق أن قلنا أنها ميزة البلاد نفسها . والجامع الكبير



قصبة صغيرة من للعهد التركي في دلليس

بالعاصمة مثال حي لذلك . وعليه فان جميع المساجد التى تمتاز بهذه القباب الضخمة ذات الصحن الوحيد ، التى نجدها فى الجزائر قد تأثرت بالأسلوب العثماني ، وإن كانت لم تبن في العهد التركي .

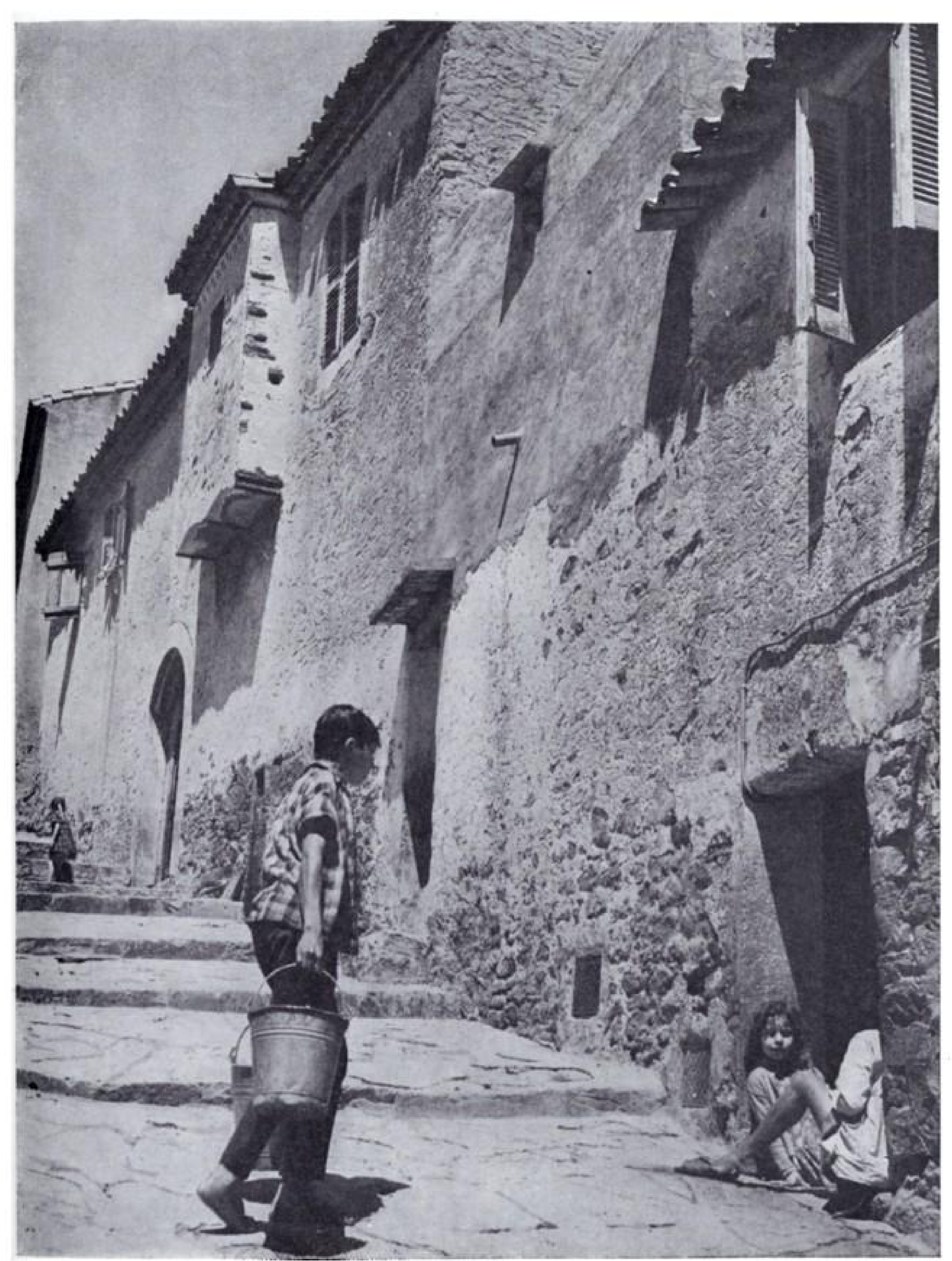
إن المنازل الملكيـة التي خلفتها لنـا العصور مـا انفكت تثير الاعجـاب بشخصيتهـا الوطنيـة القويـة . وبهذا الصدد تقدم لنـا ثـلاث مدن ، على مستويات مختلفـة ، أمثـلة هامـة : القصبـة بالعـاصمة و « المدينـة القـديمة » بدلس ومدينـة قسنطينة .

فبيوت القصبـة بالجـزائـر يرجع تاريخهـا بالفعل إلى العهد التركي . ومع ذلك فانها لا تشبه

البيت التركي إلا قليلا . فطلاؤها الخارجي يشبه النوع القبائلي أكثر من غيره ، وتلك الأفنية التي يمكن أن نقول أنها موروثة عن الرومان[1] تشبه هي الأخرى الأفنية القبائلية في المدن ، كما أن « المشربية »[2] التركية المكونة من الأخشاب ، مبنية بالحجارة ، وليس بها من الخشب إلا الأعمدة المستديرة التي تستند إليها . ونهج القصبة « الذي ليس إلا مكاناً عمومياً للمرور والشراء » (لوكوربيزي) لا يختفي عن تلك الواجهات التي تكونه والتي تكاد تكون عارية تماماً . فالجدران « العمياء »[3] (أو التي تبدو عمياء) تقابل جدراناً « عمياء » أخرى شبيهة بها . أما الضوء فيتسلل إلى الغرف من الفناء ، من وسط الدار . على انه في إمكان المرء أن يلاحظ إذا صعد إلى الطابق وجود منافذ ضيقة أو نوافذ صغيرة ، تم تصميمها بصورة محكمة لارضاء الفضول المستتر ، أو على شكل منحرف تماماً في بعض الأحيان للتمكين من رؤية النهج بأكمله وقسم من السماء وشطر من البحر أحياناً .

أما منظر ميناء الجزائر ، أما الفضاء ، فانهما يمتدان أمام تلك السطوح المدرجة التي لا يضايق بعضها البعض ، والتي نراها « وكأنها درج هائل يهبط نحو البحر » .

وفي إمكان جميع الأسر التي تسكن داراً واحدة من هذه الديار أن ترتقي إلى تلك السطوح،


شارع صغير في دلليس

---

(1) كانت هذه الأفنية ، في الواقع ، مستعملة في الشرق في عهد أقدم الحضارات التي يرجع تاريخها إلى 3.000 سنة قبل الميلاد .

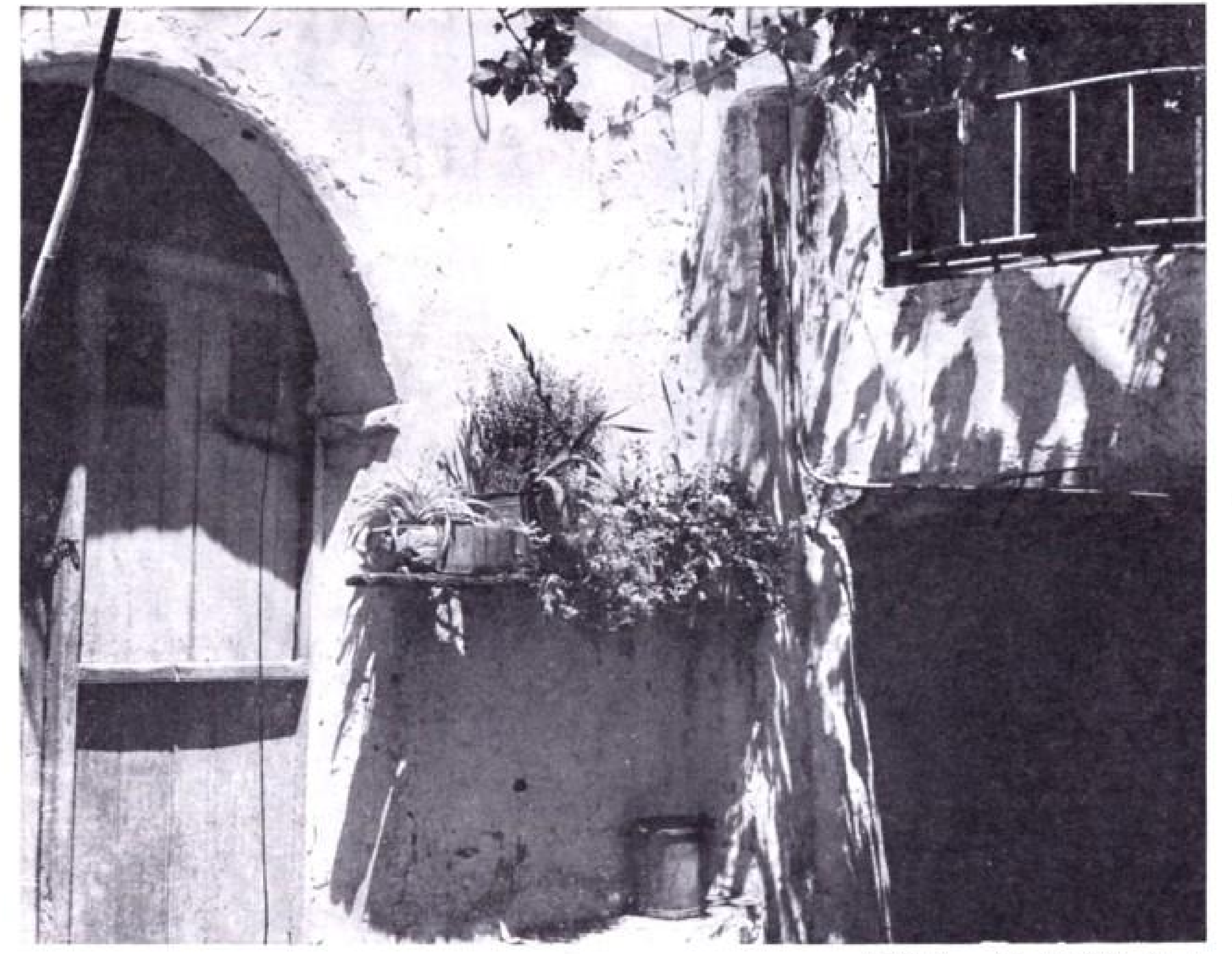
(2) « المشربية » شباك من الخشب يشد إلى النوافذ حتى يتمكن صاحب الدار من الرؤية دون أن يرى .

(3) بدون نوافذ .

دلليس

حيث تجفف النساء الملابس ، وحيث يقضين المساء بمجرد ما يخفت النور الساطع وتنخفض درجة الحرارة ، يتسامرن ويرعين أبناءهن ويصغين إلى أقاويل المدينة . وهكذا تنقسم المدينة إلى ثلاثة أقسام متمايزة : النهج ، أي الممر المحفوظ الذي تتوفر فيه الظلال ، والدار حيث تقيم الأسرة محفوظة من الأنظار التي تنغص حياة الكثير من المدن الأوربية القديمة ، وذلك بفضل نظام الفناء الذي يعتبر مصدراً داخلياً للنور والتهوئة ، ثم السطوح ، التي هي مكان الالقاء مع الشمس والمناظر الخارجية والفضاء .

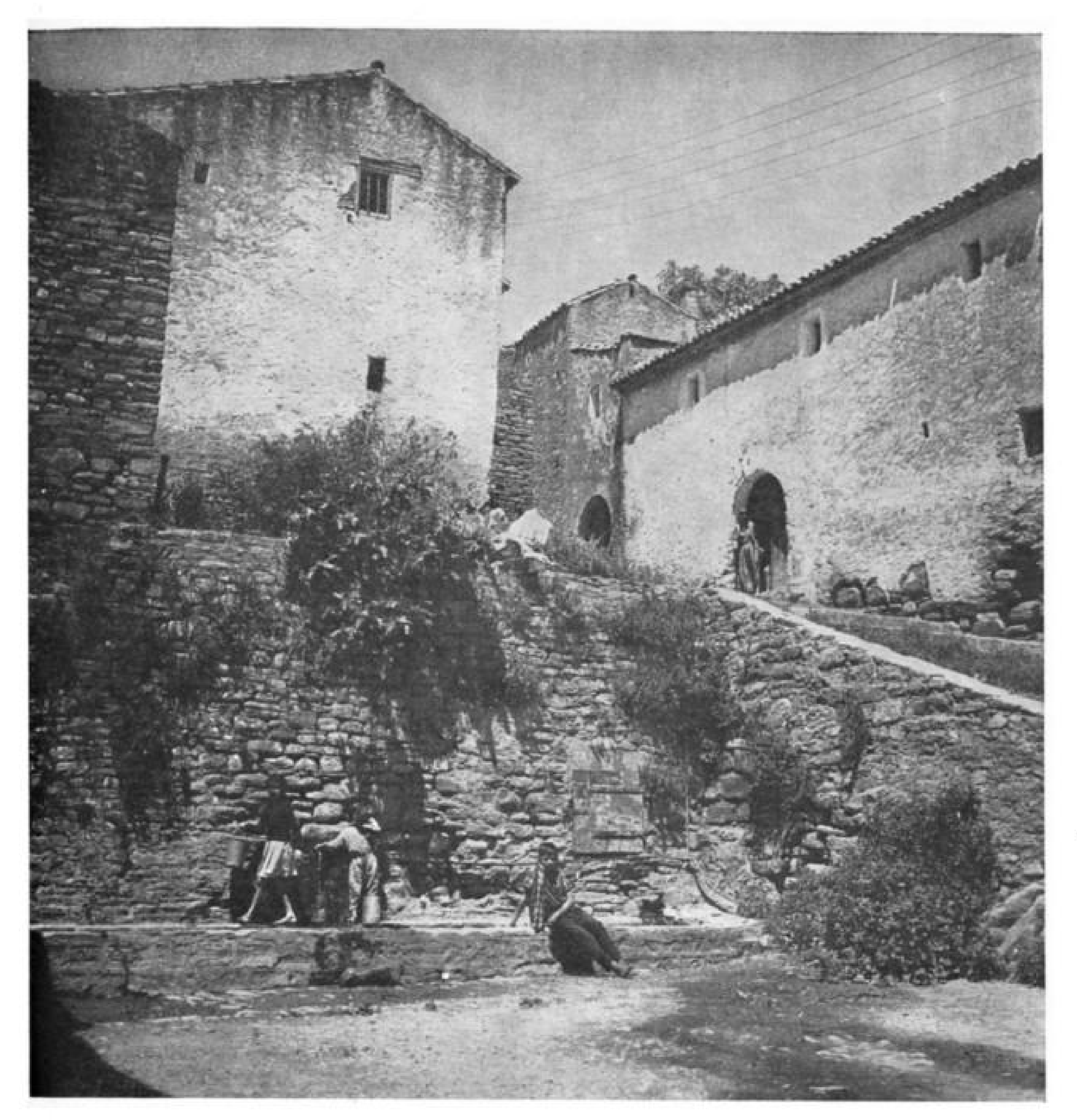
وفي داخل هذه المنازل يشعر الانسان باعتدال الجو ، الذي لم تكن هذه الجدران المتقشفة لتوحي به . « الباب الكثيف مفتوح ، يؤدي إلى الدار العربية حيث تحدث المعجزة ، حيث ينعدم النهج ويخيم السكوت وتنفتح الغرف على تلك الأقواس الرشيقة . إن هؤلاء الناس ، هؤلاء المحاربين الأشداء ، كانوا يحبون الراحة ،



باحات تذكرنا بالجزر اليونانية



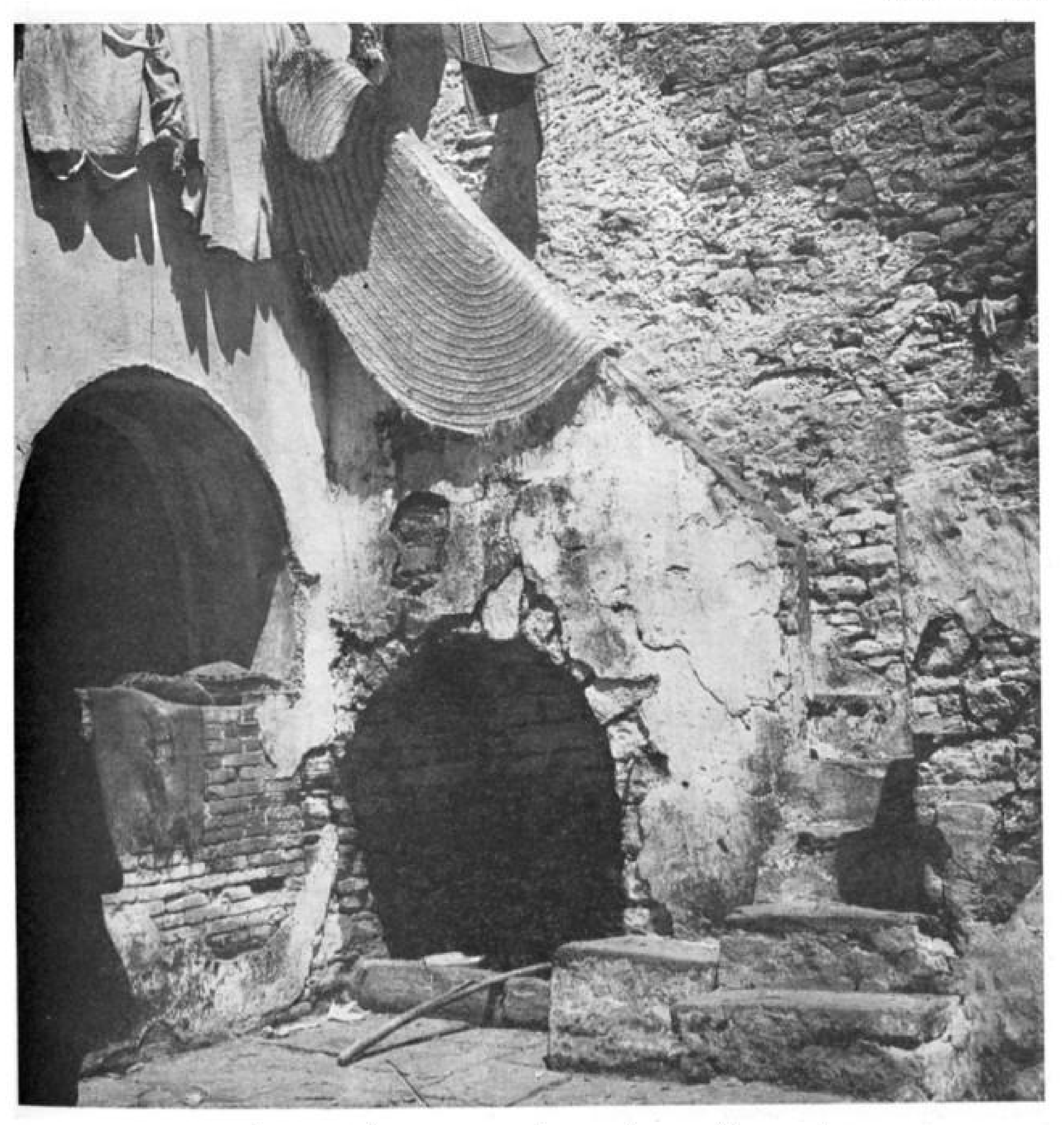
مشربية



واجهات دلليس

وكانوا يريدون أن يتذوقوا طعم الحياة » (لوكوربيزيي) . ففي هذه الديار العربية تجد الأعمدة المصنوعة من الملاط أو الرخام تحمل من طابق إلى طابق الأروقة المتعاقبة التي تحيط بالحوش ، والتي تحفظها الأخشاب الرقيقة . كما يكثر بها استعمال القاشاني لتغطية الجدار مقدار ارتفاع اليد ، وتغطية الأرض أيضاً ، لجعل الساكن يتذوق نعمة الراحة وهو يمشي حافياً ويعتبر استعمال القاشاني من التقاليد الاسلامية العتيقة التي كانت منتشرة قبل النفوذ العثماني . فقد سبق أن قلنا إن القاعات الكبيرة المستطيلة التي ينفذ إليها من خلال تلك الأروقة المحيطة بالحوش كانت موجودة في الجزائر منذ عهد إسدراتن في القرن العاشر .

وفي مدينة دلس الجميلة تعتبر « نواة » المدينة الحديثة ، التى تشرف على الميناء وترتكز على جدار ضخم ، قصبة تركية صغيرة . فهي مبنية بالحجارة المصقولة بنياناً جميلا بغير ملاط (وترى بها خطوط الآجر تتناوب أحياناً مع خطوط الحجر على غرار النمط البزنطي) ويلاحظ الانتساب هنا إلى الهندسة المعمارية التركية أكثر منه في جهة أخرى ونجد فى الأفنية (التى ليست أحواشاً بأتم معني الكلمة) شرفات من الخشب تمتد على طول الواجهات ، حيث يصعد المرء إلى الطابق الأعلى بواسطة درج يمر غالباً بهذه الشرفات . وهذا الدرج الحجري ذاته يستند إلى حنيات مطوقة . ومن الملاحظ أن هذه الهندسة المعمارية نفسها موجودة في بلدة « إبير » باليونان ، تلك البلدة التى كانت تركية منذ ستين سنة خلت . أما مدخل البيت فانه مقوس ومكوع حتى يتمكن صاحب البيت من النفوذ إلى بيته دون أن تلاحقه الأنظار . وفي الطابق الأعلى توجد أحياناً « غرفة سقيفة » منفتحة على حوش الدار وتزينها أقواس واسعة من الحجر المصقول ترتكز على دعائم



كما هي الحال في تركيا و (أيانينا) الدرج الحجرية تعتمد على قوس مطعم

مربعة في منتهى البساطة ، تربطها حيطان صغيرة في مستوى الدرابزين .

إن الحجارة العارية المصقولة أو المرتبة فوق بعضها بكثير من الدقة والضبط تضفي على جدران تلك « النواة » الشبيهة بالبنيان الريفي وحدة رائعة ومتانة لم تنل منها يد الدهر . فلون الحجارة الرمادي الواضح معرض إلى النور طوال ساعات النهار ، بل حتى لو كانت الشمس في سمت السماء ، بحيث يجد المرء في هذه الهندسة كل الخاصيات الريفية القبائلية مرتبطة بالطابع المعماري للمدن التركية في ذلك العصر . وتتميز أحواش الديار بمجموعة من السقائف الصغيرة ، والتنانير والآبار والحيطان الصغيرة ، التي تحيط بكرمة أو شجرة برتقال ، وتتكون دائماً من الحجر المبيض أحياناً بالكلس فتعطي منظراً منسجماً في منتهى الجمال .

إن السقوف مغطاة بالقرميد « الروماني » ، الذي يعتمد على هياكل خشبية ، كما هو الشأن في جميع بلاد القبائل . وهنا تفقد السطوح كل فائدتها المتمثلة في اتصال المرأة بالمنظر الخارجي والفضاء ، لأن الناس في دلس لا يتبعون نفس التقاليد « لحماية » المرأة كبقية الناس في المدن الكبرى مثل الجزائر . فالمرأة القبائلية تخرج بغير حجاب وتذهب لزيارة الأقرباء أو لادارة شؤونها وأداء واجباتها دون أن يعترضها أي مشكل . وذلك أن العائلات كلها تتعارف وتجمع بينها الروابط العديدة ، بحيث نجم عن هذا الوضع توازن اجتماعي ونظام طبيعي مقبول من طرف الجميع . وتحيط بهذه المدينة القديمة الصغيرة أجمل المناظر الجزائرية ، ونعني بذلك جبال القبائل التي تشرف مباشرة على البحر بالقرب من ذلك الميناء الذي تشرف عليه المدينة بدورها .

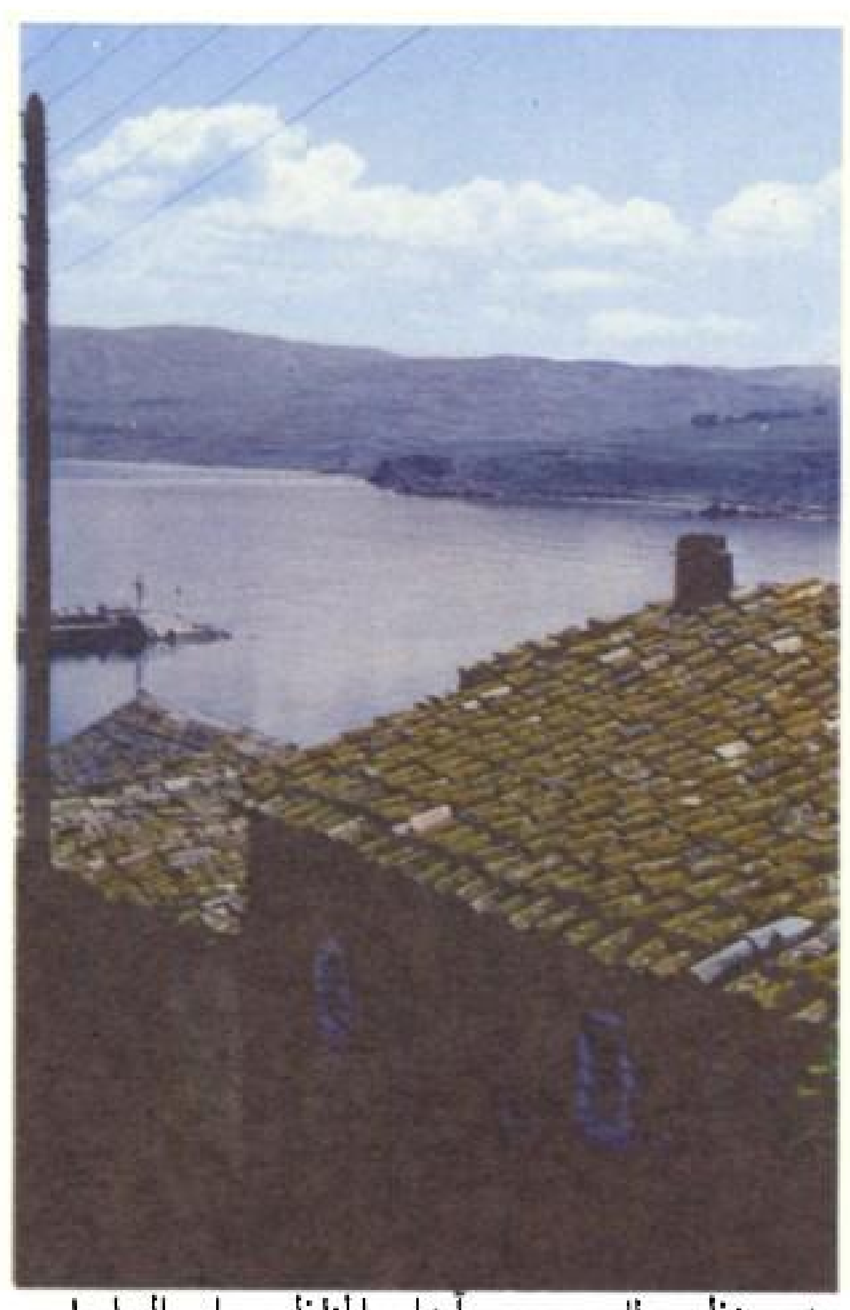
أما حاضرة الشرق الجزائري ، قسنطينة ، فانها تفسر لنا بصورة فورية تاريخها ، الذي



دلليس

يبدو أنه يرجع إلى أقدم العصور ، بل لعله لم تعرف له بداية . فالآثار البونوقية . (ثلاثة قرون قبل الميلاد) عديدة في هذه الناحية (مئات النصب التذكارية وغيرها من الأشياء المتنوعة) . كان الرومان يسمون المدينة « سرتا » حيث مكثوا سبعة قرون كاملة . ثم تعاقبت عليها الممالك العربية التي لم تترك بها آثار الهندسة المعمارية ، شأنها في ذلك شأن الرومان . على أن سبب ذلك بسيط : فانعزال الجبل الذي يحيط به الوادي كان يحول دون توسيع المدينة . وكانت الحضارات المتعاقبة كلما حلت واحدة محل الأخرى هدمت ما شيدته السالفة على الفور أو عوضته مع تعاقب القرون .

ومعلوم أن قسنطينة ظلت مدينة تركية طوال ثلاثة قرون ، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . وهذه الحقبة كافية لمحو آثار البناءات السابقة . ومع ذلك فان المدينة القديمة ، أي تلك التي يمكن لقائل أن يقول أنها تركية ، لها كل مظاهر المدينة القبائلية : أفنية داخلية ، انهج ضيقة وملتوية حتى لا تتعرض للشمس ، سقوف وقرميد ، حجارة مضفورة وآجر . أما « المشربيات »فانها مبنية هنا ، خلافاً لما



↑ منظر دلليس من أجمل المناظر على الساحل جبال زرقاء تشرف على البحر مباشرة



شارع المدينة القديمة في قسنطينة

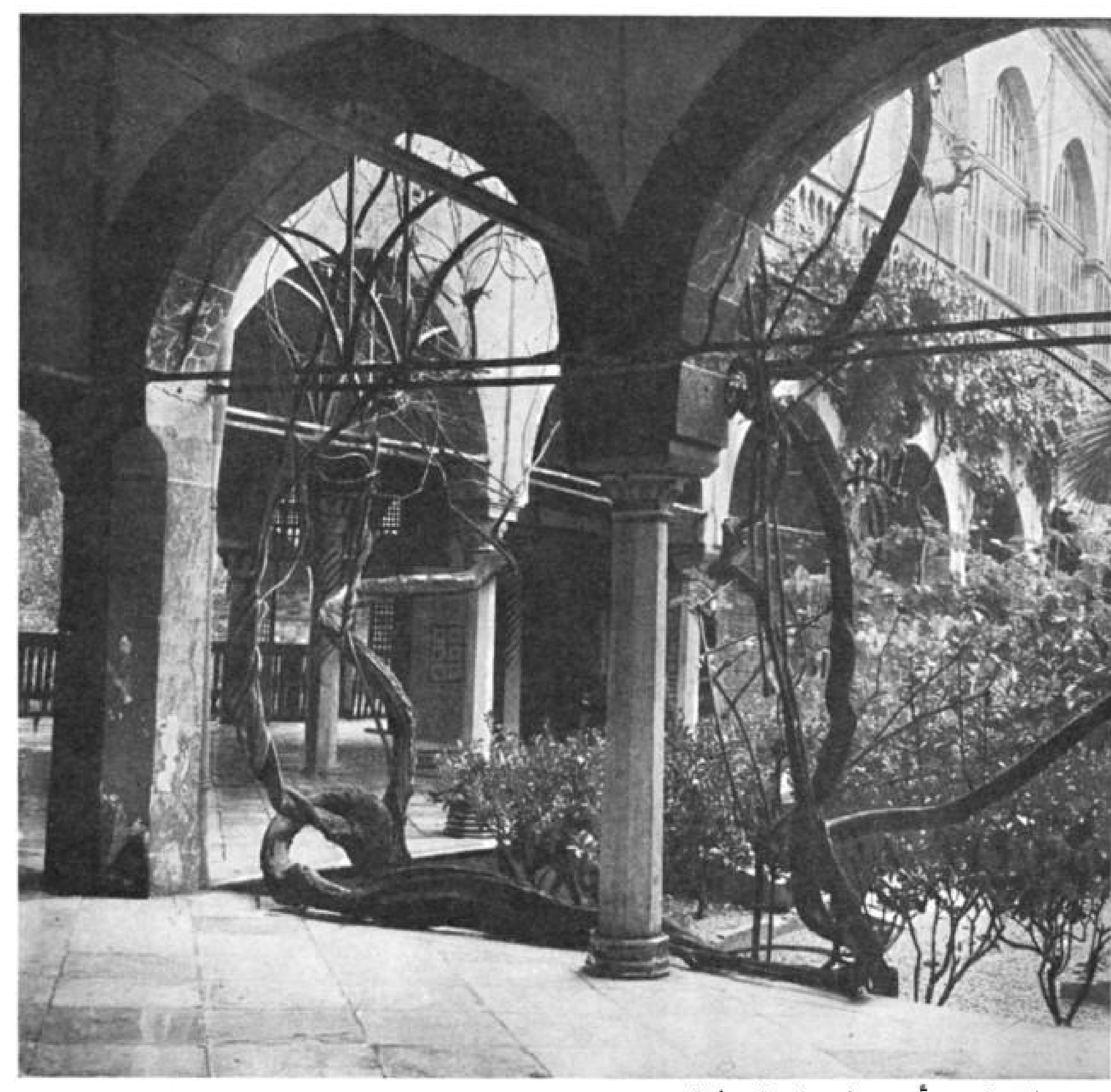


منظر قسنطينة

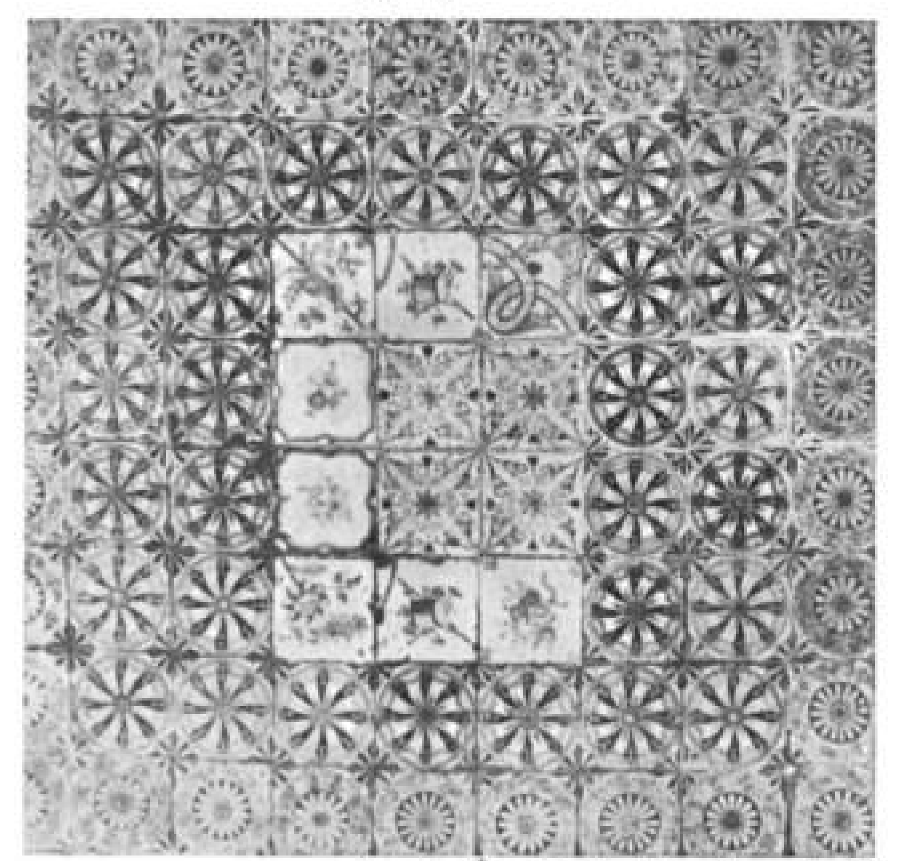


لاحظناه في قصبة الجزائر ، بالحجارة أو بالقطع الخشبية السميكة بعضها فوق بعض على شكل هندسي بارز التضاريس ، مما يضفي عليها مظهر درج مقلوب . فقد تولى الباي بوحنك بناء مسجد سيدي الاخضر ، وكليان حسان بناء مسجد سوق الغزلان ، وصالح باي مسجد سيدي الكتاني . وكان صالح باي أنشط البايات في ميدان العمران، فشيد ، مدرستين وقنطرة علاوة على المسجد المذكور وأحبهم إلى الشعب القسنطيني ، الذي نعاه بكل مرارة عند ما اغتالته شرذمة صغيرة من المدينة . ويقال أن الرجال أمروا نساءهم بارتداء الحجاب الأسود حداداً على موت الباي . ذلك على الأقل هو التفسير الذي يعطيه الناس عادة لمغزى الحجاب الأسود الذي ترتديه نساء شرقي الجزائر حتى ناحية سطيف .

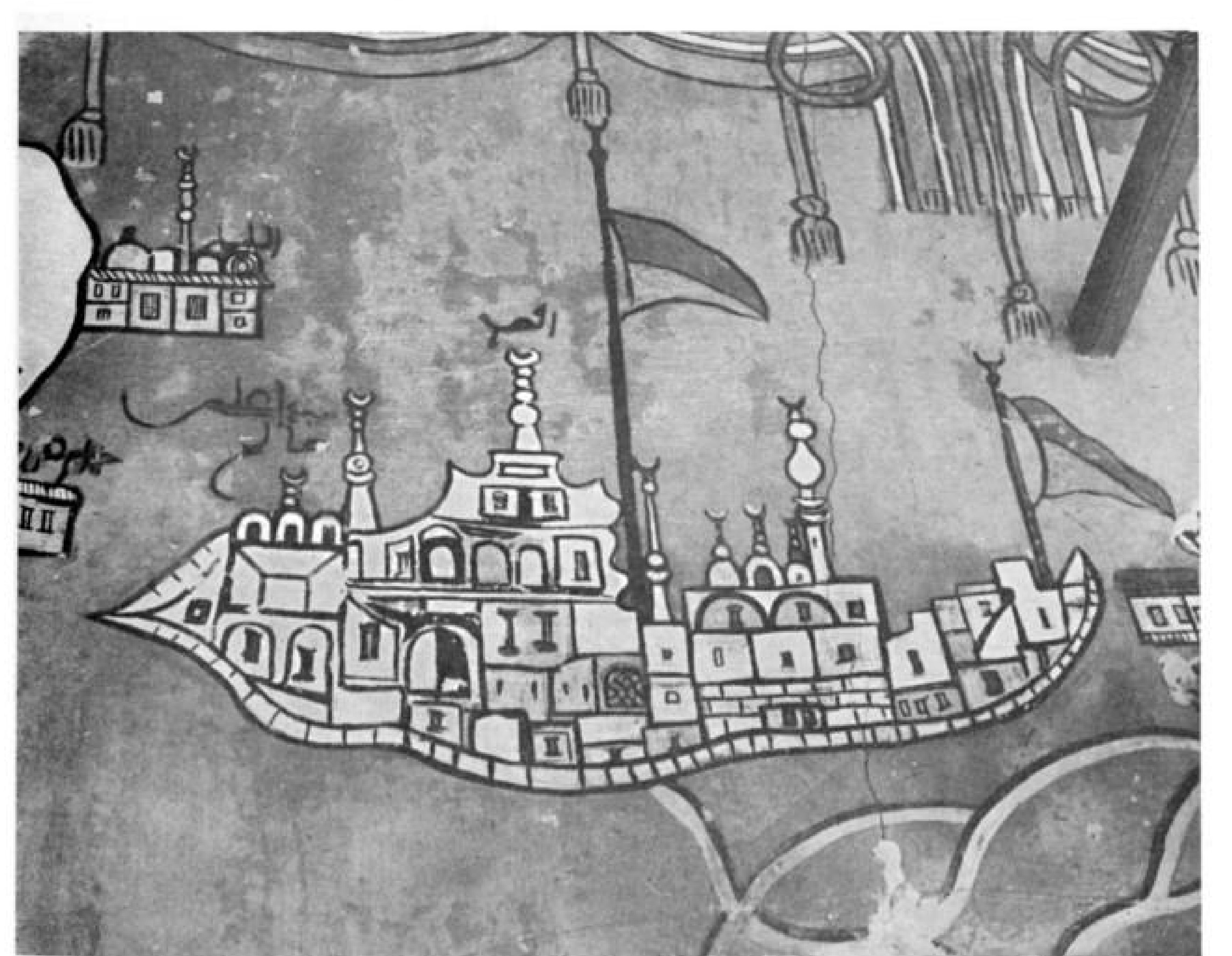
لقد أمر صالح باي ، وهو آخر بايات قسنطينة ، ببناء قصر فاخر وغريب . فالتصميم الذي كان يخضع لنزوة المخطط جعل العمارات



↑ حدائق قصر أحمد باي في قسنطينة



نقوش على الجدار في أحمد باي



رسوم بقصر أحمد باي



ممر إحدى الحدائق ، عبد اللطيف ، العاصمة

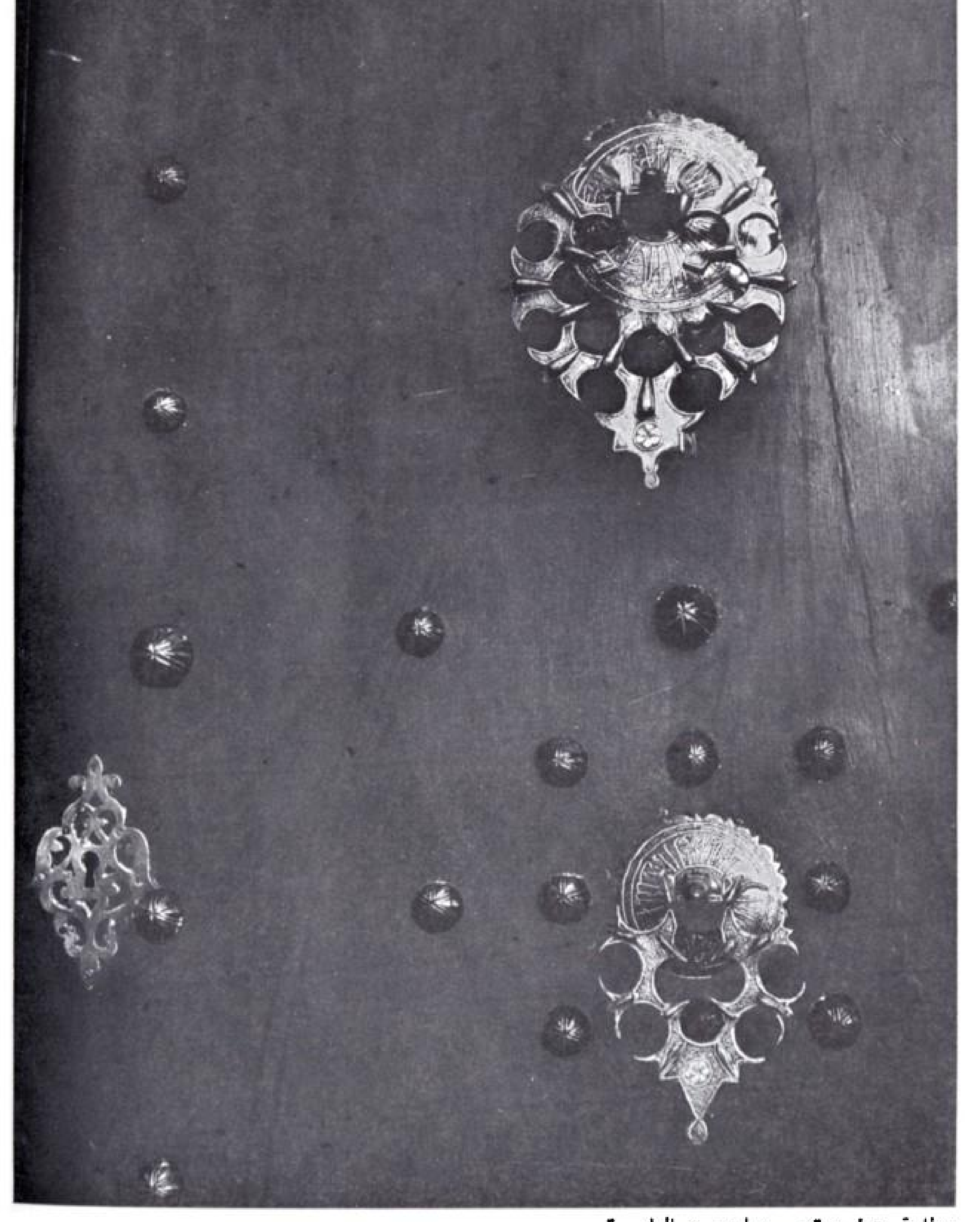
تنتظم حول عدة أفنية وحدائق تمر بها أروقة مفتوحة . وتتحلى هذه البنايات بالرخام الايطالي وخشب الأرز الأوراسي والقاشاني الزاهر الغني . وتزخرف جدران الأروقة نقوش وصور جميلة ، تمثل مدناً صغيرة وموانيء (بصورها الثلاثة) وقلعة صغيرة تشرف على الأرياف . ومن بين هذه المدن التي تحمل أسماء عربية تتجلى صورة مكة في أسلوب يثير العواطف .

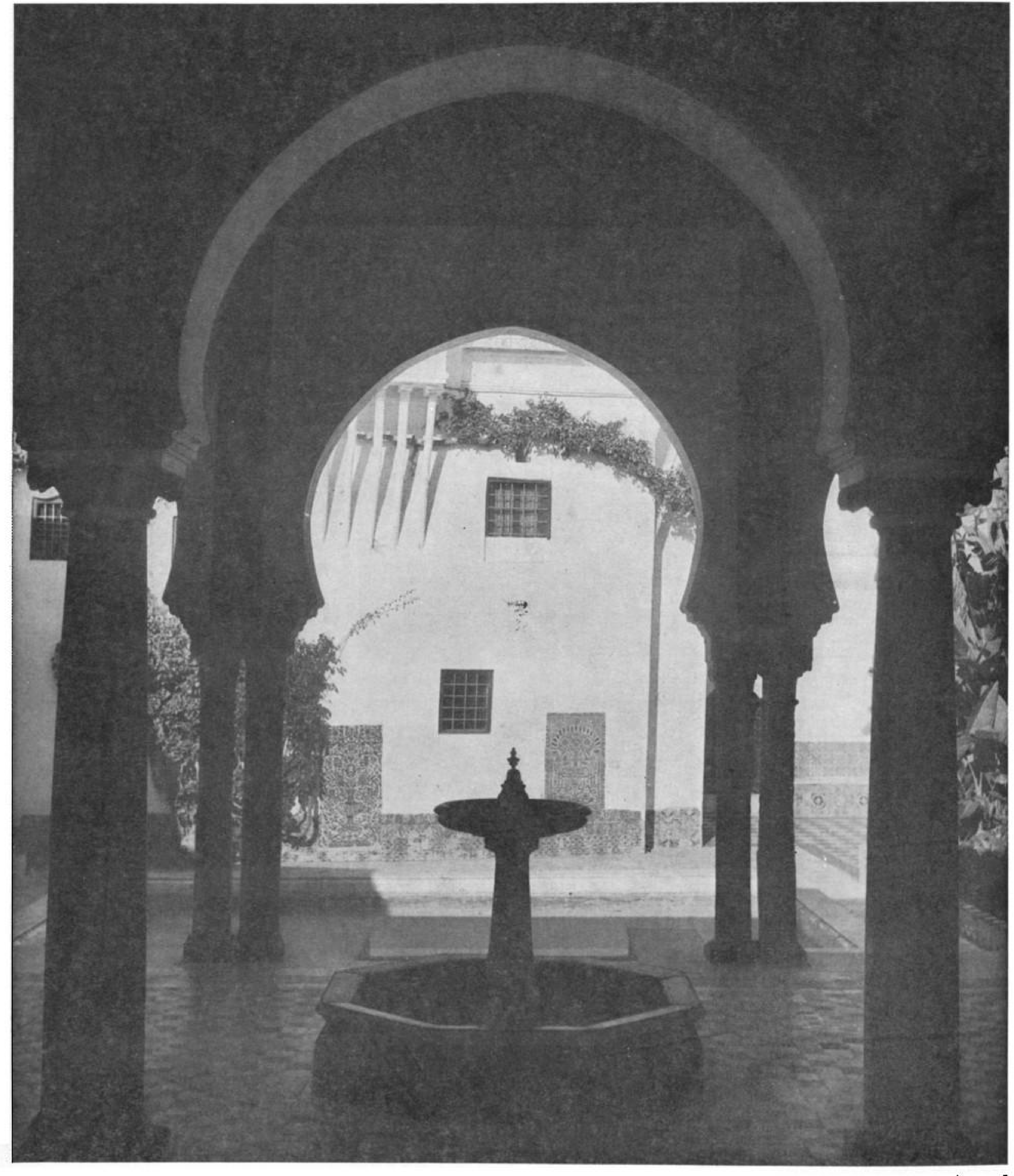
إن منازل الأمراء في الجزائر تستحق دراسة خاصة . ومن جملة ذلك قصر الداي ، الذي يشرف على حي القصبة بالعاصمة ، (حيث وقعت حادثة المروحة التاريخية) ، وضواحي المدينة التي « احتلتها » الآن الشوارع ، والتي كان بها الكثير من الفيلات والقصور .

لقد كان من الممكن إحاطة المباني التي تقع في الضواحي ، والتي تند عن الشروط المعمارية ، بالحدائق ولا تشتمل على أفنية (مثل جنان بن عمار) أو بها أفنية مثل (عبد اللطيف) ! . ونقصد بهذه المباني متحف باردو الحالي ودار مصطفى باشا ودار الرئيس وجنان الداي ، وعبد اللطيف ، وجنان بن عمار . أما إذا كانت البناية هامة من حيث حجمها فان الفناء يصبح ضرورياً (مصطفى باشا) .

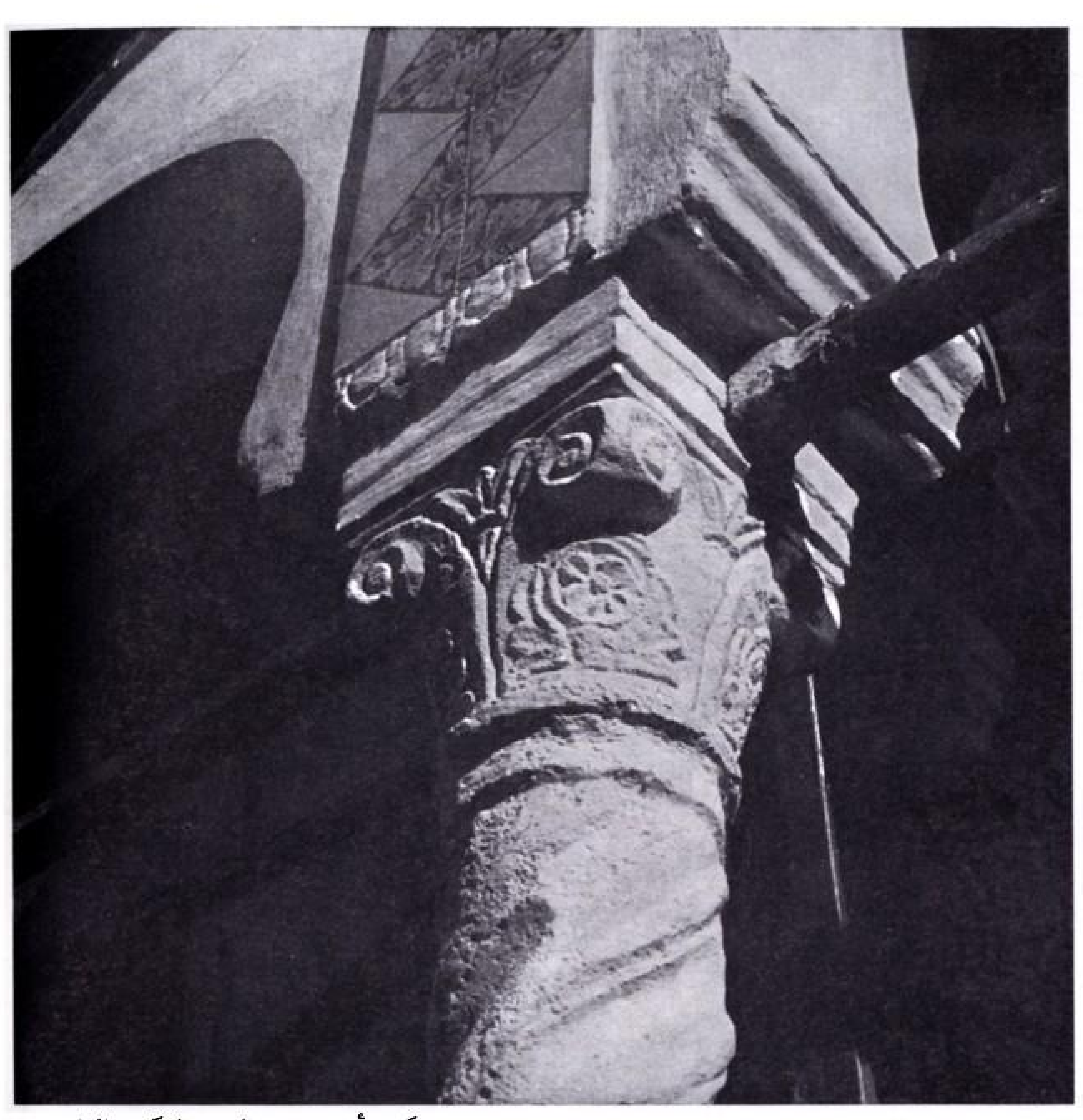
إن الفيلات الواقعة في ضواحي المدينة ، خلافاً لدور القصبة التي تكاد واجهاتها تكون بدون نوافذ تفادياً للأنظار . ما عدا « المنافذ » الضيقة التي ذكرناها آنفاً ، إن هذه الفيلات لها نوافذ وإن كانت تشتمل على فناء . وهذه النوافذ التي لم تخضع لترتيب متناسق الأجزاء أو « أكاديمي » ، قد تم تصميمها بصورة خاصة . فهي غالباً ما تكون على شكل مربع لتعطي المنظر الخارجي نفس الأهمية التي تعطي النور اياها أو أكثر منها ، ذلك أن النور تحت هذه الأجواء يعتبر بمثابة الحرارة ولم يرغب فيه الانسان إلا في البلدان الشمالية . وبفضل سماكة الحائط (الذي هو عامل من عوامل اعتدال الطقس) أصبحت هذه النوافذ تؤدي وظيفة إضافية أي الجلوس فيها .

وهذا ما يفسر لنا ـ زيادة على حجب المرأة ـ سبب القضبان التي نراها سواء في الطوابق العليا أو في الواجهة الموالية للفناء أو في الطوابق السفلى والواجهات الخارجية حيث تقي البيت من سطو اللصوص . فالقضبان التي نراها على نوافذ الطابق العلوي تكمن فائدتها أساساً في تجنب النساء والأطفال أو كل شخص آخر يجلس في النافذة لرؤية المناظر الخارجية من السقوط . وفي هذا المضمار تصبح النوافذ ، التي هي مركز ملاحظة ومقعد في آن واحد أثاثاً حقيقياً ومشكاة تطل على المناظر الخارجية . والنوافذ هنا محاطة تماماً بالقاشاني الذي هو عامل من عوامل النظافة بالنسبة إلى الأطفال الصغار ، إذ أنه من السهل جداً


مطارق باب قصر باردو ، العاصمة



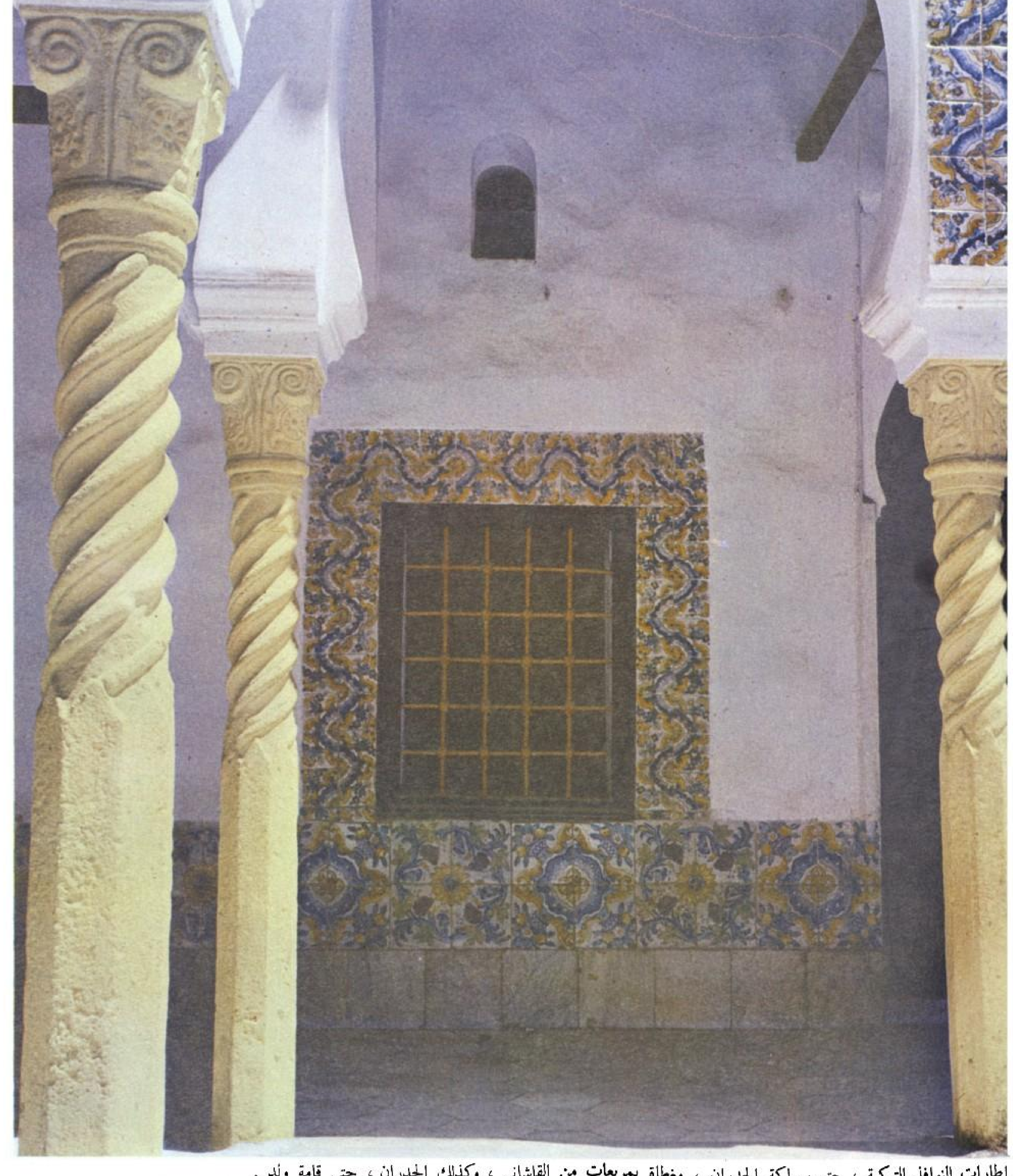
قصر بـاردو



↑ في مسكن أميري من العهد التركي بالعاصمة . قصر من الطباشير يبدو من مادته أن صناعته محلية ، ويكشف عن بهاء أكثر من رخام إيطاليا .



تنظيف وغسل هذه النوافذ ، خلافاً لتلك التى تدهن بالكلس . ومن جهة أخرى فان هذه النوافذ منخفضة أي قريبة من باحة الطابق ، وبذلك تشكل قسماً من الزخرفة التي تتحلى بها الغرف الداخلية التى تقع حول الجدار ، والتى يبلغ ارتفاعها طول الرجل أو الطفل . إن موقع النافذة على مقربة من باحة الغرفة مرتبط بجلوس الانسان تقليدياً على أرائك أو زرابي . وبهذا الصدد يجدر بنا أن نلاحظ اليوم بأن البلدان الشمالية التى وجدت فى أغلبها حلا عصرياً لمشكل التدفئة قد تخلت فى نفس الوقت عن المقاعد المرتفعة ، عن تلك « العروش » الصلبة التى ظلت قروناً متطاولة تشكل الوسائل التقليدية لنمط الحياة ، الذي فرضته قساوة المناخ . فقد كان الانسان فى



إطارات النوافذ التركية ، حتى سماكة الجدران ، **مغطاة بمربعات من** القاشاني ، وكذلك الجدران ، حتى قامة ولد .

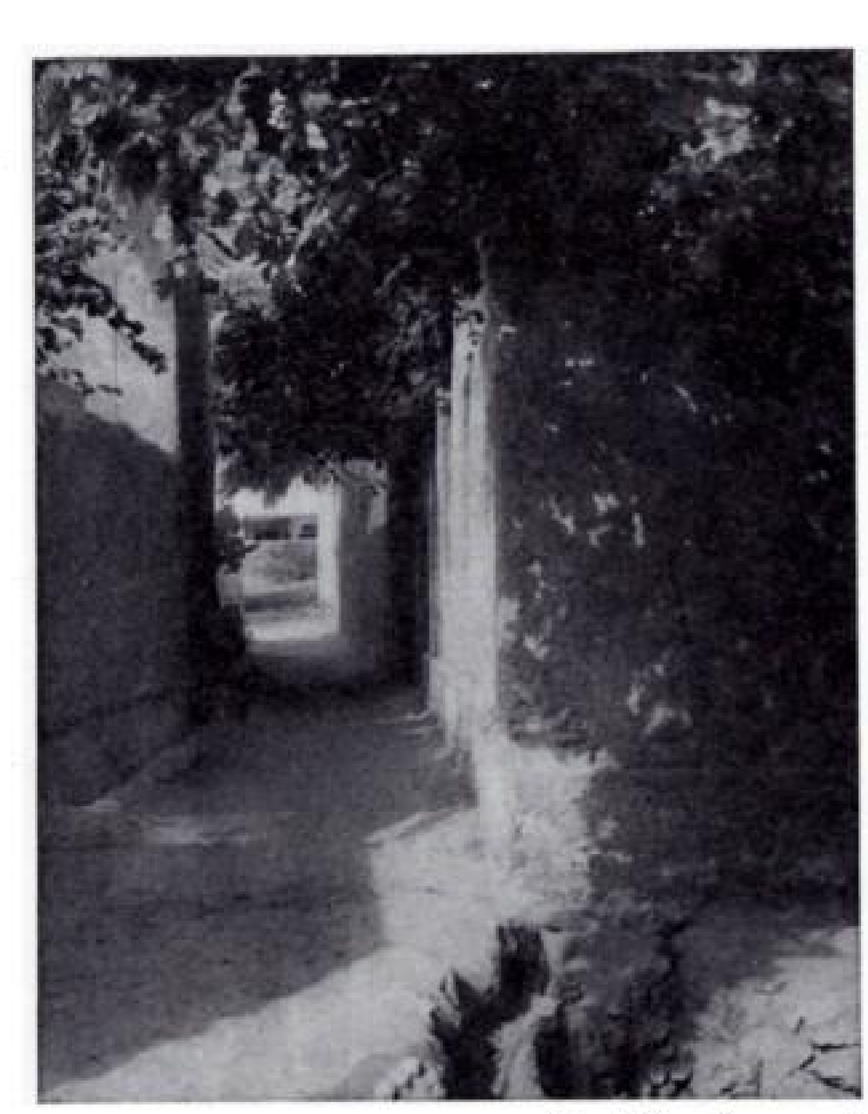


غـرداية .

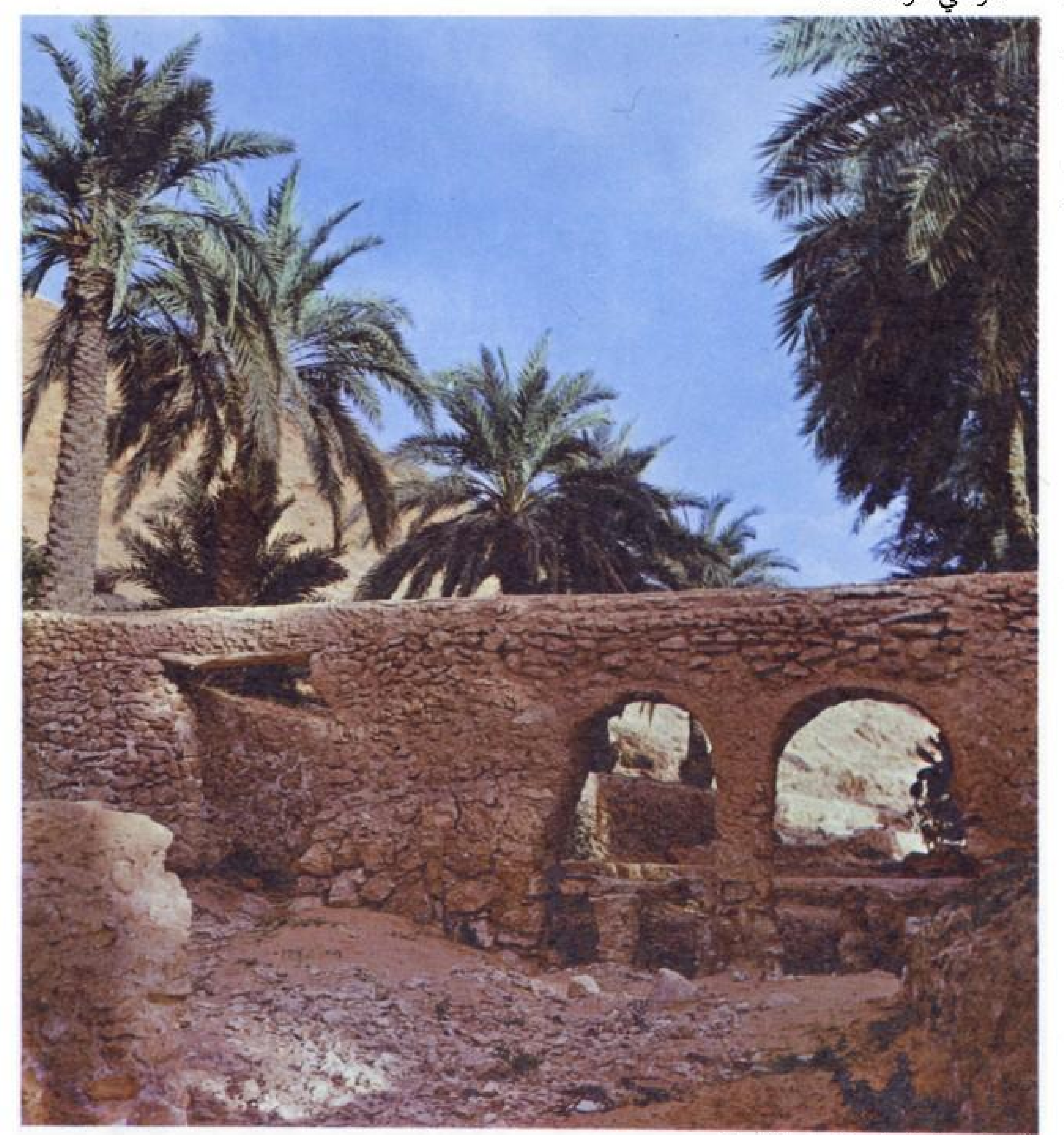
هذه البلدان يجلس عالياً ليتجنب باحة البيت التى كانت أشد برداً من كل أجزائه ، والتى كانت تداس بالاحذية المربوطة الوسخة ، التى يصعب نزعها باعتبار رداءة الطقس . وخلافاً لذلك فان الانسان فى المشرق وفى المغرب كان يجلس على الزرابي لأن هذا الجزء من البيت هو خير مكان للجلوس ، ولأنه غير مدنس بما تحمله الأحذية الخفيفة التى يسهل نزعها عند الدخول إلى البيت ، والتى هي الأحذية الملائمة لطبيعة البلدان الحارة . والمقاعد التى اشتهرت اليوم فى البلدان الشمالية بكونها « مريحة » هي تلك التي تمكن من رفع الركبتين إلى مستوى علو المقعد أو فوق ذلك أحياناً . بل إن الانسان أصبح اليوم يجلس على المخدة أو على الأريكة بعد التغلب على مشكل التدفئة وتوفر النظافة . وبمجرد الاطلاع على المجلات الأوربية نلاحظ بكل سهولة هذا التغيير الذي دخل على نمط الحياة ، والذي له أهميته الخاصة . وهكذا التحق الغرب ، بعد أن تغلب على صعوباته في الحياة ، بموكب الشرق والمغرب في نمط حياتهما الداخلية المنطقية المريحة . ذلك النمط الذي تبناه سكان هذه الأرض منذ قرون دون تكلف ولا حرج وبكل تعقل وحكمة .

نستطيع الآن ، بعد هذا العرض التاريخي السريع عن الهندسة المعمارية الجزائرية ، أن نوجه أنظارنا حول الجهات الخمس الكبرى للهندسة المعمارية : ميزاب ، سوف ، الغرارة ، القبائل والأوراس . وهي جهات معزولة من حيث جغرافيتها أو جد شاسعة ، وهي جهات تاريخية أيضاً .

وفي هذا المضمار ، يوجد في الجزائر ، لأسباب تاريخية وجغرافية أيضاً ، مجموعة لا تحصى من الوحدات الصغيرة للهندسة المعمارية مثل الزيبان وبلاد القبائل العليا وتماسين ، بالقرب



↑ ممر في الواحات .



أشغال مياهية قديمة في الواحة .

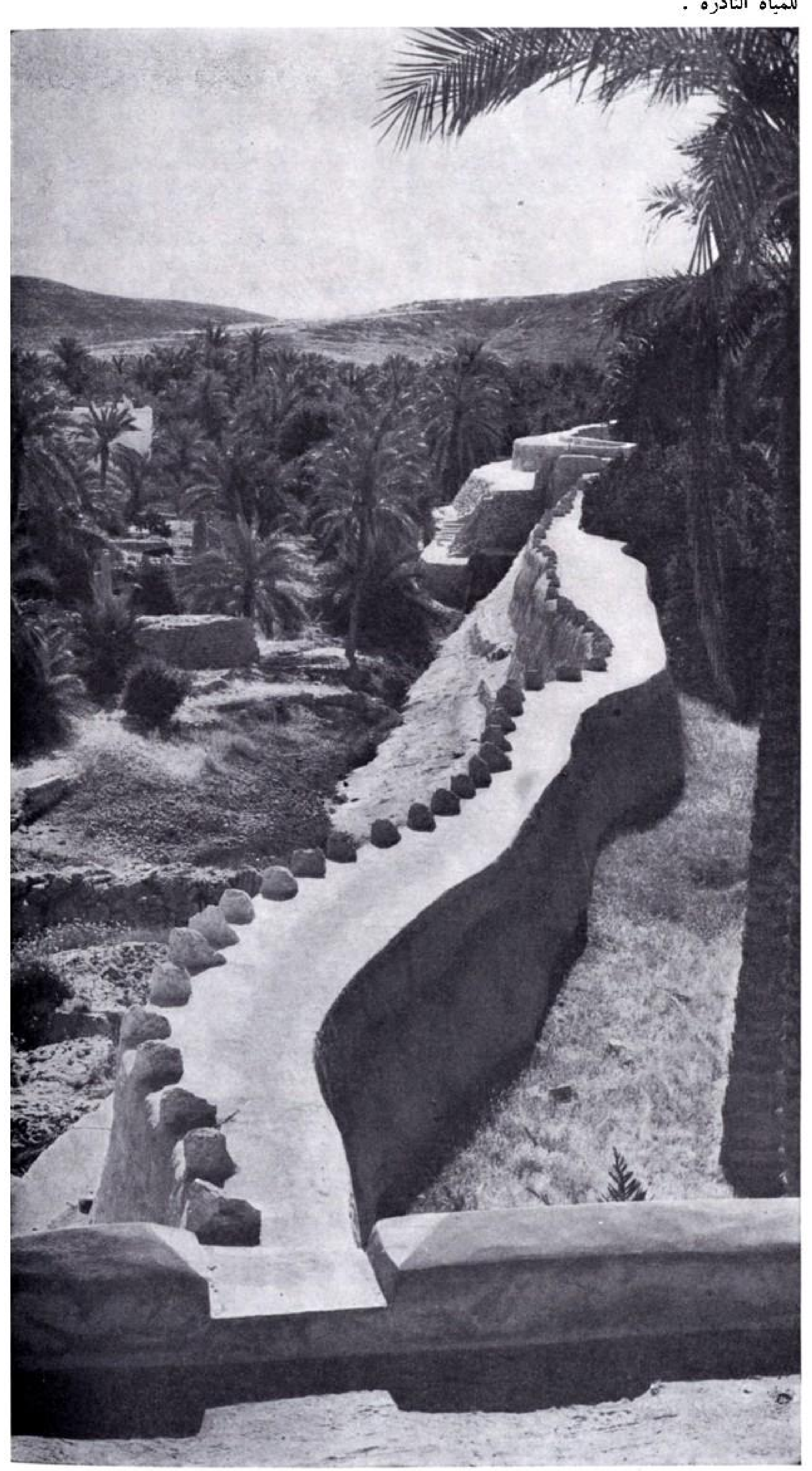
من توقرت . وبما أنه من الصعب علينا أن نصفها جميعها فاننا سنحاول أن نذكر أهمها على الأقل في آخر هذا الكتاب .

إن وادي ميزاب ، لولا عمل الانسان ، لكان يبدو غير لائق للحياة والاستقرار البشري . فعند ما يقترب المرء من هذه الناحية تبدأ المناظر الحجرية تحل محل الرتابة التي يشعر بها وهو يتأمل مناظر الأغواط . وقد سمى الجزائريون من سكان الصحراء هذه الجهة « بالشبكة » للدلالة على شبكة الوديان التي خلقتها التضاريس الناتئة المنتظمة ، وكأنهم كانوا يرونها من علي .

وهل يمكن أن تسمى بالوادي هذه الطريدة الرملية التي تنعرج بين الهضاب الحجرية ؟ وذلك أن الانتظار إلى المياه المفيدة المنعشة قد يطول عامين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة أعوام ، ومع ذلك فقد وجد بها النخيل ، أتى به الانسان فاعتنى به طويلا . وهكذا أصبح الفيضان بهذه الوديان مفيداً للغاية ، بفضل حكمة وشجاعة السكان الذين أنشأوا السدود وحفروا الآبار وبنوا المجاري التي لا حصر لها وبالتالي قاموا بتنظيم واستصلاح التربة . إن تنظيم المياه على هذه الصورة الجلية قد جعل الزائر الأجنبي يتساءل في أغلب الأحيان كيف ومتى تم ذلك وهل هو حقيقي أو أثر من آثار الماضي . ومع ذلك فان هذه الانجازات ، رغم أنها ترجع إلى القرون الغابرة ، لا تزال تؤدي دورها فتشد المياه الخطيرة والمنعشة أيضاً ، التي تنحدر من الوديان إلى البساتين لريها ولملء الجيوب الممتدة في صخور الآبار . ولولا هذه المشاريع لذهبت سدى مياه الوديان ، التي يخشى الناس عنفها وسرعتها .

فالبساتين في حد ذاتها كانت إذن هندسة معمارية وعمران . والأنهج الضيقة التي تكونها

سد بني يزقن الطويل يخترق الوادي كثعبان أبيض كبير . إنه سد وطريق ، وبالخصوص ملتقى ومجمع للمياه النادرة .



حيطان البساتين المبنية بالطوب لا تعدو أن تكون بمثابة قنوات موسمية استعملت بها منافذ مقيسة بحيث لا ينفذ منها إلا القدر المحدد لكل بستان لا غير . واذا وجد من وراء هذا البستان بستان آخر فانه يحظى بحقه في توزيع المياه بواسطة ميزاب يخترق الجدار المشترك . إن المهندس الذي أشرف على هذه الأعمال قد آلى على نفسه ألا يقع في الخطأ . فقد أقسم بالقرآن أن يوزع المياه بانصاف .

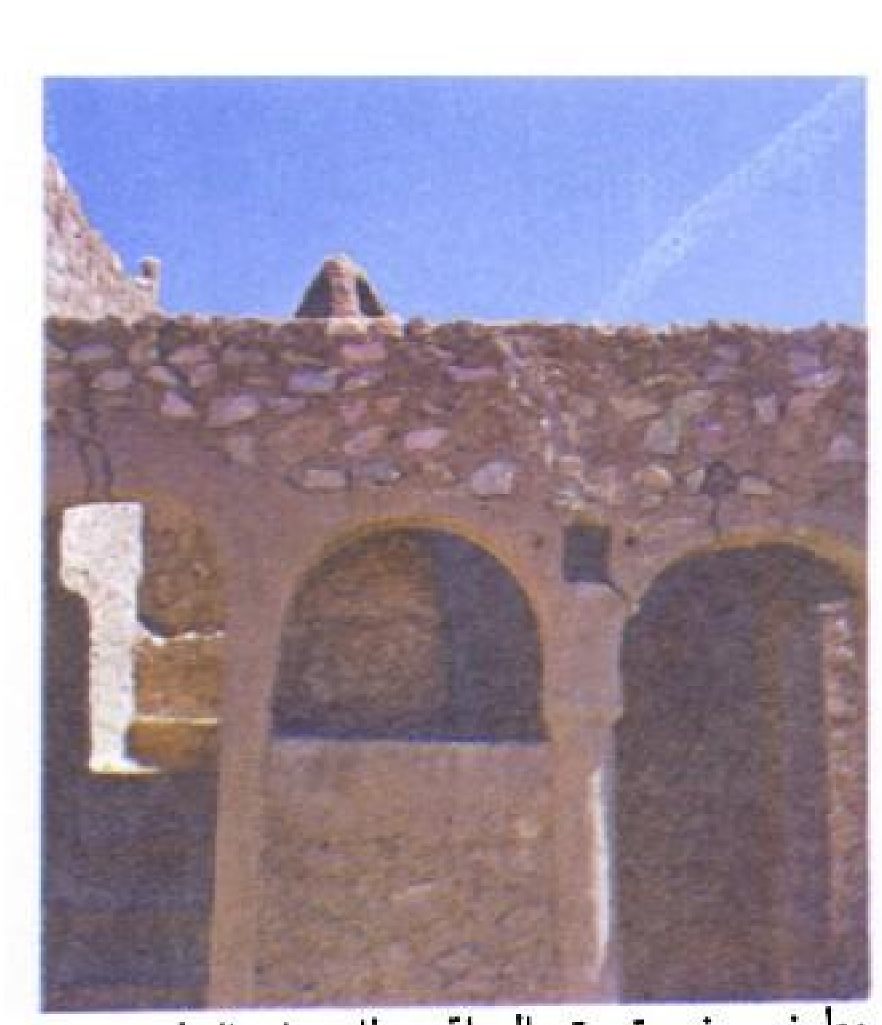
إن المجموعة المحلية بأكملها ، أي كل الرجال القادرين على العمل ، هي التي حفرت هذه الآبار المشتركة وبنت السدود ـ وسد بني يزقن الجميل خير دليل على ذلك ـ تحدوها أنغام الموسيقى الصحراوية . وهكذا أيضاً بنيت المساجد والحصون التي تحيط بالمدينة وبروج الحراسة .



↑ من الحوش ، درج يؤدي إلى السطح .



كل دار تشكل حصناً .



مطبخ صغير تحت الرواق يطل على الفناء .

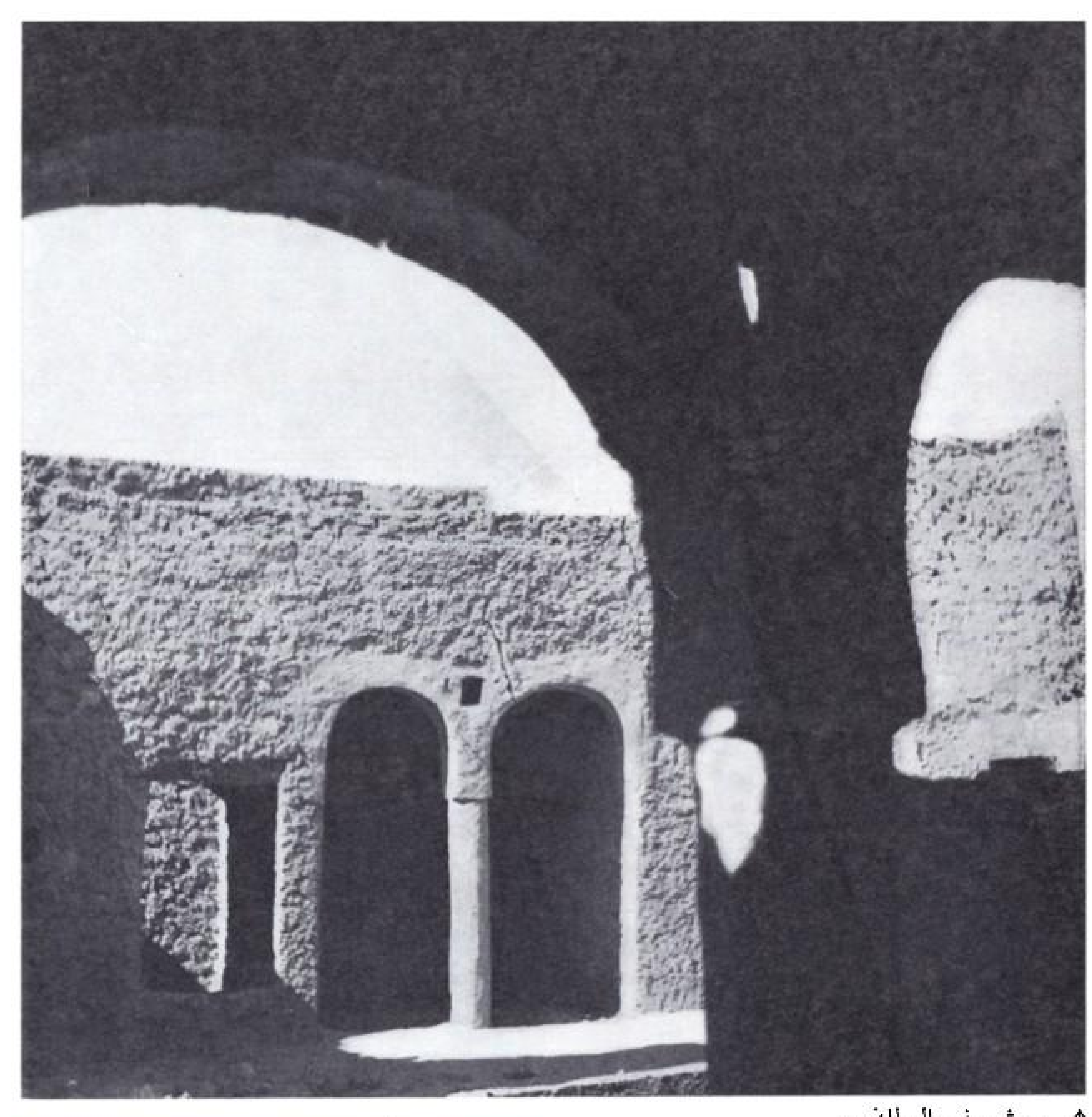
إن سد بني يزقن ، الواسع الأبيض ، الذي يعبر الواحة ، يعتبر طريقاً أيضاً . فهو أقرب سبيل لاجتياز الوادي ، ويمكن قطعه على الحمير . ومن الملاحظ أيضاً أنه يمتاز بزخرفة غريبة تتكون من الحجارة المصطفة على قسم كبير منه لشد الانقاض التي يجرها الفيضان (ويحتمل أن تكون هذه الانقاض بشرية أو حيوانية لأن الفيضان يباغت الناس أحياناً بصورة عجيبة) على أن لهذه الحجارة دوراً آخر : ففي هذه الناحية التي تمر بها المياه عادة عند ما لا تتجاوز الحجم المعهود ، نجد السد منحدراً بعض الشيء ، ونرى الناس يقيسون ارتفاع المياه أو هبوطها بالحجارة المذكورة . فيقولون لك أن الماء قد بلغ الحجر الخامس أو السادس حتى الحجر العشرين . وهذا المقياس يستعمل أيضاً للانذار في حالة فيضان خطير .

أما منازل هذه الواحة فهي حصون صغيرة خاصة ، وذلك لثلاثة أسباب :

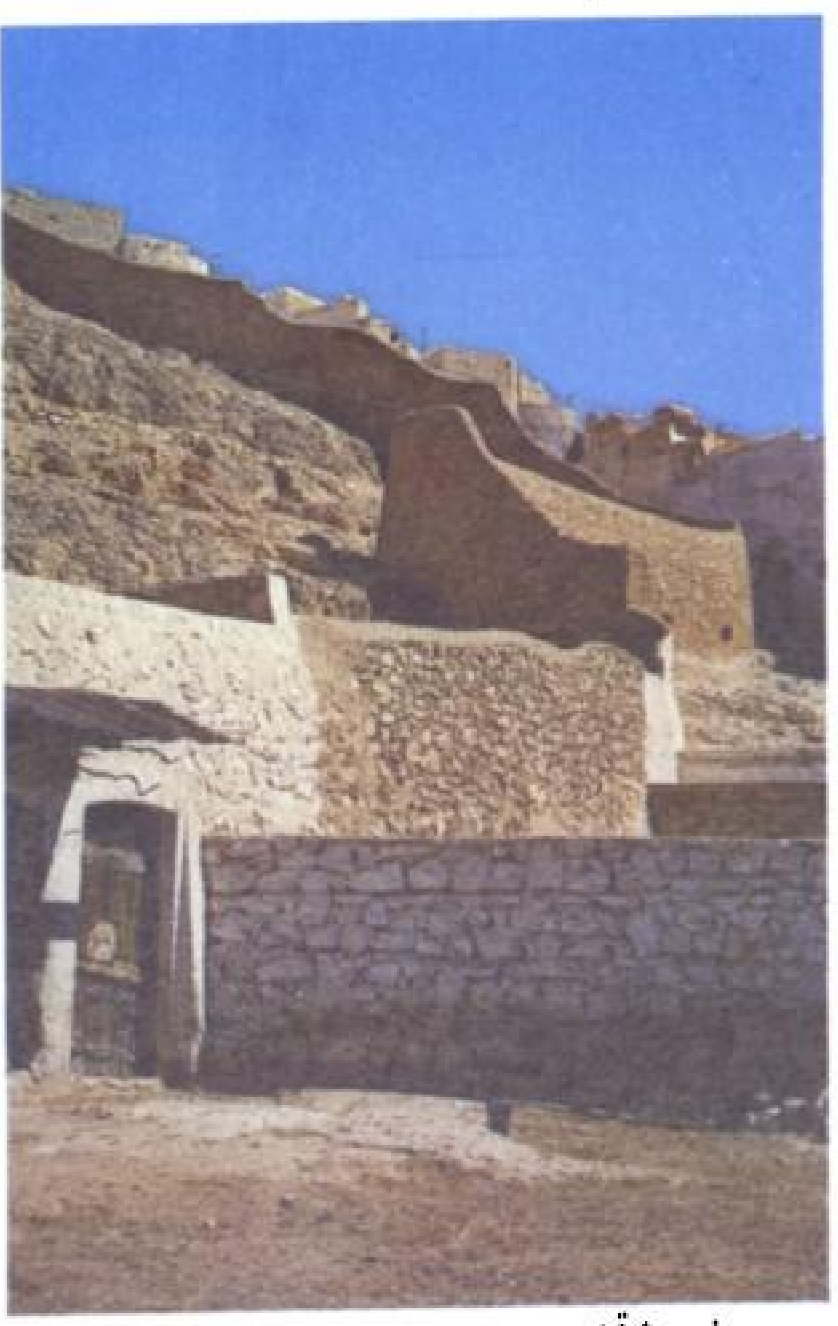
- لأن انعزالها يتطلب حمايتها من اللصوص والنهابين .

- لأنها مبنية غالباً في مجرى المياه - وهي أشد نهباً - الأمر الذي يقتضي بتدعيمها وتمتينها .

- لأن الحياة في هذا الوادي تمتاز باهتمام السكان بسرية الحياة العائلية . وإذا كانت المرأة هنا ، كمثيلتها في القصبة ، تتمتع بحق النظر إلى الخارج ، كما تدل على ذلك النوافذ الصغيرة التي نراها تتخلل الواجهات على مستوى الانسان جالساً أو قائماً فانه لا ينبغي أن يراها أحد غير أقرب الناس إليها من الرجال . لذلك نجد أيضاً الجدران المسماة « بالمعمارية » تحيط بالسطوح حيث تجلس العائلة مساء وتنام ليلا (دور بساتين النخيل هي دور الاقامة الصيفية) .



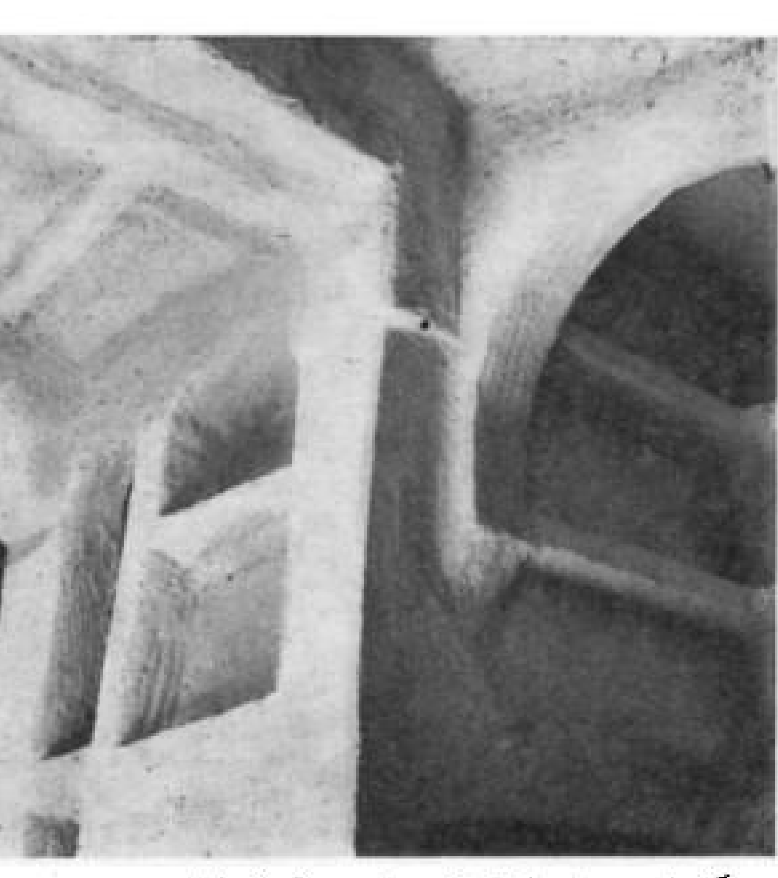
↑ حوش في العطاف .



سور بني يزقن

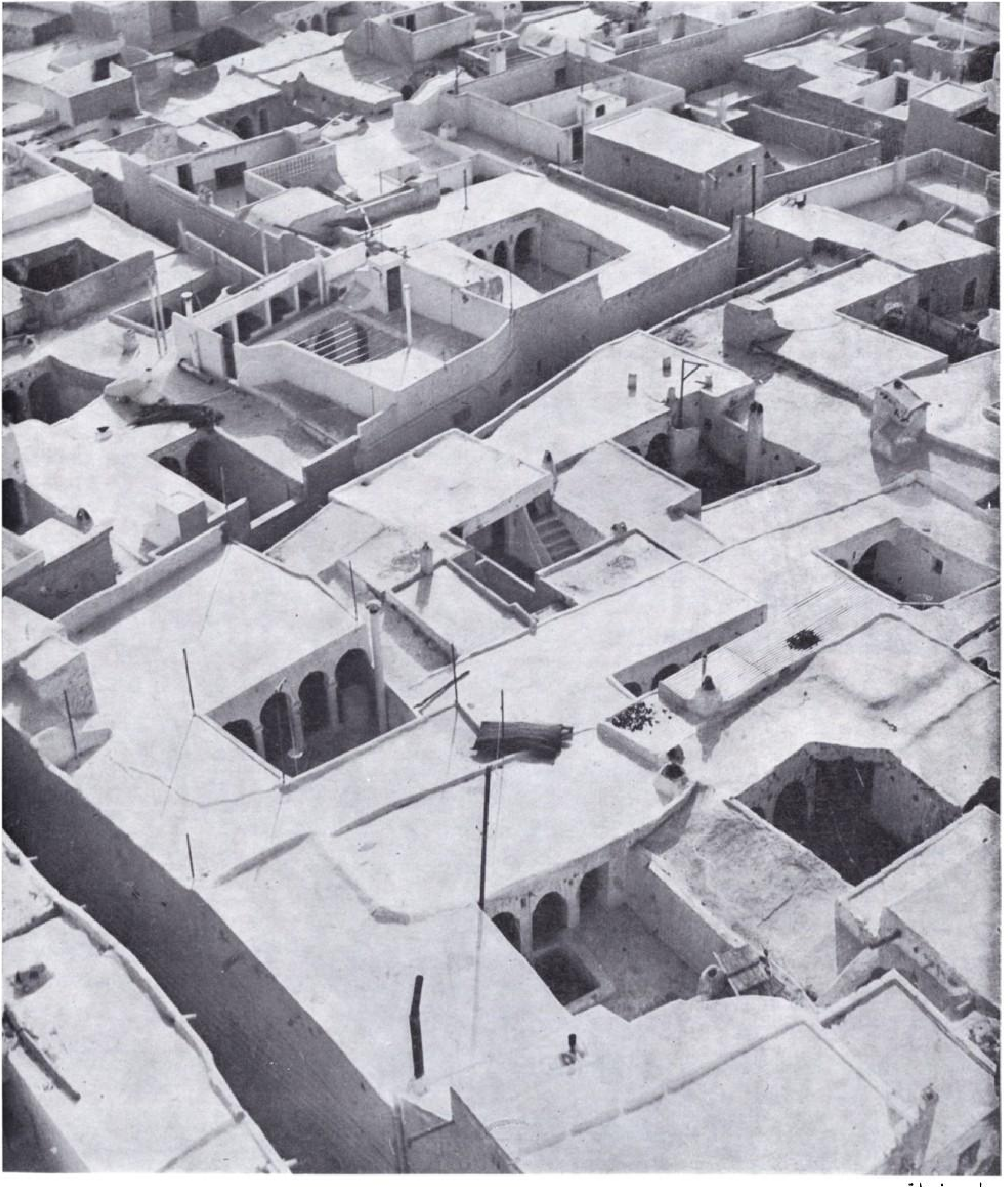
سطح ـ هنا ـ لجامع . حجارات مسطحة موضوعة على أخشاب .

لقد سبق أن تحدثنا عن الأفنية . وفي هذا السياق نلاحظ أن هذه الأشكال موجودة في ميزاب ، سواء في المساكن العمرانية ولنفس الأسباب التي ذكرناها بشأن القصبة بالجزائر ، أو في المساكن الكائنة بالبساتين ابتداء من الطابق



↑ كوات داخلية في دار بالواحات .
واليوم ـ في الهندسة المعمارية الحديثة ـ يعمل الاتجاه إلى إزالة الأثاث لتعويضه بالخزانات والمشكات .

العلوي ، وذلك لترك الطابق الأرضي كقاعة تتوفر بها الرطوبة اللازمة . ويتسرب الضوء والهواء إلى هذه القاعة مثلما يتسربان إلى البئر عن طريق منفذ عمودي يصعد إلى الفناء الموجود في الطابق العلوي . وهكذا يتوفر للأسرة الواحدة أكبر عدد ممكن من الغرف المختلفة في بيت واحد ، ونعني باختلاف الغرف اختلاف المناخ : فالفناء لم يخل أبداً من رواق مغطى وحجرات صغيرة يمكن أن تستعمل للنوم أو لخزن التمور . فهي عبارة عن خلايا نسكية ليس بها من أثاث غير مشكاة وبعض الرفوف تخضع لقواعد الذوق العصري . أما المطبخة فانها توجد حيث تتوفر الرطوبة أي في الطابق الأرضي نهاراً وفوق السطح مساء ، وليس لهذه المطبخة إلا مدخنة واحدة . وفوق الغرف التي تحيط بالفناء توجد السطوح المحاطة بجدران « عمرانية » والمنعزلة بعضها عن بعض أحياناً . فهي غرف في الهواء الطلق ، وهي حجرات النوم الصيفية ، لأن جدران الدار تحتفظ بالحرارة الخنقة التي تجعل من الصعب النوم في الغرف الداخلية . فالمرء يشعر براحة ومتعة عند



سطوح غرداية .

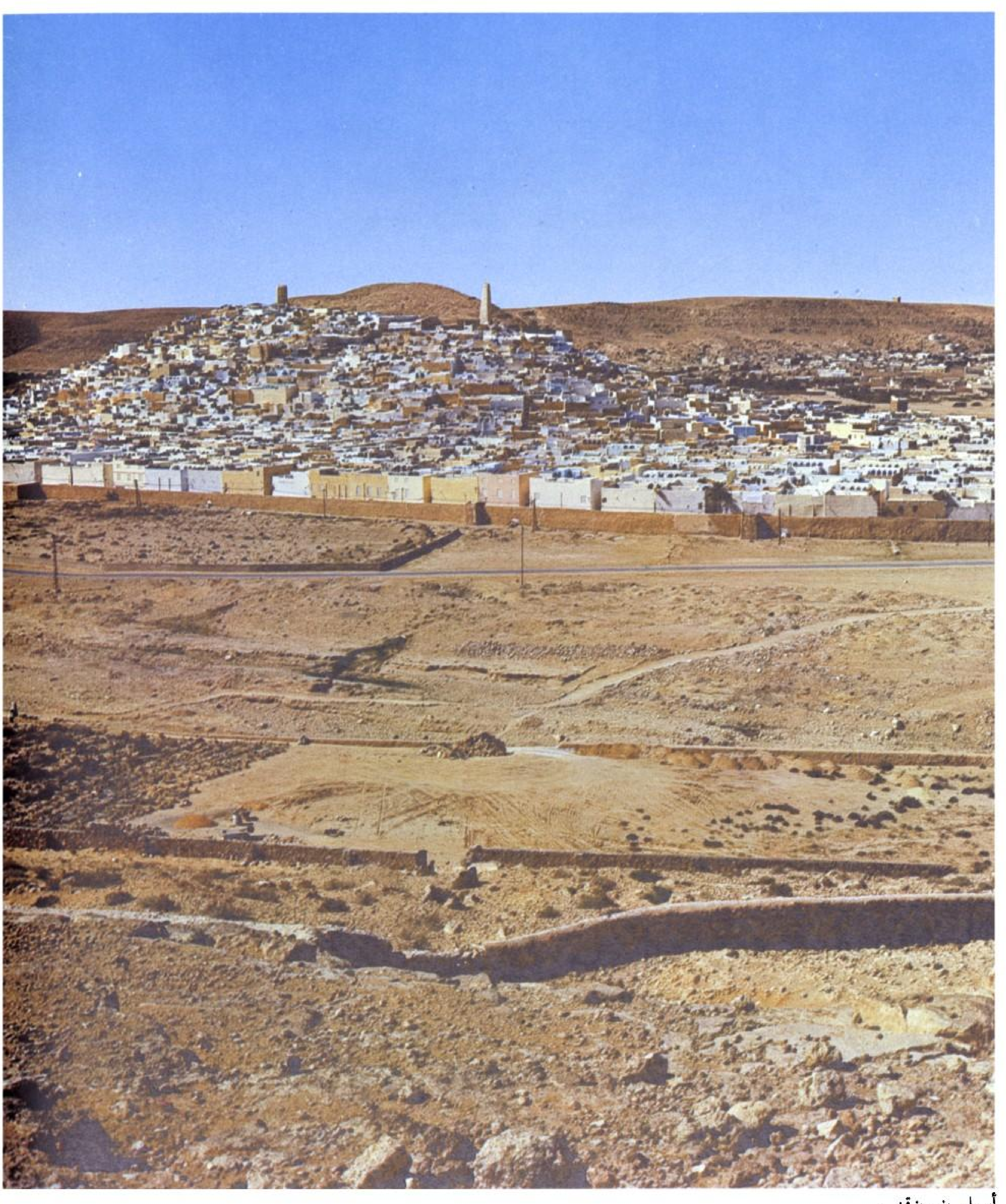
مـا يصعد إلى هـذه السطوح بعد يوم كـامل من العمل ، فيستلقي للاستمتاع بلطافة الهواء واستنشاق روائح الياسمين والورد ، التي تعبق بها الحدائق ، والاستمـاع إلى حفيف خوص النخـل القـريب . والـواقـع أن هـذا الخوص قريب من الديـار إلى حـد أنـه يكـاد يشكـل قسماً منهـا فـي بعض الأحيـان .



دار صغيرة زرقاء ، أعيد استصلاحها من جديد، تحتفظ بالطـابع العتيق ، وتشهد بما يقـدر عليه أهل مزاب في ميدان البناء .

إن قطع النخلة هنا أمر لا يفكر فيه أحد ، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تتطلبه من جهد وزمن قبل أن يستفيد صاحبها من ثمارها . وعلى العكس من ذلك فان البناء لا غنى عنه هنـا . لذلك نرى الـنـاس يبـنـون باستمرار حـول بسـاتين النخيـل تاركين للأشجـار متسعاً ، حتى تستطيـع مقاومـة الـريـاح .

شارع صاعد .



أسوار بني يزقن .

وما دمنا بصدد البناء نود أن نوضح أن السطوح هنا مغطاة بطبقة من الجبس الصحراوي كبقية الدار ، ما عدا عارضاتها وسقوفها التي تبقى عارية ، فتشكل مادة رائعة تستهوي المهندسين المعماريين في العصر الحاضر . إذ أن هذا البناء الذي أصبح يتكلف ثمناً باهضاً ، لعلى جانب كبير من المتانة إذا فكرنا في القرون التي تحداها . ففي داخل الغرف تكون الكوات والرفوف المبنية بالجص أنواعاً من النقوش التي ترضي النظر وتشكل كل زخرفة الدار .

ولقد روعيت نفس الترتيبات ونفس الصرامة في بناء مساكن مدن : غرداية و « مليكة » وبن إزغن وبونورة والعطاف التي أسست تقريباً في نفس الوقت قبل ألف سنة وكذلك مدينتي بديان وقرارة البعيدتين اللتين أسستا بضعة قرون بعد ذلك . إن مدن الميزاب تعتبر من أقدم نماذج المدن المعمارية والتي بقيت على حالتها عبر القرون . وكانت المساكن في الماضي تبنى لاعتبارات تاريخية معروفة حيث أن الحصون تحدد مسبقاً حجم المدينة المزمع بناؤها كما يشرع في بناء المسجد قبل المساكن وهذا لأسباب تعبدية . ثم أن المساكن التي تشيد حول المسجد الموجود عادة في أعلى مكان تصطف في حلقات متحدة المركز إلى غاية الحصون حيث يوجد داخلها وبالقرب منها ساحة السوق . والحماية المدينة (التي هي أشبه بحكم نظامها بالعمارة العصرية منها بالقرية المتلاحمة البيوت)



↑ صومعة غرداية .



مسجد مقبرة قرب بني يزقن .

كانت تغلق الأبواب المؤدية إلى الأنهج الضيقة . وكانت هذه الحماية تهدف أيضاً إلى الحفاظ على الطابع الديني بالنسبة للمجموعة .

ويمكن أن نستعمل في وصف مدن الميزاب نفس العبارات التي توصف بها القصبة في العاصمة : أزقة مغطاة « ظلال ونسيم » أفنية داخلية تحظى الشرفات بفضلها بأشعة الشمس والتهوئة وكذلك السطوح المرتبة على شكل أدراج والمعرضة لأشعة الشمس والمشرفة على المناظر الخارجية . ولكن « قصبة » الميزاب أقدم بكثير من قصبة العاصمة وهي على طراز جزائري أصيل . ولا يتوقف الفرق بينهما على بضعة قرون من التاريخ بل يمكن الفرق على وجه الخصوص في تلكم الصرامة المقصودة التي تتجنب الأبهة التى تتميز بها المساكن في عهد الأتراك . وهذه الصرامة



بني يزقن . المدينة تصعد نحو صومعتها العالية . المسجد هو المركز الديني للمدينة ولكنه أيضاً مركز ثقافي . وفي الماضي كان المركز الاداري كذلك .



قبر سيدي عيسى . نحت سريالي . أين نجد تعبيراً أحسن عن الفن المتناسق الحديث .

المعمارية لا تعني جهل الفنيات والتفنيات ذلك أن الاباضيين قد برهنوا قبل حلولهم بالمزاب على معرفتهم الجيدة لكل جزئيات الفن الاسلامي وتجلت هذه المعرفة في مدينة « إزدرانسن » ولا أدل على ذلك من الأملطة المعروضة في متحف الطفولة بعاصمة الجزائر .

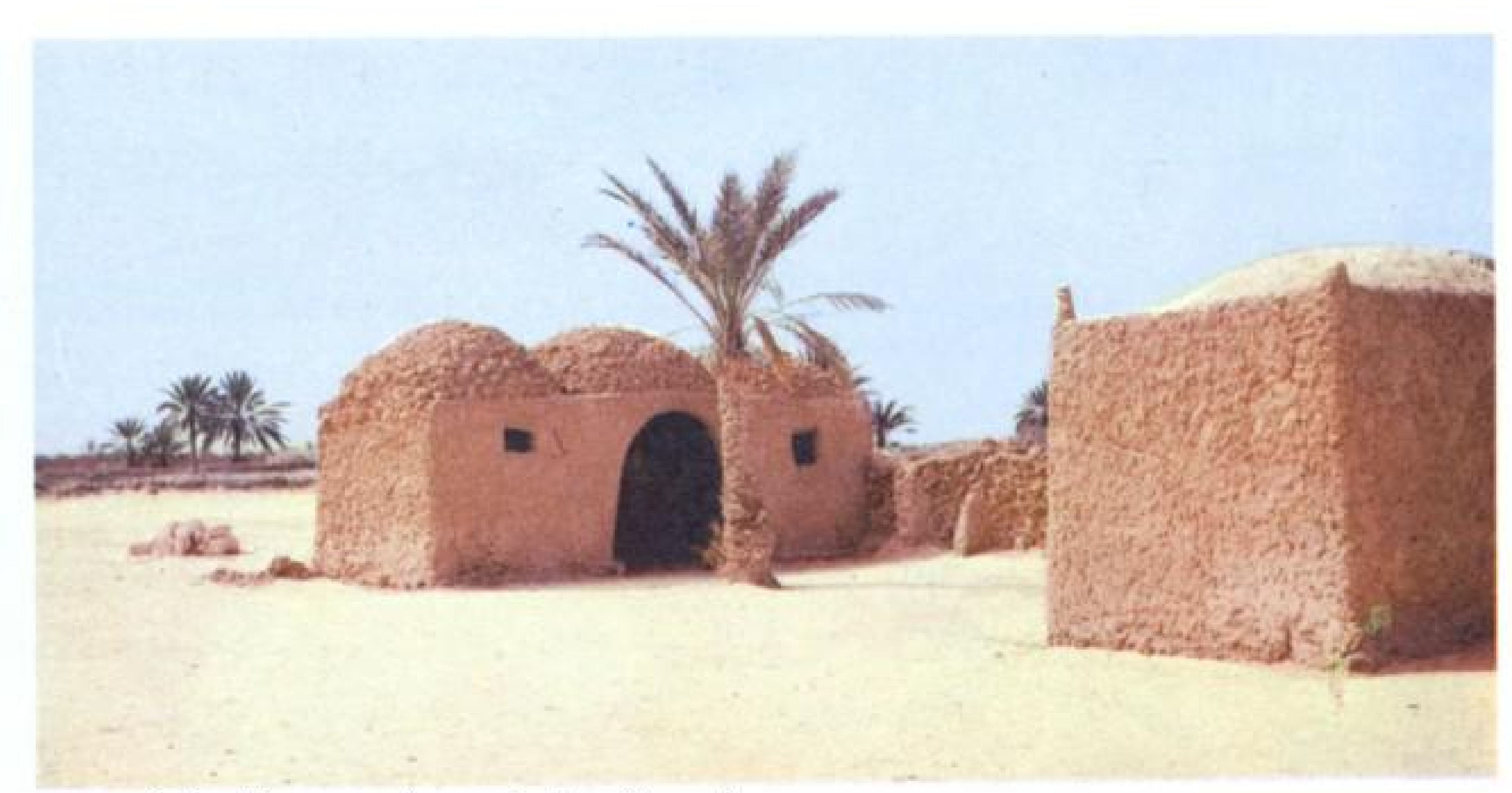
إن الميزاب البلد المتدين قد أولى مساجده عناية خاصة سواء من حيث عددها أو حجمها ذلك أن المساجد مثل المساكن لم يثقل كاهلها بالزخرفة . وهذا الزهد المعماري عائد إلى صعوبة الظروف المعاشية في الصحراء حيث كان هؤلاء السكان المتشددون في الدين يعتقدون أن مناجاة الاله لا تحتاج إلى أبهة وفخامة . إن مساجد المدن مقرونة كلها بمدرسة وتوابعها . ومعلوم أن



برج للحراسة في النخيل .

لكل مدينة مسجداً واحداً ما عدا العطاف أم المدن التي نجد بها مسجدين إثنين . وقد بنيت هذه المساجد بنفس الأسلوب الذي إعتمد في بناء المساكن . فكلما تعذر استعمال القوس بسبب نقصان الأخواص استعملت أعجاز النخل على الأبواب إن خشبات القاعات الكبرى مرتكزة على أعمدة مصففة أما الأحذية فقد خصصت لها كوات غير نافذة . وهذه المساجد البعيدة عن ضوضاء الأسواق يسودها جو من الطمأنينة والخشوع . أما في الفترات التى تشتد فيها الحرارة تتم الصلاة في الأفنية والسطوح .

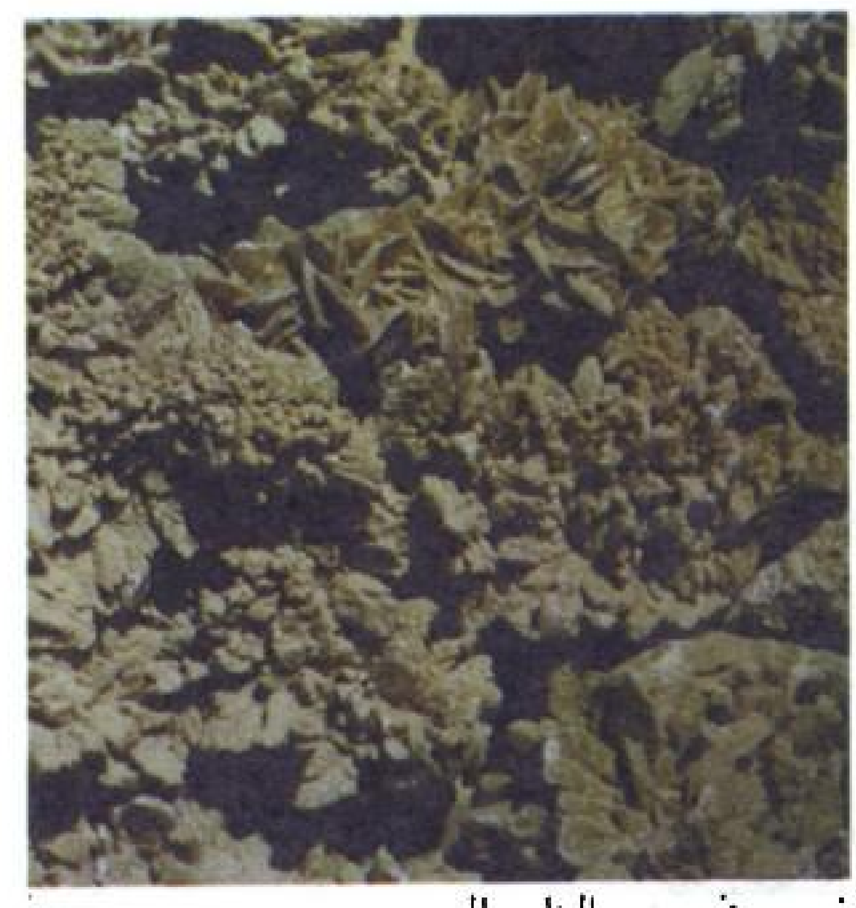
وإذا كانت المدينة لا تشتمل إلا على مسجد واحد فان المقابر والواحات تضم عدة مساجد لا صومعة لها يتردد عليها من لبس الحداد والعاملون بالقرب منها . وهي مساجد صغيرة حيث لا تجتمع فيها إلا جماعات قليلة وهي في غاية من البساطة والتنوع في آن واحد . ولقد أصبحت قياسات هذه المساجد في نسبة يمكن معها إستعمال ذلك القوس الخوصى الذي يساوي قوس المنازل



↑ خلية بدار في سوف . وحولها خلايا أخرى تحوم بالحوش .
المسكن يكون كاملا .



زهرة رملية .



في سوف يتم البناء بالزهور . . .

من حيث سلمه . أما جدرانها المدهونة بالكلس الأبيض والملبسة بالتمشمت (جبس الصحراء يتميز بسرعة تصلبه) فلا توجد فيها زوايا حادة . والنور فيها ساطع حيث تنفتح على واجهة بأكملها إلى جانب الظلال والأنوار التي تنعكس على الأرض بين الأعمدة فتضفي على القاعة لوناً مريحاً . أضف إلى ذلك الكوات المنقوشة داخل الجدران والشبابيك الصغيرة المطلة على سماء أزرق . فهذا الجو يدعو إلى التأمل وإلى الانقطاع عن العالم . إن الانسان يشعر بداخل هذه المساجد بأنس وألفة منقطعي النظير وسط الطبيعة المحيطة التي تكون معها جسماً واحداً متناسقاً .

وهذه المساجد بلغت صفة الكمال بفضل الروح التصوفية التي كانت تحدو بناتها .

وهكذا نفهم جيداً لماذا يعود الأباضيون المغتربون إلى مسقط رأسهم ليقضوا به آخر أيامهم . وفي هذا الجو البسيط تميل نفس الانسان إلى التعبد والتصوف دون ما صراع داخلي فتغمرها الطمأنينة والسكينة . إن أضرحة الأباضيين متشابهة كلها ومجهولة إلا أن قبور الرجال يوضع عليها حجران وقبور النساء ثلاثة أحجار . أما قبور المشائخ ـ الذين هم في آن واحد رؤساء قبائل وحجة في العلم والفقه ـ فانها تستثني من هذه القاعدة التقشفية حيث يترك فيها العنان للشاعرية والتفنن . فقبور المشائخ عبارة عن نحاتة كبرى تجريدية تتميز بتعقفاتها المنسجمة وقممها المرتفعة التي تتلائم التئاماً كلياً ومناظر الجهة كلها .

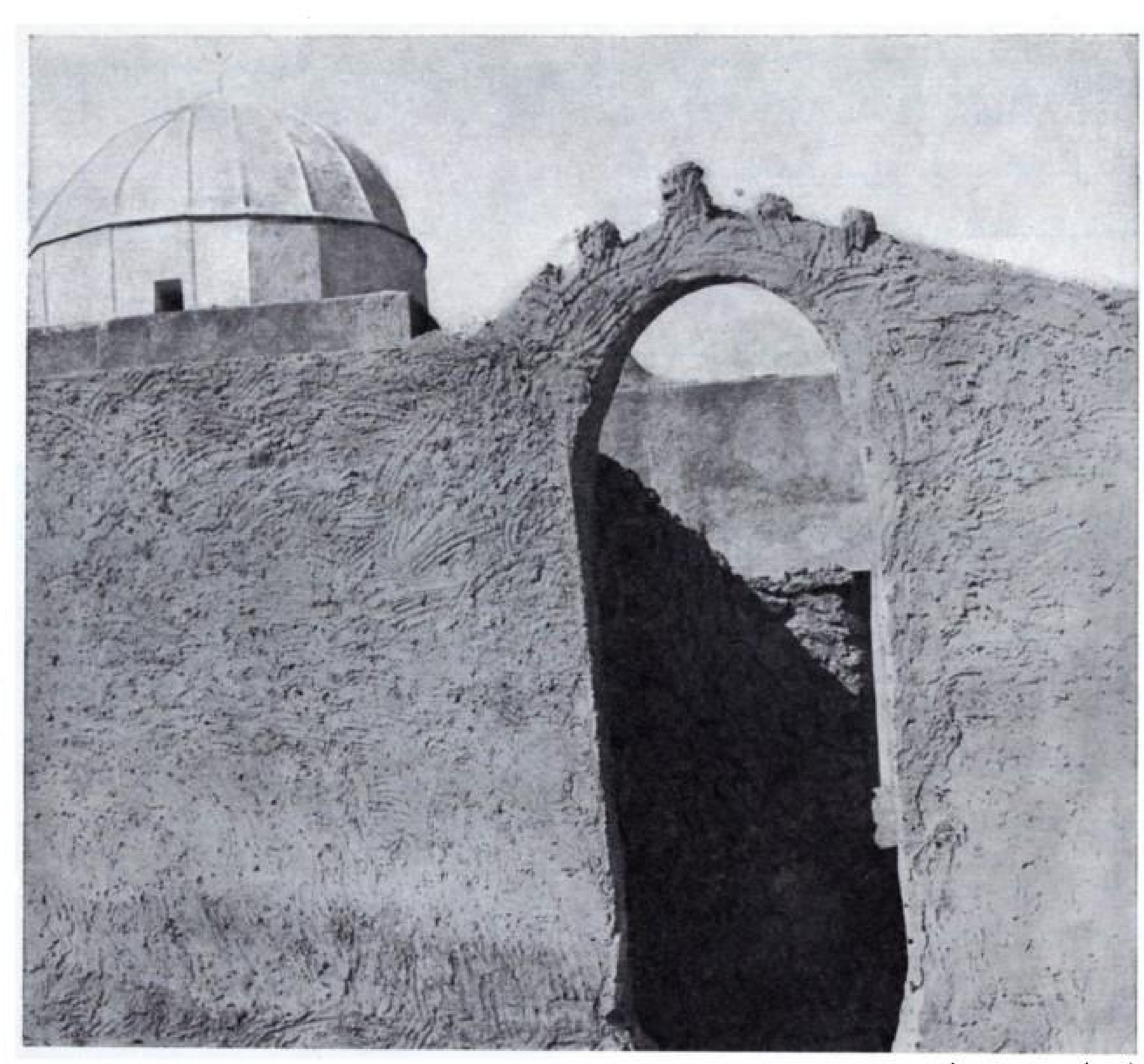
لقد زار منطقة المزاب عدد كبير من المهندسين المعماريين الأوربيين مثل المهندس المعماري « لوكوربيزي » الذي كتب عن المزاب صفحات خالدة (1) . وكانوا كلما يزورونها يكتشفون روائع جديدة من الفن المعماري القديم والفن الانساني النابضين بالحياة وهو فن لا زال دائماً وأبداً يحتفظ بقيمته التاريخية والتعليمية .

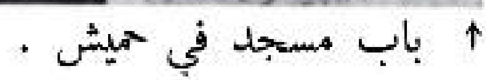
وفي وادي السوف تستعمل مادة « اللوز » أداة للبناء . إن منطقة الوادي تحتل جغرافياً شمال العرق الشرقي الأكبر وهي منطقة تمتد عليها الكثبان على مدى البصر فتخال رملها الذهبي أمواج بحر تتراقص وتنبت على هذه الكثبان هنا وهناك بعض الاعشاب الجافة . وللرياح أهمية كبرى في حياة هذه المنطقة حيث تحول الكثبان من مكانها وتنسف « سيفها » (قممها) فترتفع الرمال براقة في السماء ، ويعتبر « البحري » أو الريح الشرقية من أعنف الرياح من حيث الخسائر التي تلحقها فهي عبارة عن فيضان بالنسبة للمناطق الأخرى . لذا فان صناعة الرجال في هذا البلد تبتديء بالبحث عن المياه والوقاية من الشمس والرياح .

---

(1) نشرت هذه النصوص في المجلة الفرنسية « تصاميم » لسنة 1931

وفي وادي السوف يتم البـنـاء بما يسمى « باللوز » والغريب في الأمر ان هذه المادة البنائية تتولد عن هذه الرياح العنيفة نفسها . وهذه المادة عبـارة عن تخثر جبسي مختلـف الأشكـال تسمى محلياً « باللوز » ويسميها الأجانب « بوردة الرمال » إن مساكن أهل وادي سوف لجميلة المنظر بقبابها وتعتبر هنـدستهـا المعمـاريـة من أعجب الفنـون المعمارية في الجزائر وأكـثرها أصالة . ولكن لا بد من الوقوف قليلا عند دراسة القريـة السوفيـة لنفهم فنها المعماري .





↑ باب مسجد في حميش .

ساحة .

ولقد نتساءل كيف أمكن للانسان أن تراوده فكرة الاقامة بهذه البقاع الصعبة . إننا لا نعرف اليوم بالضبط تاريخ إقامة الانسان في السوف ولكن يعود أصل بعض المساجد إلى القرن الخامس أو السادس عشر مسيحي والمفروض أن هذه البقاع كانت ملجأ مأموناً لسكان مغتربين وقبائل مسالمة . وبلاد سوف البعيدة عن كل المواصلات والتي تحميها حرارة الشمس وقساوة العواصف الرملية كانت تستقبل الرجال الأحرار من المقيمين أو الراغبين في ذلك ومن أشباه الرحل . وهؤلاء السكان الذين لم يملكوا عبيداً أبداً قد واجهوا قساوة المناخ ومشاق الحياة بروح من المساواة لا نظير لها . ولولا هذا التضامن الانساني الفعال لما استطاعوا أن يستقروا بهذه البقاع وأن يواجهوا مناخها الشاق . وهكذا كان الانسان إذا ما أراد أن يحفر غوطاً أو يبني بيتاً يستعين بسواعد جيرانه وهم لا يتلقون عن ذلك أجراً ما عدا الغذاء .

والواقع أن المياه موجودة على عمق قليل في جيوف القمم الصخرية التي تمتد عليها هذه المساحات الرملية الكبرى . وعوض أن يستقوا هذه المياه عن طريق الري فضلوا أن ينقلوا إليها

قرية سوف



جامع

الأشجار والنخيل تمتصها من الأعماق حيث تركد وذلك خشية امتصاصها من الرمال لو أخرجت إلى السطح . وهكذا ينجمع النخيل بين كثيبين في جوف اصطناعي . وهذا الجوف المستدير أو الاهليلجي الشكل هو ما يسمى « بالغوط » (أو العمق) ويقوم الانسان نفسه بصيانة هذا الغوط وبتفريغه من الرمل عدة مرات في السنة سواء بمناسبة غرس نخيل جديد أو تسميد القديم منه . ولوقاية الغوط توضع على محيطه حواجز قصبية أو من « ورود الرمال » . وتوجد داخل هذه الأجواف حفرة لكل نخلة حيث تمتد عروقها رأساً في رطوبة الرمال . ففي وادي سوف لا وجود لعملية الري بل هناك عملية تفريغ الرمال .

إن سكان وادي سوف لهم مثل سكان المزاب رحلتان : رحلة الشتاء المتمثلة في الاقامة بالقرية ورحلة الصيف المتمثلة في الاقامة بالحدائق قصد رقابتها وزرعها ومعالجة المزروعات . وفي ظلال النخيل أمكن غرس الخضر وحتى غرس التبغ غير أن زراعته صعبة وحساسة جداً . والملاحظ أنه لا يمكن أن نعتبر هاتين الرحلتين هجرة كما هو الحال في الميزاب حيث أنهما غير منتظمتين .

فقلما يضطر السكان عند ما يغادرون قريتهم إلى تعيين حارس بلدي مقابل أجر . وفي بعض القرى الأخرى فان الرجال هم الذين يرتحلون إلى الحدائق تاركين أهلهم من ورائهم .

وليس هناك وحدة في أسلوب الحياة . فسكان وادي سوف من أصل متعدد وإن كانوا مسالمين فانهم يسوون مشاكلهم الداخلية حسب قضائهم الخاص . إن إقامة القبائل الجديدة تتم بالتراضي وكل قرية تحتفظ بعاداتها وتقاليدها مع إحترامها لعادات وتقاليد جيرانها . ففي عاصمة الوادي مثلا لا تخرج النساء إلا محجبات بينما



بنايات حديثة في الواد .

في الضيعات المجاورة يستطيع الخطيب أن يرافق خطيبته إلى حيث تستقي وأن يكلمها بكل حرية .

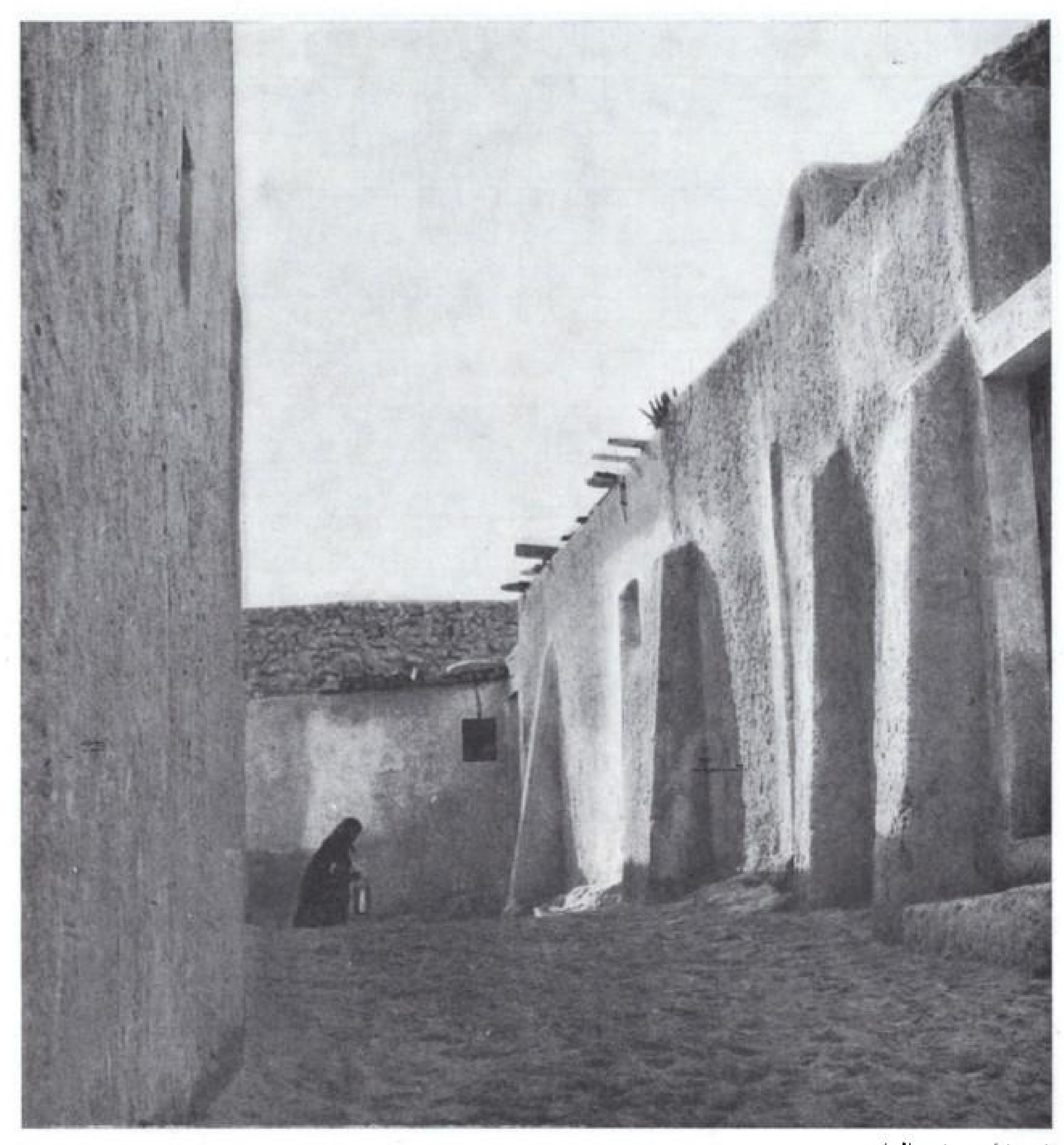
والمشكل الرئيسي بالنسبة لوادي سوف لا زال يتمثل في الماء والرمل . وحتى إذا كان الماء في متناول الانسان فقد لا يكون صالحاً للشرب



شارع في الواد .

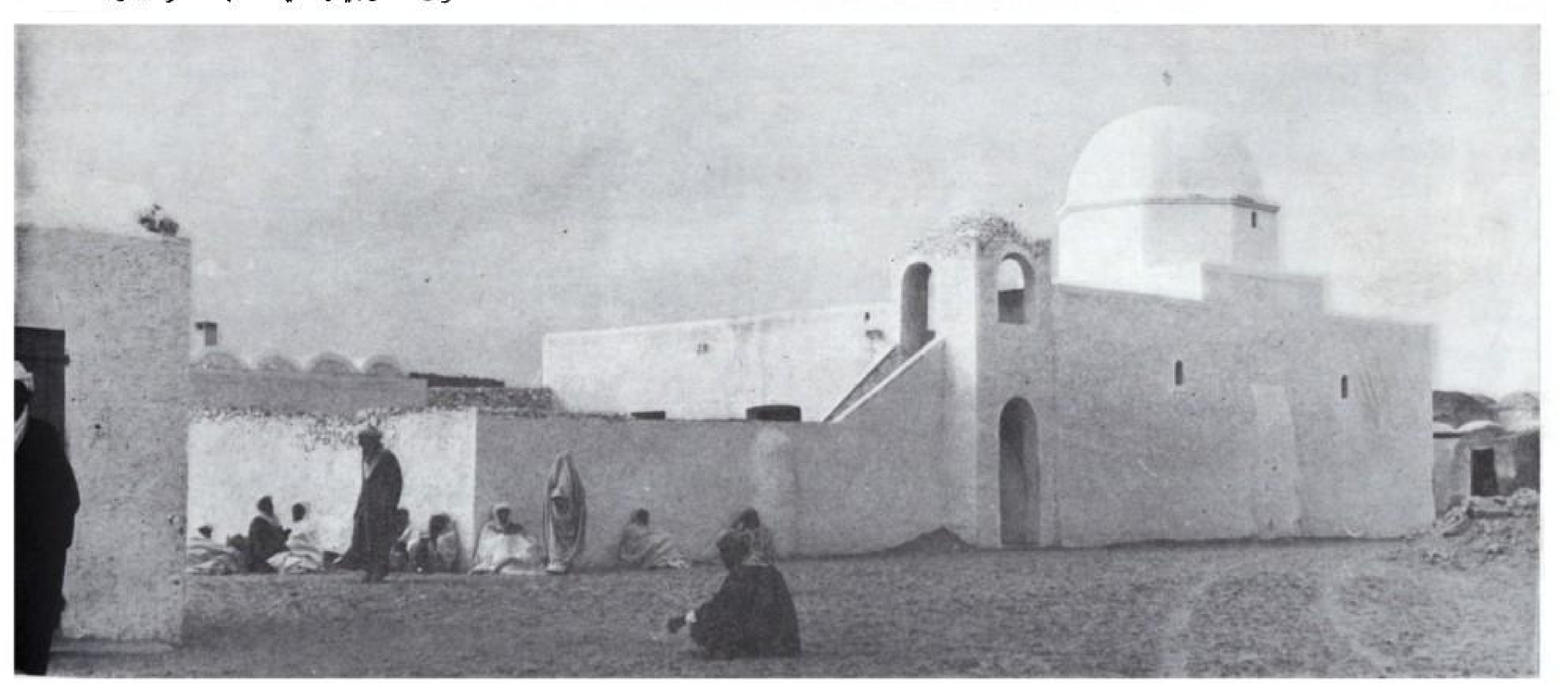
وحتى للري نظراً لما يحتوي عليه من ملح . أن الشطوط المالحة والبحيرات الصحراوية التي نجد منها الكثير في وادي سوف تمتد أحياناً في باطن الرمال فتأتي على الحدائق وترغم على إنتقال قرى بأكملها . وبالرغم من هذا يمكن القول بأن قرى سوف على غرار القرى الزراعية بنيت دون تصميم معماري مسبق . وهي خلافاً لكل قرى الصحراء الجزائرية ليس لها حصون ذلك أن حصنها الحصين الطبيعي يتمثل في الظمأ . ولقد أسست هذه القرى أول الأمر من رب عائلة فتكونت نواة من بعض المساكن ثم تطورت وانتظمت بطبيعة الحال وبعد جيلين أو ثلاثة من الاقامة بهذه البقاع دعت الحاجة إلى بناء مسجد تقام فيه الصلاة وتسوى فيه المشاكل بعد أن أصبحت لها صبغة بلدية .

بيد أن القرى السوفية ليست عبارة عن منازل ملتحمة بعضها ببعض وتفرق بينها المسالك . فالأنهج



↑ شارع في الواد .

وحدة البناء أكيدة . ولكن لا تتشبه إحداها الأخرى ، وجميعها فياضة بالسحر والروعة .

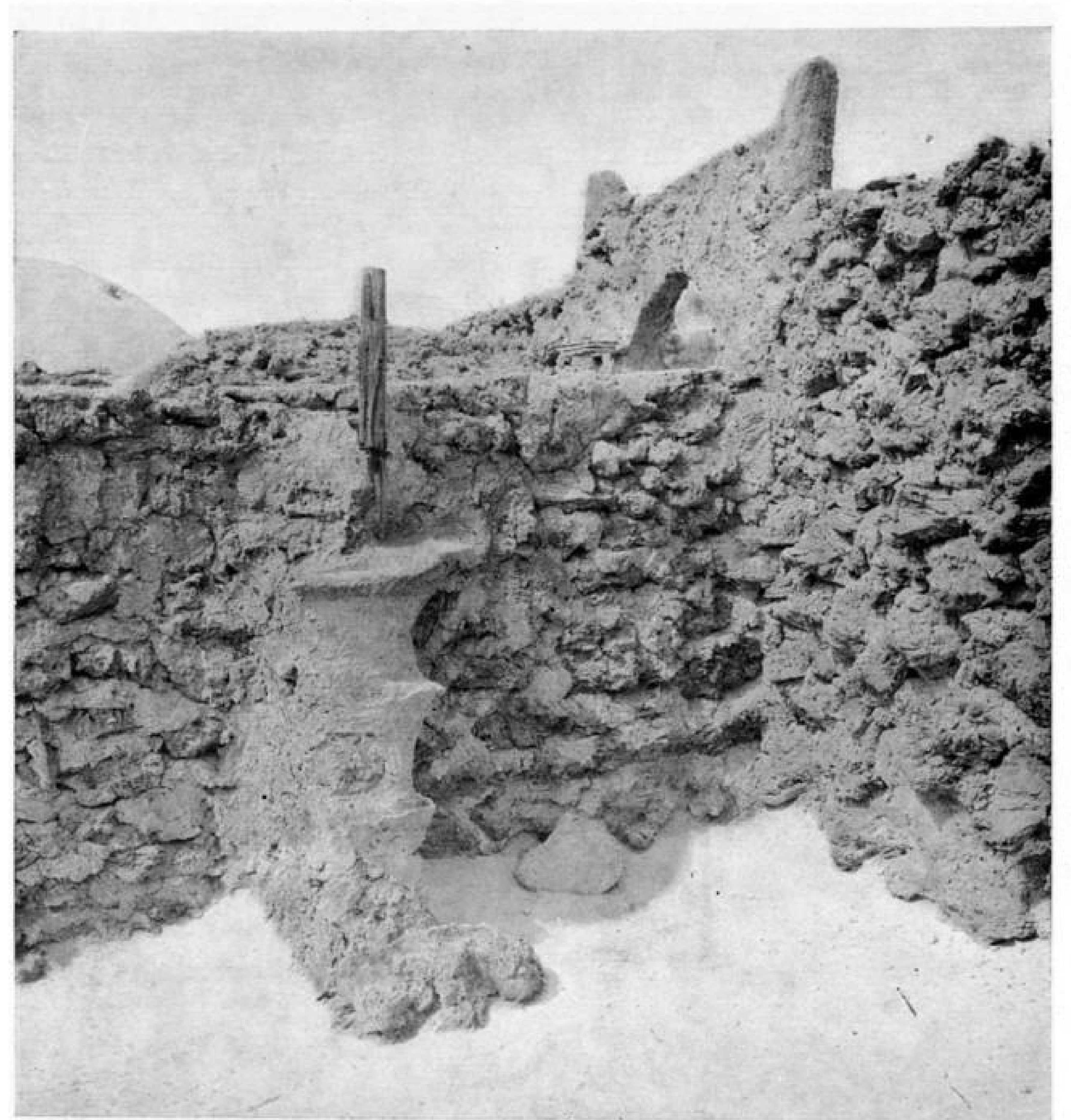


↓ جامع سوف .

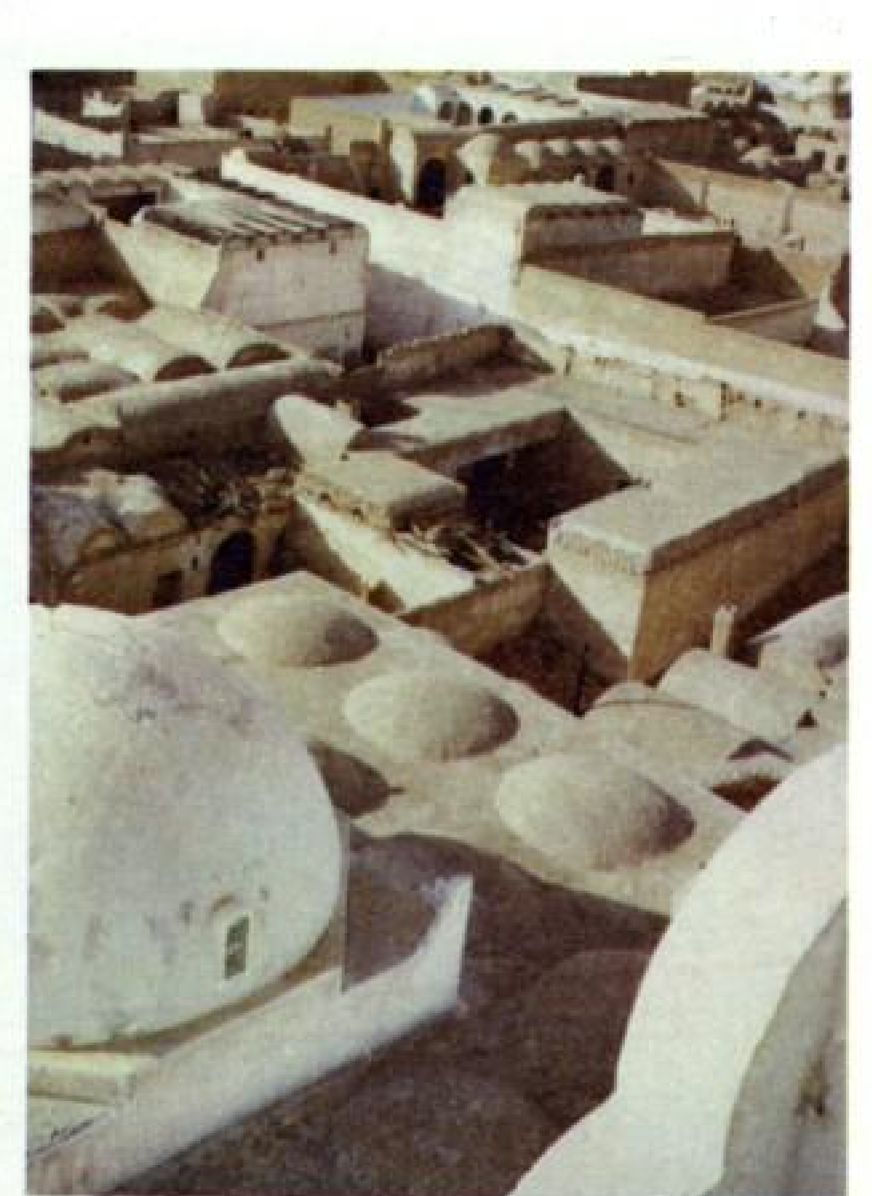
مرسومة وموجهة . وفي الجهة الجنوبية أعد السوق لتسهيل المبادلات . أما المنازل فهي متجمعة في الجهة الشمالية وتؤدي إلى كل منزل منها أزقة غير نافذة .

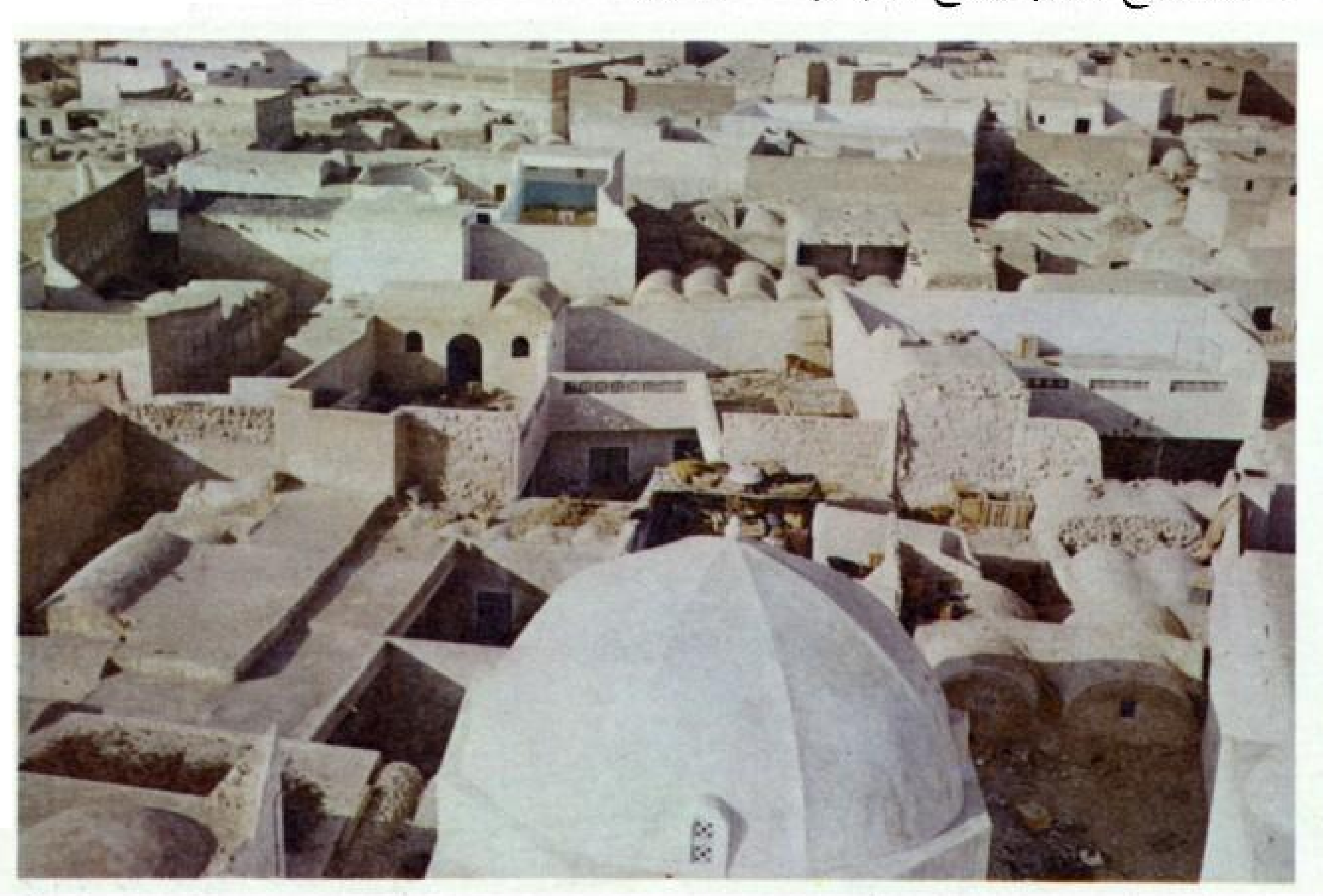
وتقوم هذه المنازل كما هو الحال بالنسبة لجميع المساكن الجزائرية تقوم حول فناء مشترك . وكل الحجرات مبنية على نمط واحد تعلوها قبتان أو ثلاث قباب أو في بعض الأحيان صفوف من القباب تشكل حجرة طويلة كما تقتضية العادة . وعلى إحدى واجهات الفناء تصطف البيوت الخاصة بالعائلة بينما تخصص واجهة أخرى للمونة وغالباً ما يوجد في مقدمتها رواق مغطى متوج دوماً بقباب على غرار مساكن المزاب. وهذا الرواق يقي النساء العاملات من حرارة الشمس . ويستعمل كذلك قاعة للطعام . أما الحجرات المخصصة للدواب فانها تحتل واجهة الفناء الثالثة أو قسماً منها . ويحصل أحياناً أن تخصص واجهتان لحجرات المونة والدواب وعندئذ يصبح الفناء داخلياً يؤدي إليه مدخلا ضيقاً يسمى بالسقيفة .

ويمكن أن نندهش لتحفة القباب النصف الدائرية ولانتظامها بالنسبة لكل مسكن . وهي وإن كان حجمها نسبياً ليست بالكبر الذي يفرضه الخوص المقوس . إن سر هذه القباب لمن البساطة العجيبة . فالبناء أو صاحب البيت المزمع بناؤه يغرس نصباً عمودياً في محور المكان الذي ستبنى فيه القبة ثم يعقد بهذا النصب حبلا من طول



↑ هذا الدرج العجيب يصلح كممر من ساحة لأخرى .



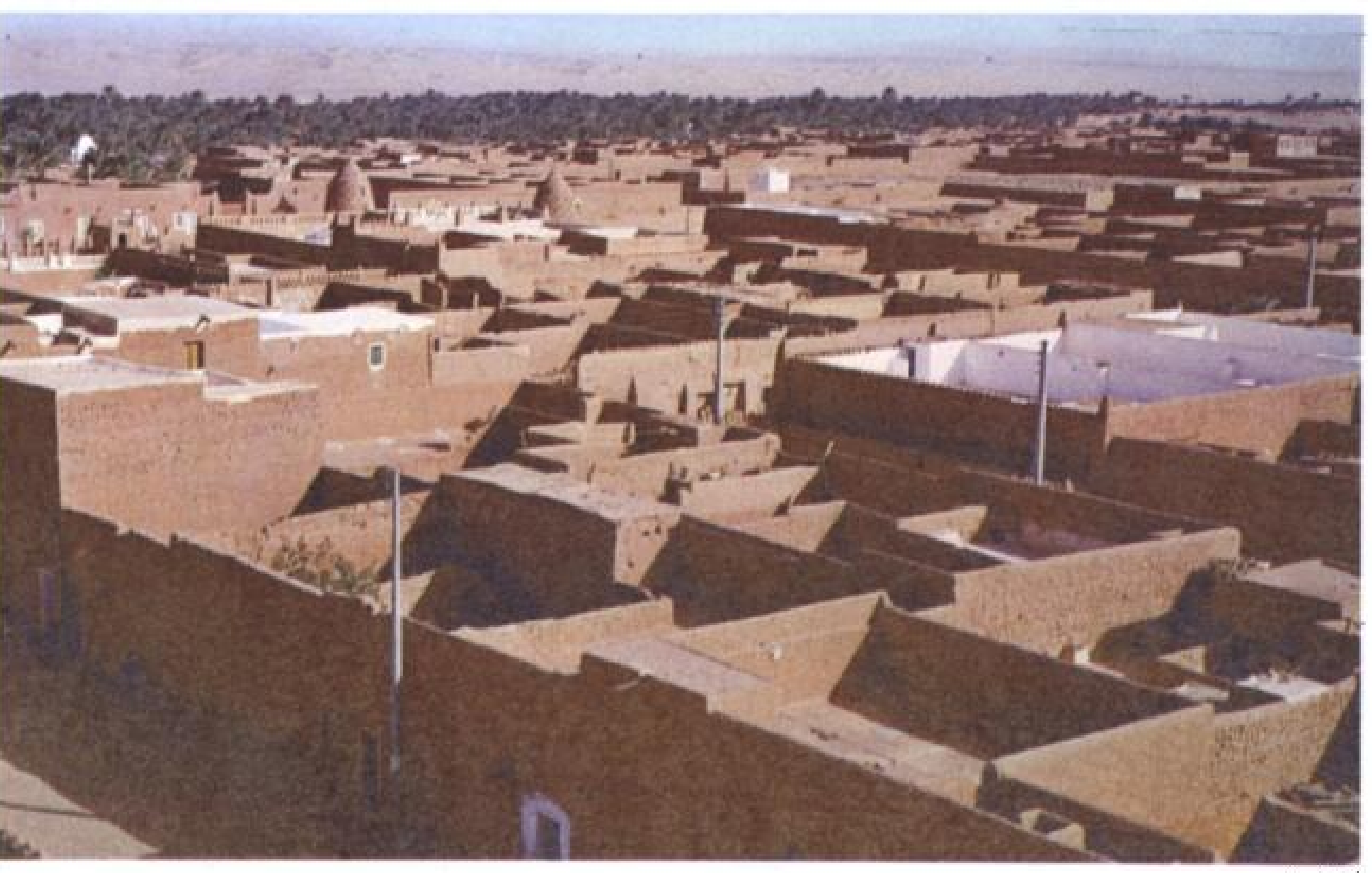


← منظران للواد .

صفان طويلان من القبب بارتفاعات مختلفة . هذا أيضاً جامع في الواد . صفاء في البناء وبساطة لا تبعد أبداً المعرفة والعلمية ، حيث به قبة من الطابع التركي .
هنا أيضاً تترأس البساطة .

شعاع الدائرة ويشرع في رسم الدوائر « بورود الرمال » بيد ، وبيده الأخرى يلحمها بملاط الجبس . وبناء السقوف النصف الاسطوانية يتم بنفس الأسلوب مع الفارق الوحيد وهو غرس النصف أفقياً على مسافة متساوية بالنسبة للجدران .

وحسب الأذواق والوسائل تدهن الجدران والسقوف والقباب أم لا وقد يطلى هذا الدهن باليد حيث نرى مثلا آثار الأصابع في جدران المزاب . وتتمثل مرافق الحجرات في الأثاث المبنى كالكوات والرفوف . وتوجد في الأفنية « مشواة » تعلوها مداخن متنوعة الأشكال منها



القرارة

المستدير والمخروط وبها فتحات مثلثة أو مربعة وتنتهي في أعلاها بحنية ذات أقواس .

ولقد احتفظت القرى السوفية بوحدة عجيبة فالمساجد فيها زاهية متنوعة لا زينة عليها سوى هيكلها الطبيعي . وهي مساجد ممتدة ، بها قبيبات مصطفة تخفي من تحتها الأعمدة الكثيرة وبها أيضاً قباب كبرى بنيت على النمط التركي . وهي بملامحها الظريفة تذكر بتلك الكنائس الأرتودوكسية اللطيفة الموجودة في جزر اليونان .

ومعجزة « سوف » تتمثل في أن الفن المعماري المقبول لا يبحث عنه في المباني القديمة والمهلهلة أو في المساجد الغابرة في القديم لأن الكل يحسن البناء في هذه المنطقة وكل رجل بمثابة مهندس معماري .

إن منطقة « القرارة » الموجودة في جنوب الصحراء الجزائرية لم تصبح وحدة جغرافية إلا بفضل الانسان والمناخ . وهي تشتمل على القسم الجنوبي من العرق الغربي الأكبر الذي تمتد رماله هنا وهناك في كامل المنطقة . وحيث لا توجد الرمال تقوم الهضاب ذات الحجر الرملي فتحيط بارتفاعها (من 60 إلى 70 م) ما يسمى « بالسبخة » . والسبخة معناها الأرض المالحة . والواقع أن سطح السبخة لا يصلح لزراعة أخرى غير زراعة النخيل .

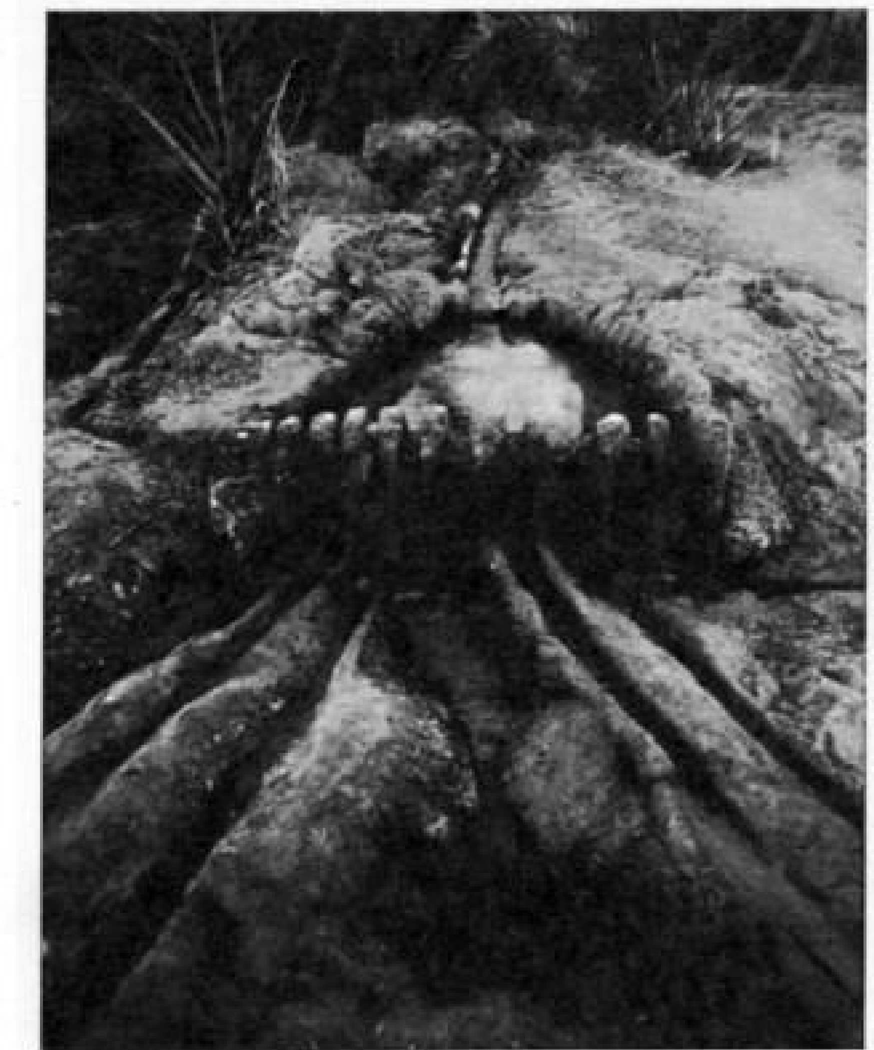
ويوجد بالقرارة ما يسمى بالوديان وليس المقصود هنا بالأنهار . فالوادي عبارة عن منطقة نباتية ويحيط القرارة شرقاً « عرق مقيدن » وهو سهل رملي وصواني ويحيطها غرباً « الحمادة » وهي الأخرى صحراء حجرية لا نبات فيها . وتمتد سبخة « تيميمون » الكبرى إلى الجنوب بسبخاتها الصغيرة وكأنها أغصان شجرة أو روافد نهر كبير .

وقد جاء في النصوص القديمة أن السبخة كانت عبارة عن نهر ضخم تتدفق مياهه الجارية على مسافة عشرة أيام مشياً على الأقدام » . إلى درجة تستطيع البواخر الكبرى عبوره . والواقع أن العنصر الهام بالنسبة إلينا في هذه الصحراء هو عنصر خفي ونقصد به الماء . هذا العنصر الذي يكد من أجله الانسان كل الكد .

إن الجهة السفلى لسبخة « تيميمون » توجد على إرتفاع 192 م . ويوجد النخيل في السبخات وفي « العروق » مسند على الكثبان . وقد غرس النخيل على هذا النحو بسبب المياه والرياح .

فالماء هنا باطني يوجد تحت طبقتين من الرمل والملح وطبقة خزفية . أما نسبة الأمطار فهي من درجة 15 مم سنوياً والمياه الباطنية تجمع بطريقتين مختلفتين تارة ومتكاملتين تارة أخرى . وهما الآبار و « الفغارة » . ولابد من التوقف عند هاتين الطريقتين « لأن الفن المعماري موجود في

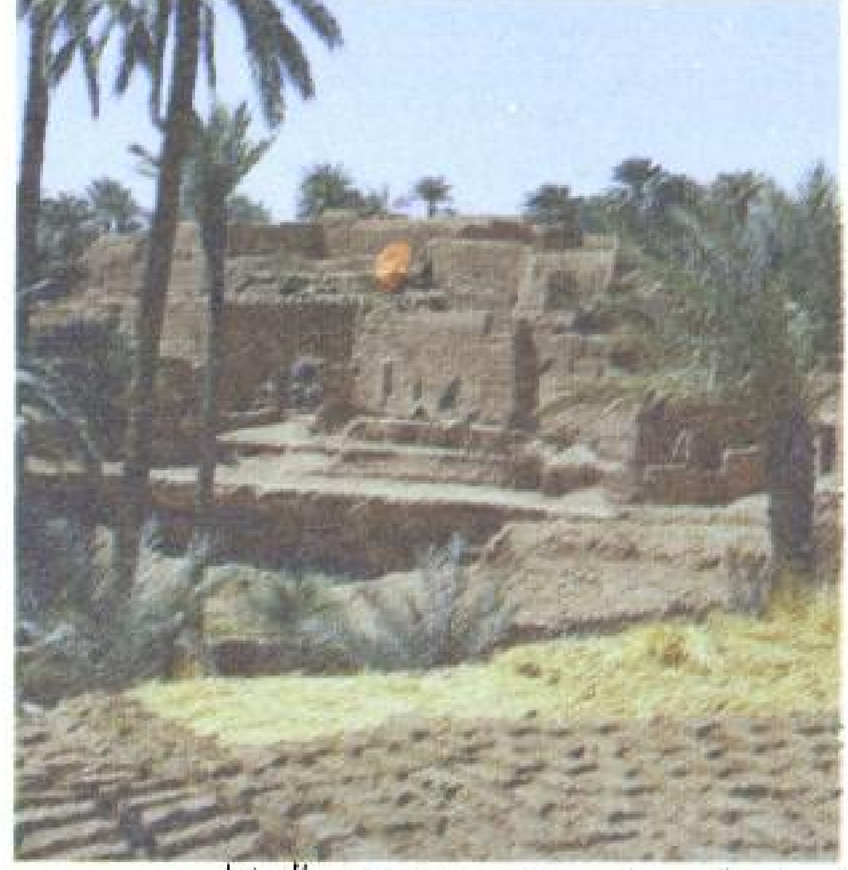




مشط

كل شيء » في هذه الناحية ، على حد تعبير مهندس معماري دولي . ففي « القرارة » تصبح الطبيعة نفسها عمراناً باعتبار أن الانسان هو الذي يثيرها . وتعتبر الفغارة وسيلة حاذقة للري عن طريق المنحدرات الطبيعية . والهدف منها هو تجنب عناء حفر الآبار . وهكذا تقام البساتين في منخفضات السبخة أو في حفر كبيرة تأتي إليها المياه الباطنية عن طريق مجاري منحدرة . وهذه المجاري باطنية حفرت على طولها آبار عمودية تستعمل لتصفية الفغارة عند المواسم الفلاحية . وفي مصب « الفغارة » وضعت مدراة لتوزيع المياه على المجري العميقة والضيقة . وتأتي هذه المجاري بالمياه إلى أصول النخيل وإلى ما يزرع في ظلالها . لذا تتمثل شخصية هذه الواحات في كل العناصر التي تتكون منها « الفغارة » من مجاري ومدراة . وأحياناً تنفذ المياه الباطنية وللبحث عنها يلجأ إلى تمديد حفر « الفغارة » والزيادة في إنحدارها فتنساب المياه بعيدة عن الزراعات وعندئذ تحفر الآبار لاستخراجها . وأحياناً أخرى يستحيل إعادة الري إلى نظامه فيضطر السكان إلى

الدرج الخارجي عن الدار يؤدي إلى القسم من السطح المخصص للضيوف .



في ضواحي تيميمون بيوت من النخيل .

التنقل إلى جهات أرحم . وترجع أسباب هذا التنقل والهجرة أحياناً أخرى إلى عواقب صناعة الرجال أنفسهم المتمثلة في اكتساح الكثبان .

وتتسبب في هذا الاكتساح الرياح العنيفة التي تهب طوال السنة من الشرق والشمال الشرقي . ولحماية نخيله من الترميل ـ لا سيما وأنها مغروسة في حفر أو في منحدرات ـ يقوم الانسان باحاطة بستانه بحاجز من الأخواص .

ونحن نعلم أنه كلما اعترض الرياح الرملية عائق إلا وتكدست الرمال بجانبه فتكون كثيباً وهكذا يتصاعد هذا الكثب في اتجاه شمال الشمال الشرقي فيصبح بدوره حاجزاً حامياً للنخيل ومغيراً في نفس الوقت لوجه المنظر الطبيعي للناحية . ولكن مع مرور الزمان يصبح هذا الكثيب يهدد البستان بالاختناق بحكم ثقل قاعدته . إن الانسان في القرارة في تنقل مستمر بحكم الأشياء وبحكم صناعته نفسها مثله مثل الطبيعة وذلك بالرغم من جهوده وحذاقته .



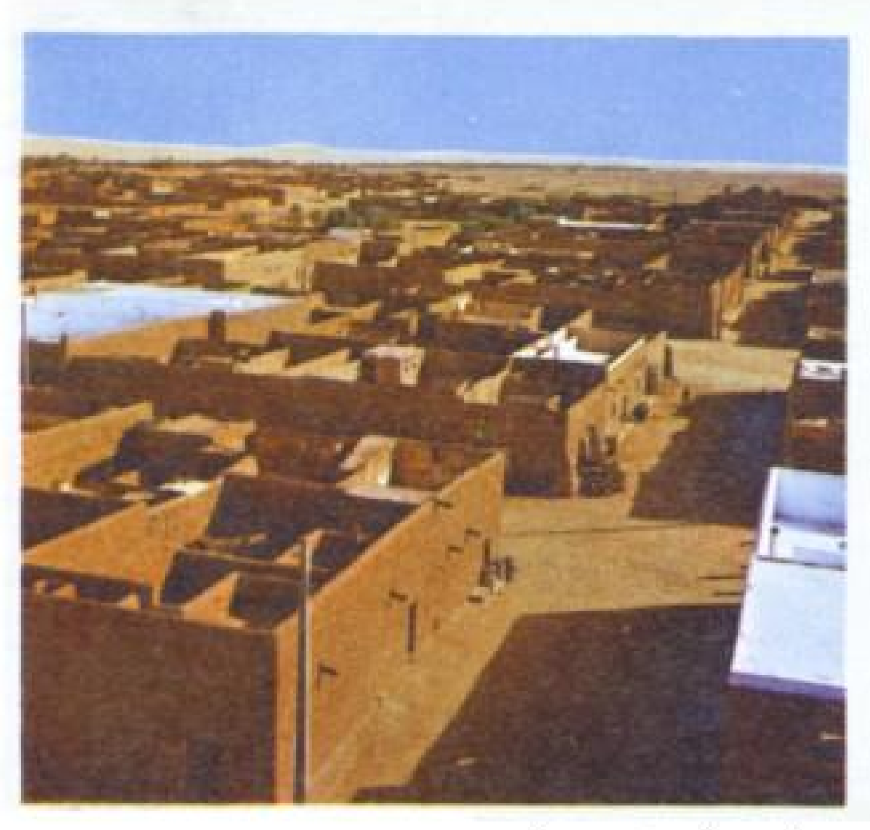
قرية السبخة .



قرية السبخة .

ومعلوم أن هذه التحويلات بطيئة غير أن الانسان ممزوج بهذه التيارات القوية فيشعر بعدم الاستقرار ومن ثم التنازل عن كل مفاخرة وهذا ما نشاهده في زهد العمران الجزائري هذا الزهد الذي ليس نتيجة فقر وعوز .

إن مساكن « القرارة » ذات تصميم مستطيل وهي تحيط فناء داخلياً كما هو الشأن بالنسبة لكل المنازل الجزائرية . وتبلغ درجة الحرارة في هذه الجهة 59 وهذا ما يفسر بدون شك عدم وجود الأبواب بين البيوت وبينها وبين الفناء .



سطوح في تيميمون .

بل كل ما هنالك فجوات قوسية على جدارين صغيرين تذكر نوعاً ما بجسم الانسان . أما على ناحية الشارع فالباب موجود وهو جزء من « السقيفة » التي جعلت لحجب البيوت عن الأنظار . فالحجرات طويلة وهذا ترتيب جميل رأيناه بعد في « ازدراتن » وفي قصبة العاصمة . ولكن إذا كان عرض الحجرات يتوقف على متانة أعجاز النخيل فليس هذا من قبيل الحصر . فاذا ما أراد أهل قرارة حجرات أكثر عرضاً وضعوا وسطها ركيزة قوية .

وفي سقف الحجرات أعدت فتحة ـ نظراً لانعدام الأبواب ـ تكفي لخلق التهوئة المطلوبة . أما المطبخ فهو موجود في الهواء الطلق وذلك لتفادي مشكل الدخان .



سقف رائع من النخيل .

أما التربة فهي ضرب من الترف الزهيد تجدد باستمرار . وهي تربة برتقالية اللون تمتاز برطوبتها . والسقوف تحمل سطوحاً يقام بها مساء ولا تشوب هذه الاقامة شائبة نظراً لانعدام الأمطار فالسطوح إذن عبارة عن مقام . وهناك حجرة الاستقبال وحجرات أخرى تفصل بينها قواعد مرتفعة كما هو الحال في الميزاب . وفي الفناء مدرج يؤدي إلى السطوح .

وفي القرى التي تحميها الكثبان تارة وتهددها أخرى نجد بين المنازل خاصية مشتركة وبلاد القبائل ألا وهي « الجماعة » أو بالأخرى دار الجماعة . وهي ساحة صغيرة يعلوها سقف أو طابق بها مقاعد للاجتماعات . وحتى الشوارع نفسها ضيقة وتربتها محفورة حفراً مائلا وعميقاً حتى تخالها قناة حفرتها المياه لولا أن أبواب المنازل تنفتح في مستوى منخفض جداً .

ونجد في القرارة أنواعاً شتى من القرى فهناك القرى المتبعثرة التي يوجد كل منزل منها بالقرب من بستانه (كل البساتين لها شكل متوازي الأضلاع أو شكل مستدير أو أهليلجي) والقرى المتجمعة حيث تشكل بساتينها حديقة كبرى قريبة منها . كما أن هناك نوعين من التنظيم لهذه القرى فالقديمة منها لها في قمتها « قصبة » مشتركة أو حصن لخزن الحبوب والمؤن وليس للقرى الأخرى هذا المخزن المشترك بل لكل دار مخزنها الخاص . والقصبة عبارة عن مدينة داخل المدينة باعتبار أن كل عائلة تملك فيها حجرة وهناك أفنية تؤدي إلى هذه الحجرات . وهذه القصبة



شارع صغير .

قصبة في القرارة



↑ حصن رق .

قصبة .

بعلوها وضخامتها تضفي على القرية مظهراً من مظاهر قرى القرون الوسطى .

وكما تدل الصور على ذلك فان هناك فرقاً مفيداً بين الفنون المعمارية الصحراوية مثل القرارة ووادي سوف والمزاب .

إن فن تميمنت يعتبر تقريباً نموذجاً لهذه الفروق الخاصة بعمران الجنوب الجزائري حيث نجد ملامح من هذا الفن في كل من تاغيت (الساورة) وجانت (تقرت) . إن زهد المساكن وتقشفها لا يقلل من جمالها . وبصفة عامة فان ترتيب البيوت وتنظيمها شبيهان كل الشبه بما نجده في المنطقة كلها بالرغم عن اختلاف أدوات البناء (الحجر أو الطوب) وهذا ما يجعل من القرارة وحدة معمارية مع انفرادها بطريقتها الخاصة في الري . أما وادي السوف الذي له ظروف جغرافية مشابهة فانه قد تبنى طريقة القباب لتسقيف المنازل وفي هذا تكمن شخصيته اللطيفة غير أن السطوح لا تستعمل في سوف للاقامة كما هو الحال بالنسبة للقرارة والمزاب .

وهذه المنطقة الأخيرة صغيرة جداً من الناحية الجغرافية لكنها تتصف بمحاسن أكبر حيث أن كل مسكن فيها يتميز بعدد من التفاصيل الوظائفية يعود أصلها الفكري بعيداً في التاريخ .

إن القرارة التي يسكنها الزنات والعرب والجراطنة الذين استقروا بهذه الجهة في فترات معينة تفصل بينها عدة قرون تحتفظ بطابعها الخاص الأصيل .

إن منطقة الأوراس عبارة عن منطقة جبلية كبرى تبلغ مساحتها ألف كلم^2 وجبال الشلية (2.329م) من أعلى الجبال في الجزائر .



→ ملاط من وحي إفريقي في جامع تيميمون الكبير



درج يؤدي إلى مسكن .

والمـدن الكبرى التي تحد هذه المنطقـة هي خنقة سيدي ناجي وخنشلة وباتنة وبسكرة وأقرب المدن الكبرى في الشمال الشرقي هي مدينة قسنطينة .

ويقطع هذه الجبال واديان : وادي العبيد ووادي الأبيض وهما يجران معهما حياة حثيثة لا ترى من القرب أحيانـاً نظراً لعمق هضابهمـا . وما عدا هذان المسيلان تبدو الأوراس عبارة عن سلسلة من القمم تعلوها الثـلوج قسماً من فصل الشتـاء وتحيطهـا غابـات شجر الأرز . أمـا من الناحية الجنوبية فهو عبارة عن صحراء تمتد على مدى الأبصار بجبالها الجديدة باثارة اهتمام علماء طبقات الأرض والجغرافيا .

وهـذه المنطقـة التـي تتعرض لكـل أنـواع الانجراف لها شخصية قوية . فاذا ما نظرنا إليها

↑ القلعة ، تكاد لا تظهر ، تشتبه بالصخور ، وهي المركز الحصين في تيفلفل

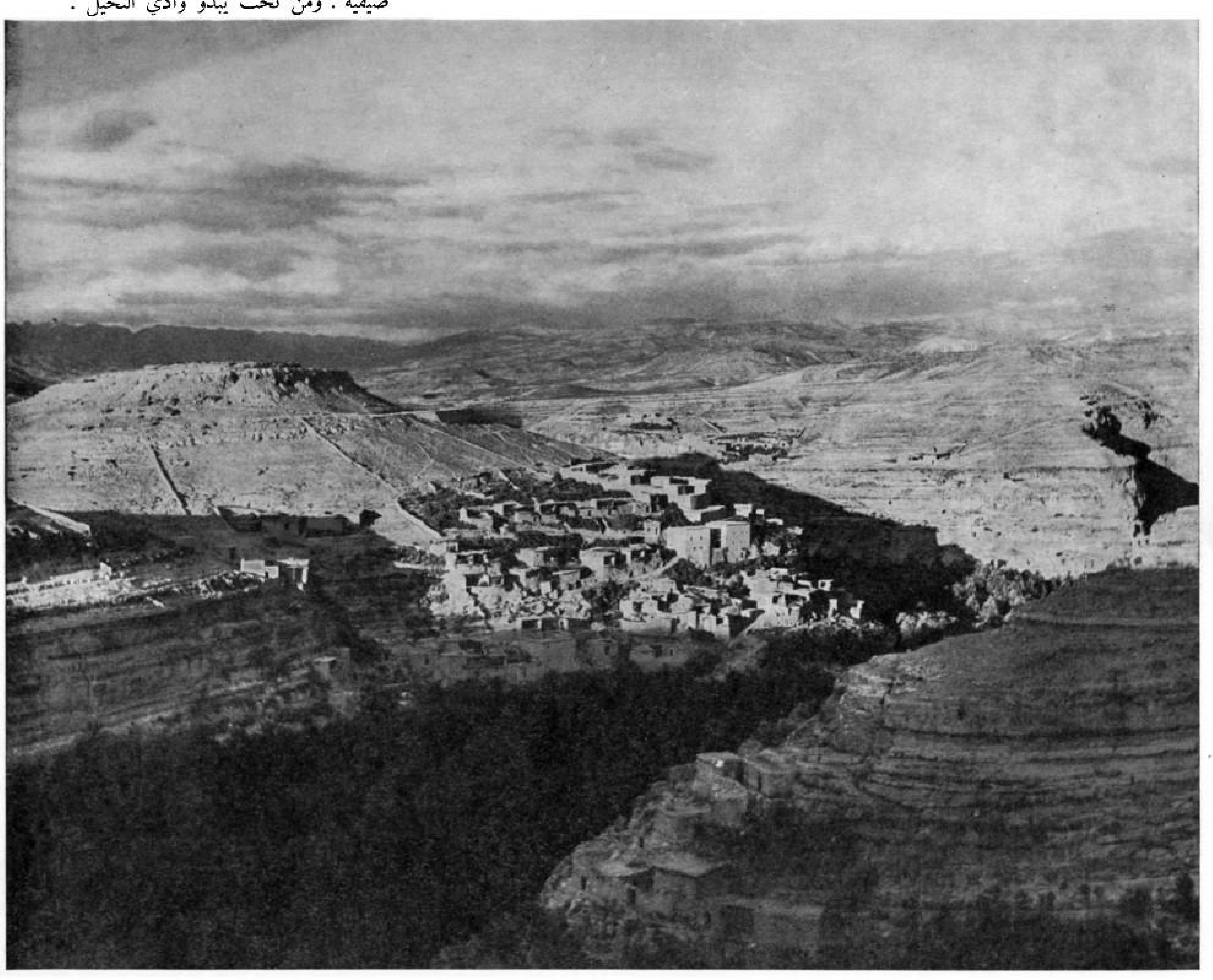


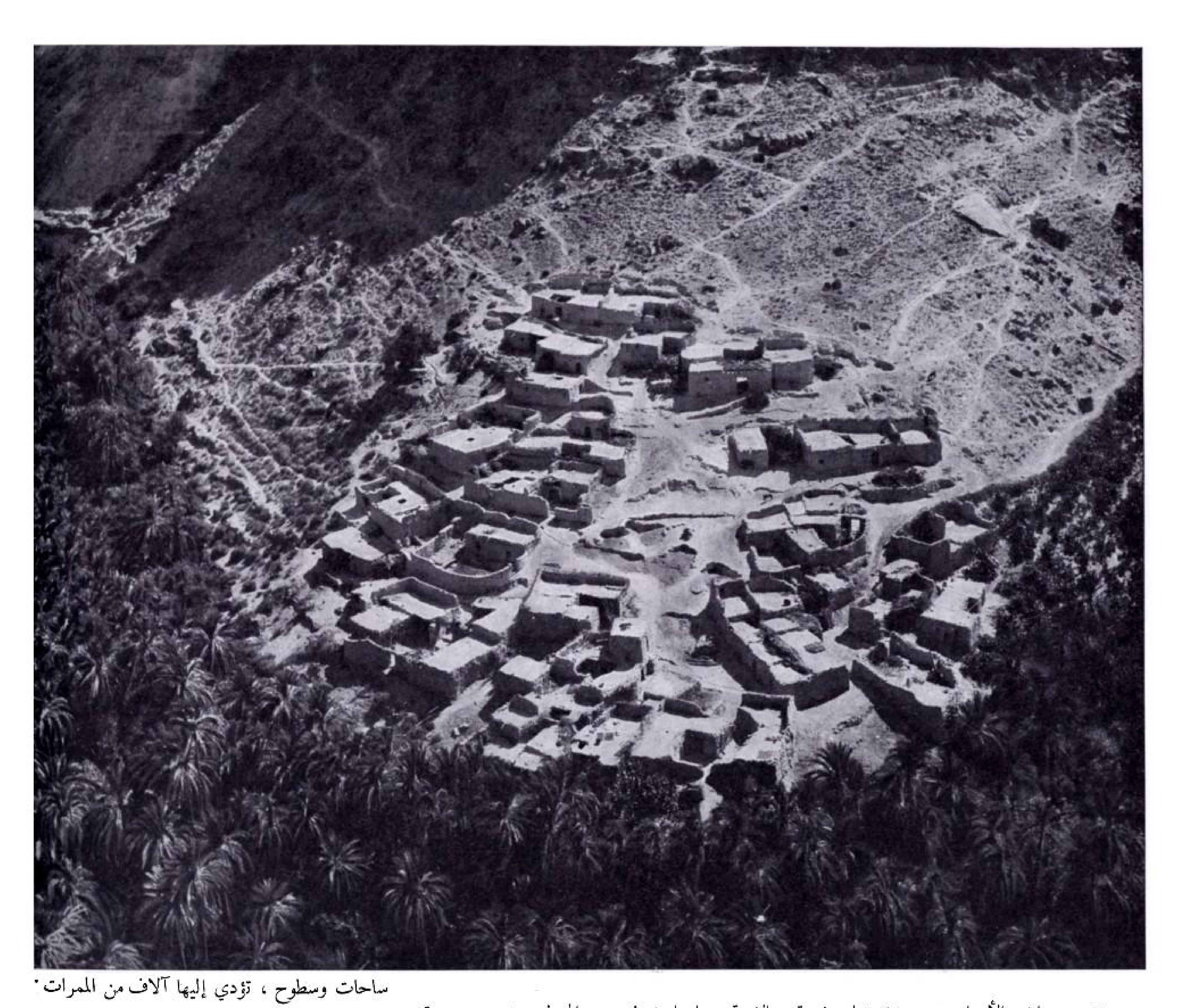
القادم من الجنوب توقفه مرتفعات الأوراس

من الهضاب الجنوبية تبدو وكأنها حاجز بنفسجي كبير حاد الانحدار لا نبات فيه . وإذا ما تقدمنا قليلا في هذه المسالك الصعبة المخيفة وجدنا انحداراً عمودياً توجد بقاعدته الحياة . وإذا واصلنا سيرنا في هذا الاتجاه وجدنا أنفسنا على حافة جبل وأمام منظر جديد : فعلى عمق 30 و 40 و 80 متراً نرى مجاري المياه الممزوجة بورود الدفلى تنساب بين النخيل وفي ظلال هذا النخيل تمتد البساتين . وفي جهة الوادي المقابلة يقوم جبل حاد الانحدار به مساكن تحسبها أوكار نسور لا تكاد تميزها من التربة حيث اتخذت لونها ومادتها .

لكن المفاجأة لم تنته فهذه أصوات الأطفال ترتفع من هذا الجبل الشامخ وإذا نظرنا تحت أقدامنا تبين لنا أننا فوق سطح منزل في أسفله فناء يؤدي إلى سطح آخر . فالقرية كلها معلقة في الجبل والمسالك الصعبة - التي تثير الرعب في قلب المرأة الحضرية - تؤدي إلى الوادي والبساتين ويسلكها الرجال والنساء والأطفال يومياً للالتحاق بمكان عملهم .

من شرفة غوفي نرى القاعات الفسيحة . إقامة صيفية . ومن تحت يبدو وادي النخيل .





وتعتبر بلاد الأوراس وحدة تاريخية وهذا أمر يهم دراستنا هذه . ويمكن القول بأن الأوراسي معروف بصلابته وكرهه للأجنبي . وقبل أن يتوصل الاسلام إلى تهذيب وتهدئة الرجل الأوراسي ما أفلح الرومان والبيزانطيون والواندال في إحتلاله . ولقد فشل الفتح الاسلامي الأول في بلاد الأوراس . إن سيدي عقبة الشخصية الجليلة في تاريخ الجزائر بعد أن أوقع كسيلة الرئيس الأوراسي في الأسر أخذه معه نحو الشرق وواصل زحفه حتى المحيط وعند رجوعه وقع في كمين نصبه له كسيلة فمات في المعركة . ثم جاءت الكاهنة التى تشخص روح الأوراس الاستقلالية فهزمت حسن بن نعمان على أبواب مسكيانة . ولابد من ذكر هذه الصفحات التاريخية التى سبقت دخول الاسلام . وفيما بعد وجد الفرنسيون مقاومة شديدة في الأوراس ومعقلا ثورياً حتى الاستقلال الذي كافحت من أجله هذه المنطقة كفاحاً فعالا .

ساحات وسطوح ، تؤدي إليها آلاف من الممرات *
القرية قريبة : النخيل .

ولقد بقي الأوراس يتكلم البربرية مثل بلاد القبائل . وإذا كانت فوارق البناء موجودة بين الشمال والجنوب فهي فروق تتمثل فقط في مادة البناء : ففي الشمال تستعمل الحجارة : يحشي الفراغ الموجود بين حائطين بحجارة ممزوجة بالأسمنت . ولتمتين الجدار توضع طبقة من الأغصان المتقاطعة متراً بعد متر . وفي أواسط المنطقة يستعمل اللبن قاعدة للجدران . أما في الجنوب فان البيوت كلها من الطوب . لكن المظهر العام للقرى يبقي هو هو لا يتغير .

وهذه الهندسة المعمارية « مندمجة تماماً مع الطبيعة » على حد تعبير المدارس العصرية وهذا الاندماج يعود بدون شك إلى التاريخ . فالقرى الأوراسية لا ترى إلا في بعض ساعات النهار أو بعبارة أخرى لا تظهر للعيان إلا عند طلوع الشمس وغروبها . أما في منتصف النهار فهي لا تميز من الجبال والصخور أو الرمال . فلا تكاد تفرق بين المنازل المصطفة طولا والصخور التى بنيت منها فالقرى كلها عبارة عن جبل من جبال الأوراس . والقرى كما أسلفنا معلقة كلها في رؤوس الجبال لأسباب تاريخية والدشرة تتكون من هذه القرى . والدشرة كما هو الحال في القرارة تلتف حول المخزن الذي يمثل الحصن الحصين في حالة إعتداء .

والفناء كما هو الأمر في كامل القطر الجزائري يؤدي إلى البيوت ، لكنه هنا يؤدي إلى الشارع خلافاً للمناطق الأخرى باستثناء بلاد القبائل وليس هناك وجود للسقيفة . والنساء سواء في الأوراس أو في بلاد القبائل يخرجن سافرات وقانون الشرف أو الاحترام يتم بالتفاهم والوفاق بين العائلات التى تتعارف بعضها البعض أو بينها صلة القرابة . ومن جهة أخرى فان القرى الجبلية ليست على غرار القرى الصحراوية



قرية قريبة من المنعة .



جدران من الطوب ، جسور من النخيل ، شرعة ودرج رواق إحدى القلعات .



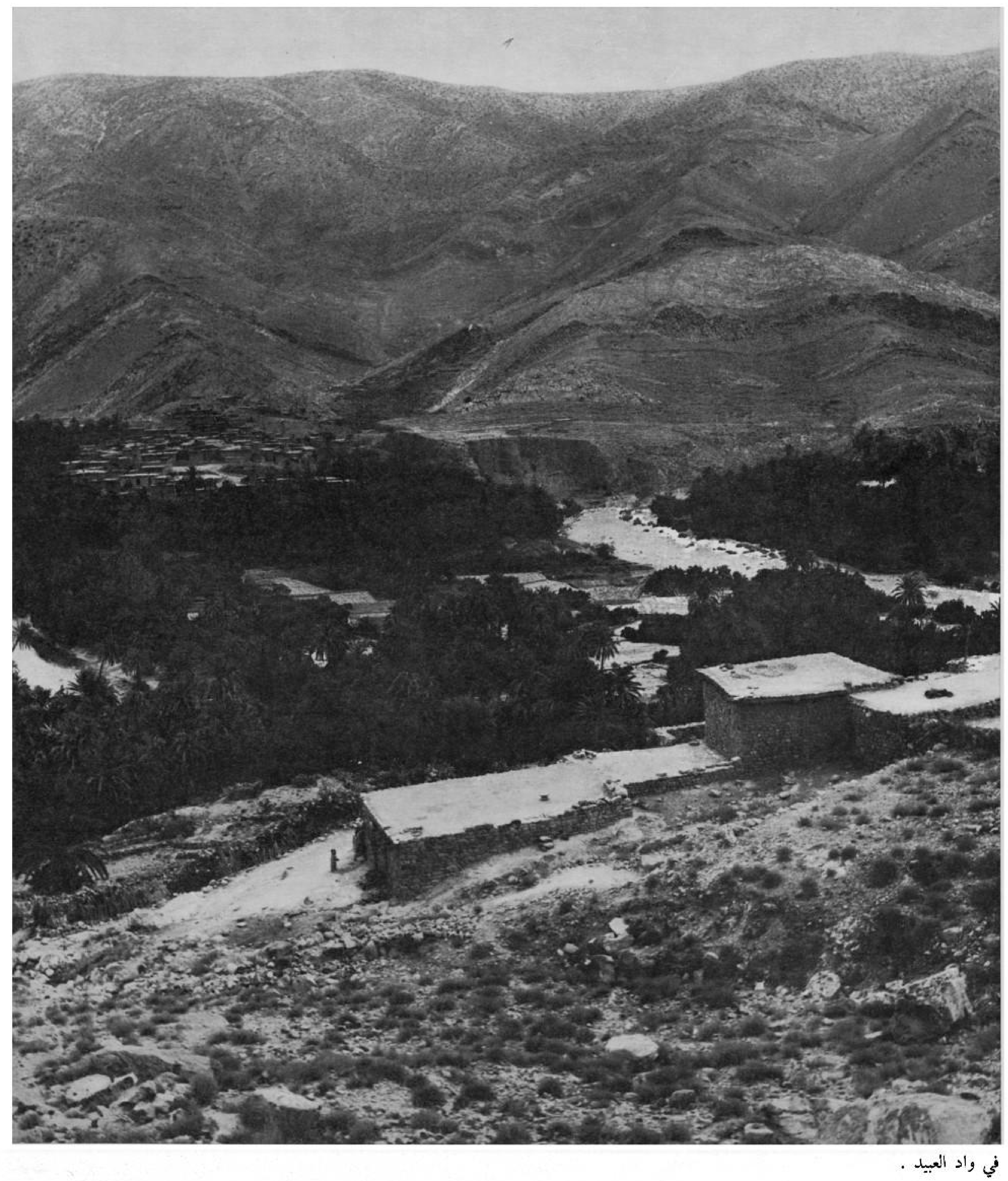
↑ قلعة روفي .

قرى تجارية يقصدها الرحالة لذا فلا مجال هنا للتخوف من الأجانب .

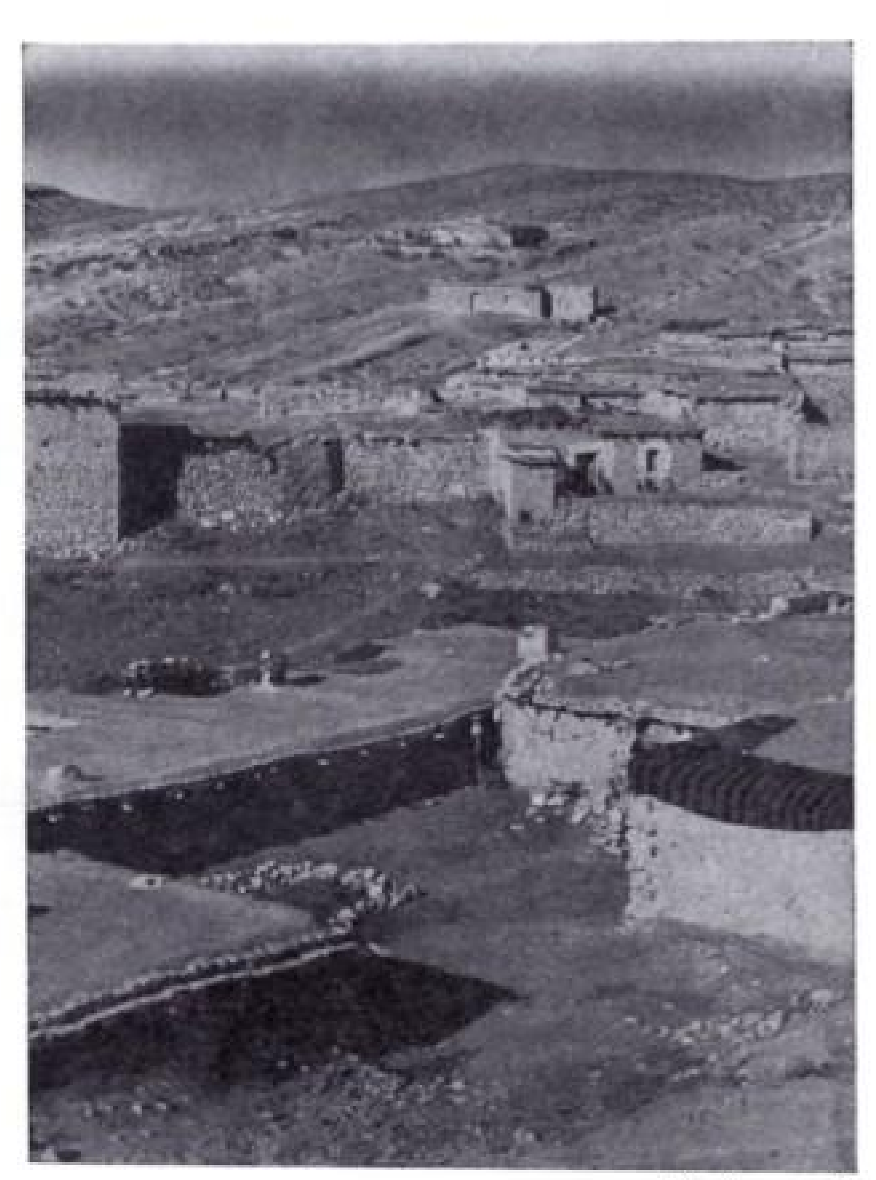
والسطوح المصطفة على شكل الدرج تشبه التربة والأرض تماماً إلى درجة أننا ندوسها دون أن نشعر أنها سطوح لا سيما وأن الأعشاب تنبت عليها . فهي في نفس الوقت عتبة وممر ونهج في بعض الأحيان . وتستعمل هذه السطوح للقاءات حيث تقضي النساء عليها قسماً من النهار وكذلك الرجال . وعليها أيضاً يجفف التين والتمر والفلفل وتستعمل أخيراً مرقصاً بمناسبة الأفراح .

ومن هنا ندرك ما يتطلبه هذا السطح من متانة وقوة . فهذا السقف والسطح في آن واحد

عند ما تتهدم الدار ، تتحول إلى جبل .
ككل الأشياء الطبيعية تعود إلى الطبيعة ،
ببساطة وكلية .



في واد العبيد .


قرية واد العبيد

يعتمد على ركائز خشبية متينة من شجر النخل أو الأرز ومدعمة في أساسها بالحجارة . وتحمل هذه الركائز عارضة أفقية تمتد عارياً على طول البيت . وتوضع الخشبات في كلتي الجهتين على الجدران وفي الوسط على أعلى تاج الأعمدة . وفي البيت العلوي توضع الركائز الحاملة للسطح فوق الركائز الحاملة للسقف تماماً . ويشتمل الطابق عادة على حجرتين مغلقتين وبينهما حجرة ثالثة أوسع منهما ومشرفة على الخارج . وهي حجرة صيفية يدخل إليها بواسطة مدرج خارجي .

و « الهندسة المعمارية موجودة هنا في كل شيء » فالسرير الأوراسي يكاد لا يكون أثاثاً بل هو بناء يتمثل بجدار صغير مواز للحائط توضع عليه خشبات صغيرة ملصقة بالجدار . ويفرش هذا السرير الخشن بأغصان الدفلى وطبقة من الحلفة وسماط . وهناك أثاث آخر لا يقل أهمية يتمثل في آلة النسيج . وتوضع هذه الآلة موازية للجدار التي تتكيء عليه الناسجة بحيث تكون مقابلة للباب حتى يتسرب إليها النور . وتصنع هذه الآلة من نفس الخشب الذي يستعمل للسرير والأعمدة والأبواب . وتحفر في الجدران مشكاة تستعمل استعمال الدواليب . وتصنع رفوف هذه الدواليب من الخزف حيث تضع فيها المرأة الأوراسية أمتعتها وموناها .

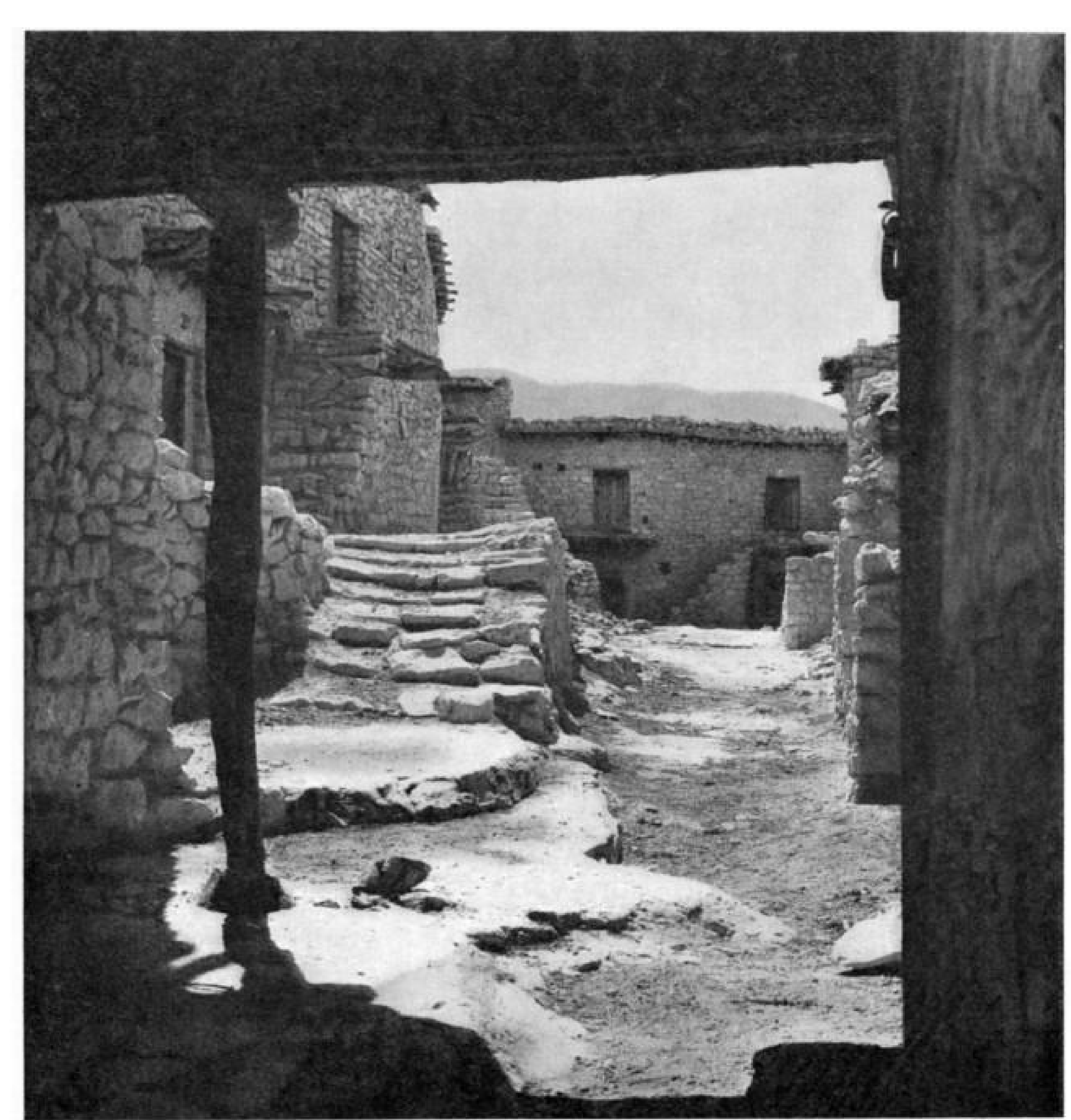
وللنوافذ طابع خاص من الشمال إلى الجنوب سواء أكانت البيوت من حجر أو طوب وهذا ما

تكوت

يزيد في وحدة الأوراس القوية وهي نوافذ ذات فتحات مثلثة صغيرة نسبياً ومتناسقة بينها .

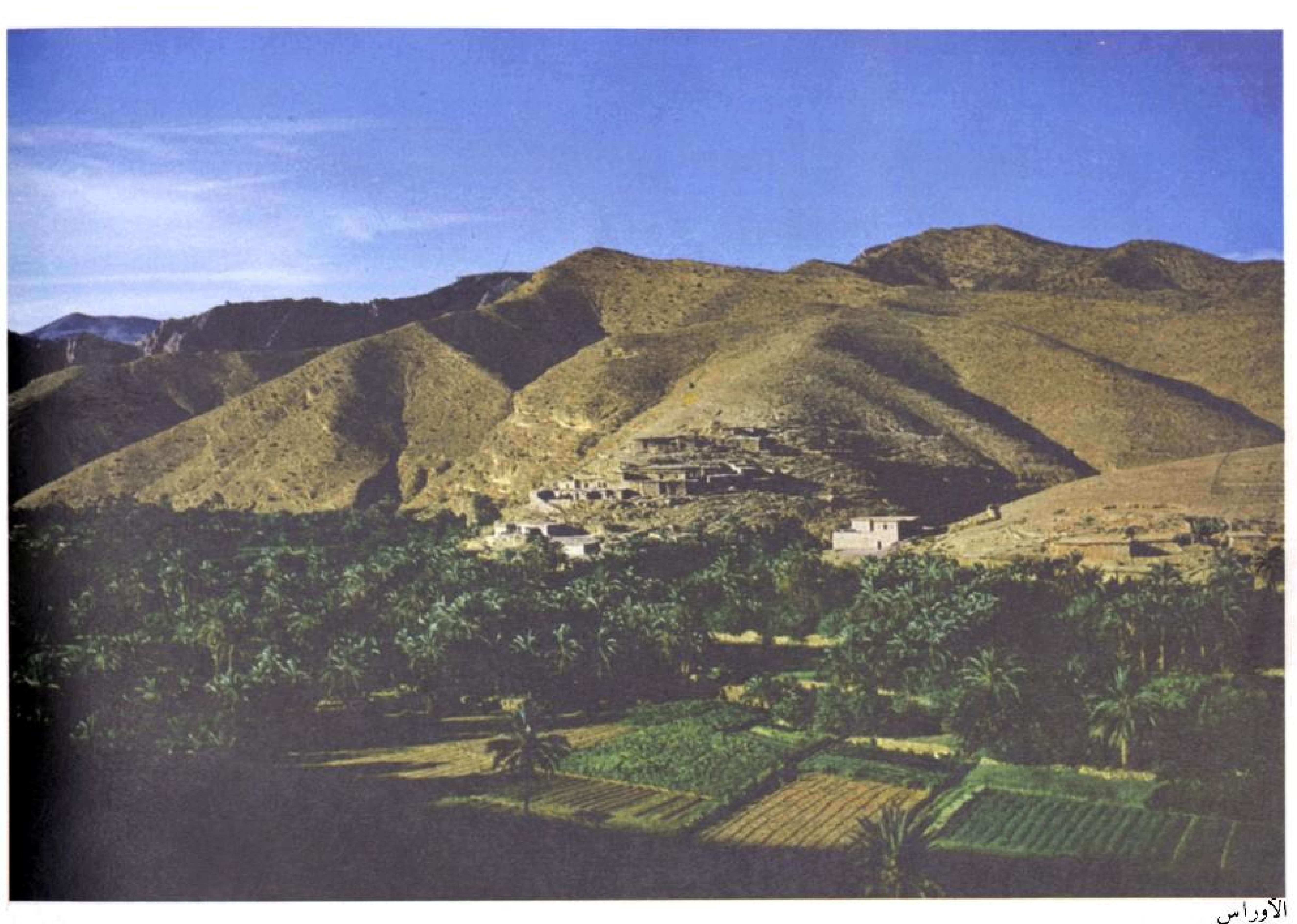
فتارة تتداخل المثلثات المستقيمة والمثلثات المقلوبة وتارة أخرى تكون هذه المثلثات عجلات مصطفة . وتمثل هذه الأشكال زخرفة لا بأس بها . ولا توجد زخرفة أخرى غير الأسدية لكنها كافية لاعطاء مظهر زاهي لهذه البيوت المتينة التي لا فتحة لها سوى هذه النوافذ والأبواب .

وإن كان هذا العمران عمراناً جبلياً فهو أيضاً فن شخصي واحد . وقبل إثني عشر قرناً بنى سكان هذه المنطقة ذلكم الأثر العجيب « المدراسن » ولعلهم كانوا يعيشون آنذاك في هذا العمران المتين الذي تمت حصانته من الرجال والحر والقر .



داخل قلعة روفي .

طرق طبيعية وديار محصنة إنه وجه الأوراس الحقيقي



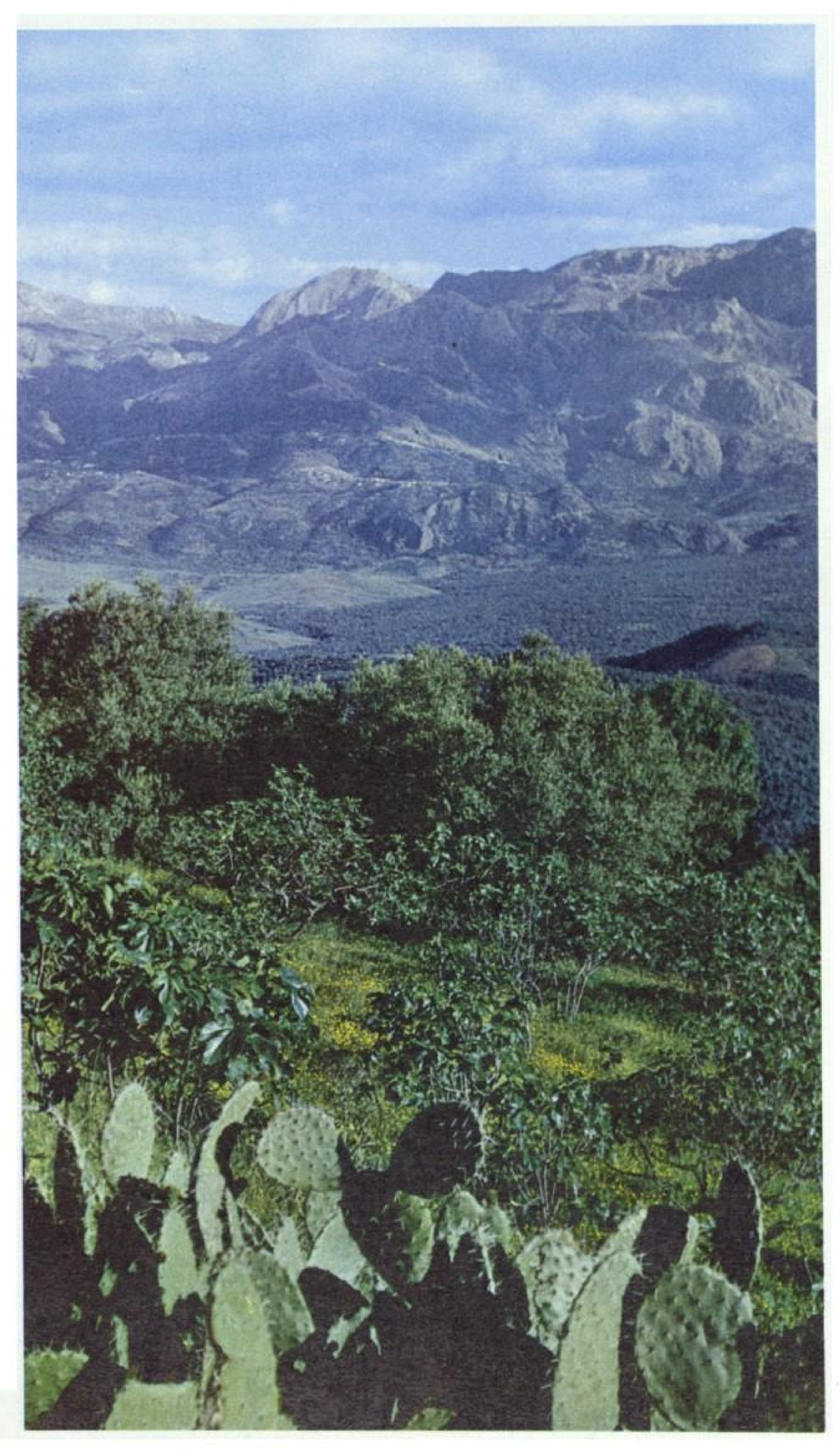
الأوراس

ولقد أهمل المهندسون والمعماريون اليوم أسلوب المباني الفاخرة التي تشاهد من بعيد بفضل تباينها مع ما يحيط بها . إن الأسلوب الحديث يتمثل في الاندماج مع الطبيعة والمحيط إندماجاً كلياً كما نشاهد ذلك من الشمال إلى الجنوب على امتداد 11.000 كم^2 من هذه السلسلة الجبلية المفروشة بالغابات الثلجية والصحاري المنضدة .

وهناك منطقة أخرى لا تقل شخصية وأهمية عن الأوراس ألا وهي بلاد القبائل أو بالأحرى القبائل الكبرى والقبائل الصغرى اللتان يفصل بينهما وادي السومام .

ويبتديء الساحل القبائلي على بعد بضعة كلمترات من العاصمة ويمتد حتى مدينة سكيكدة . وتحد هذه المنطقة الكبرى جنوباً مدن سور الغزلان وبرج بوعريرج وجميلة . وبالرغم من قساوة الحياة الجبلية فان كثافة السكان في هذه الجهة من أقوى الكثافات في الجزائر . وهي بلاد فلاحية فقيرة أهم إنتاجها الشعير والقمح والتين والزيتون .

وفي بلاد القبائل الكبرى التي يحق أن نسميها القبائل العليا يبلغ ارتفاع جبل جرجرة 2.300 م وتغمره الثلوج شتاء . وجبل جرجرة محاط بمضيقات وقمم جبلية كثيرة الانحدار . وعلى كل قمة من هذه القمم توجد قرية يرجع أصلها إلى غياهب الزمن . إن بلاد القبائل والأوراس يعدان من أقدم الجهات من حيث



الاستقرار البشري . ومن السهل جداً أن نشعر بالأواصر التي تربط بين هذه القرى .

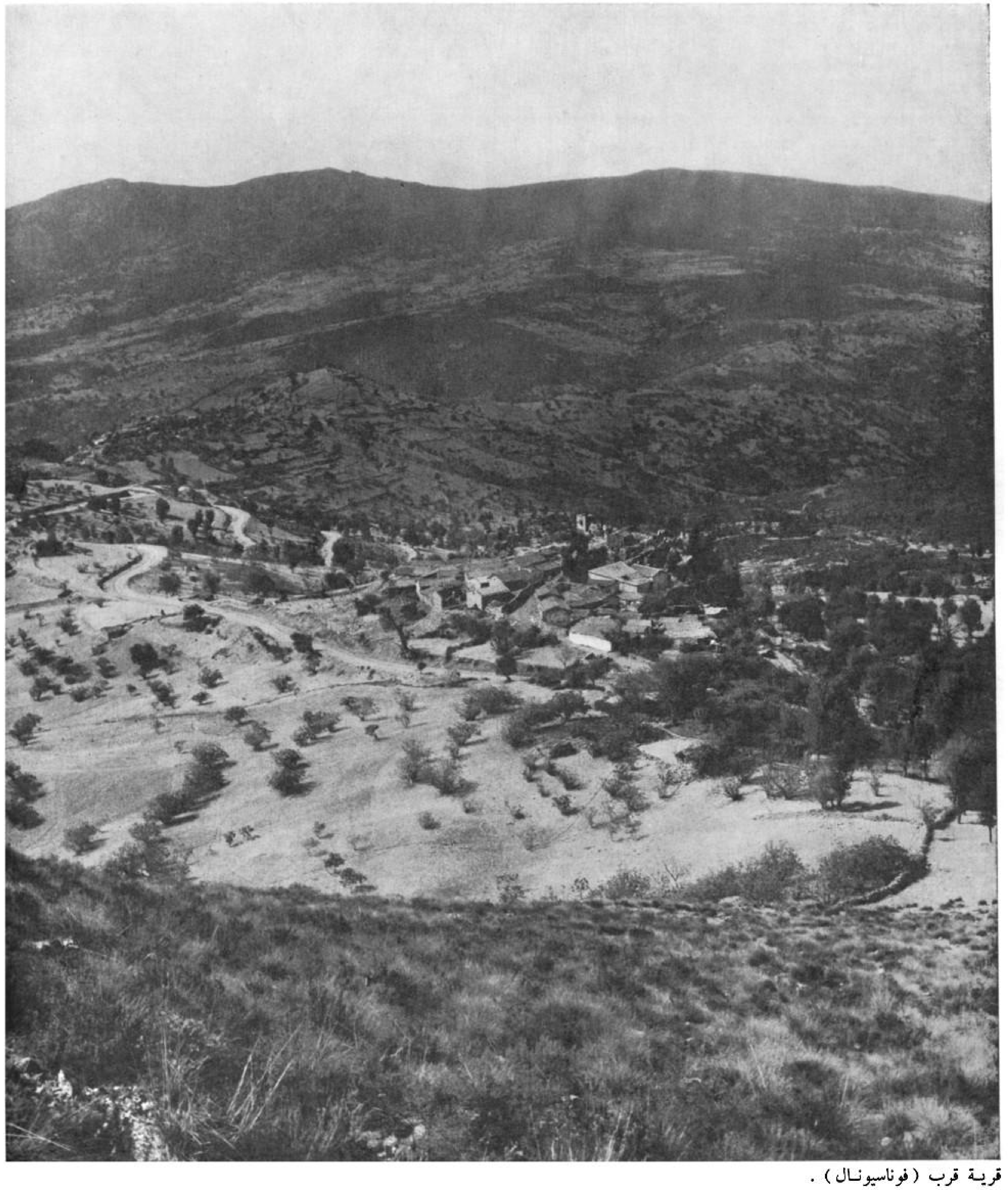
ووجود القرى على قمم الجبال يستجيب لمتطلبات الدفاع . ولسبب آخر يتمثل في أن الحياة على السفوح غير سليمة . والعجيب أن سكان القبائل يعهدون بحراسة منازلهم وأرزاقهم وحدائقهم إلى الطبيعة نفسها حيث نراها محاطة بحواجز شجر الهندي الذي تفوق نجاعته الاسلاك الشائكة .

إن مدن سور الغزلان والبويرة ودلس وجيجل وجيلة تشهد كلها بمرور الرومان لما خلفوه من آثار .

إن مدينة « جميلة » التى بقيت تقريباً على حالها والتى هي بالنسبة لبلاد القبائل بمثابة تمقاد ولمبيس بالنسبة للأوراس فانها تختلف عن هاتين المدينتين بطابعها الخاص الذي يجعل منها مدينة قبائلية صغرى في وكرها الشامخ بين واديين وبشوارعها الضيقة . وعلى أعلى الأعمدة تشير الفيفساء إلى السقوف ذات المنحدرين المغطاة بالقرميد على غرار منازل الجهة كلها . ولا شيء يدل على أن سكان القبائل قد تأثروا بالحضارة الرومانية تأثيراً خاصاً لا سيما إذا عرفنا مدى تعلقهم بالاستقلال . وإذا كان حوض البحر الأبيض المتوسط مهداً للحضارة اللاتينية واليونانية فهو بالمثل بالنسبة لهذا البلد القبائلي المتأصل في القدم هذا البلد المسلم الذي يخضع نمط المعيشة فيه لقوانين قديمة ليست بالقوانين الرومانية .

وهذه القوانين وهذا النمط في المعيشة قد أثرا تأثيراً قوياً على الفن المعمارى في هذه المنطقة .

جرجره تتمزق . فوق القمم .
حيث توجد ألف قرية .
هي المنطقة الأكثر سكاناً في الجزائر :
بلاد القبائل .



قريـة قرب (فوناسيونـال) .

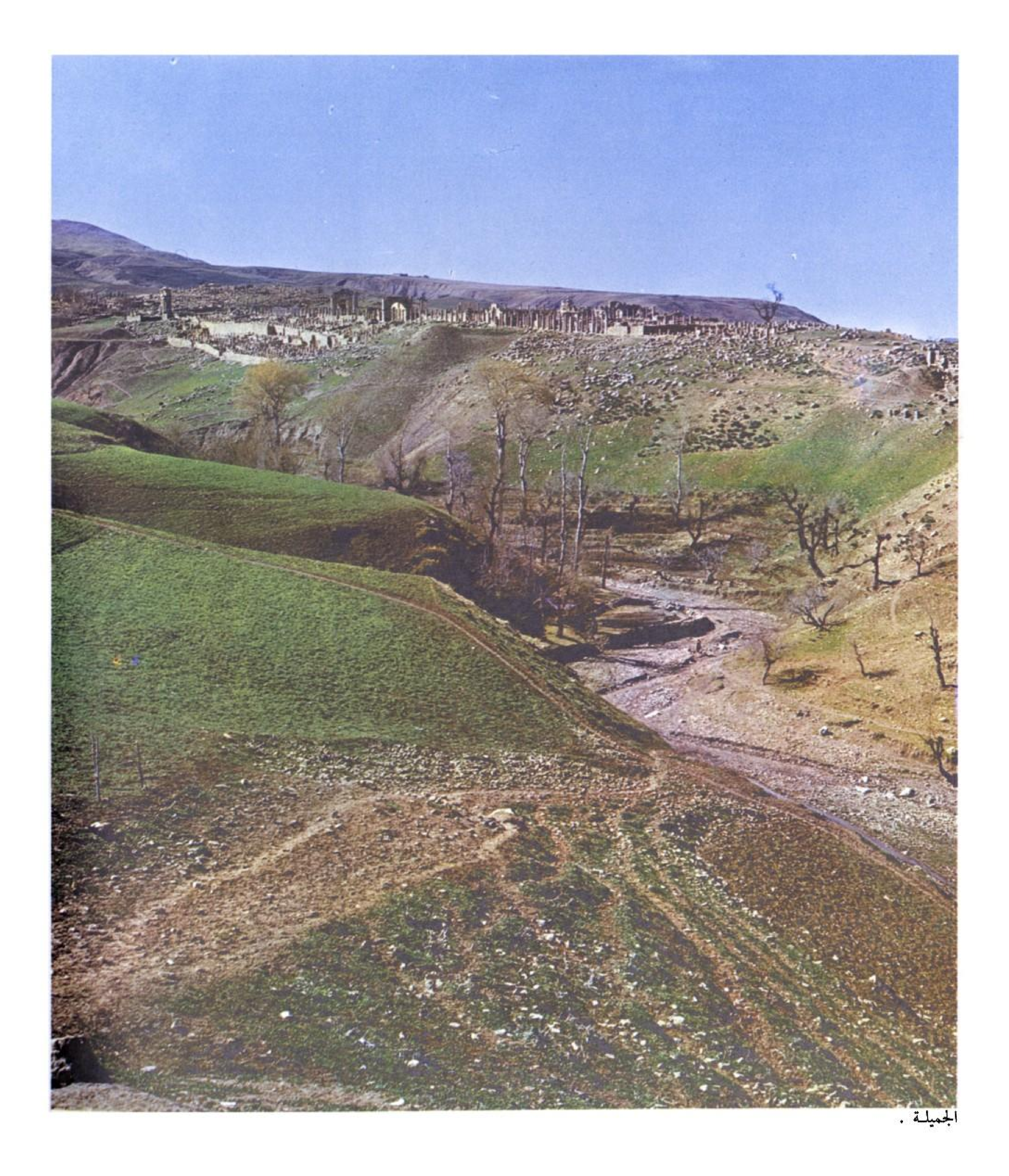
واجهة تتخللها فتحات .

إن النظام الأبوي قد أتى بعنصر هام في تكوين القرية . ففي الجهة كلها لا يقال : أنا أسكن الحي الفلاني أو القسم الفلاني من القرية « بل يقال : أنا من حوش فلان » . وليس المقصود بالحوش هنا هو ذلك الفناء الصغير بل الفضاء المركزي الذي تلتف به عدة مساكن لأعضاء العائلة الواحدة المتزوجين الذين يخضعون لشيخ العائلة لذا تسمى القرى « بأولاد فلان » .

وعند ما تكبر القرية وتتسع يتعين عندئذ بناء المسجد . ويبنى المسجد بجانب القرية وتشيد حوله المنازل شيئاً فشيئاً حتى يصبح المسجد مركزاً



قرية في بلاد القبائل



الجميلة .



حماية طبيعية : الأسلاك القبائلية . تسمى « التين البربري » .

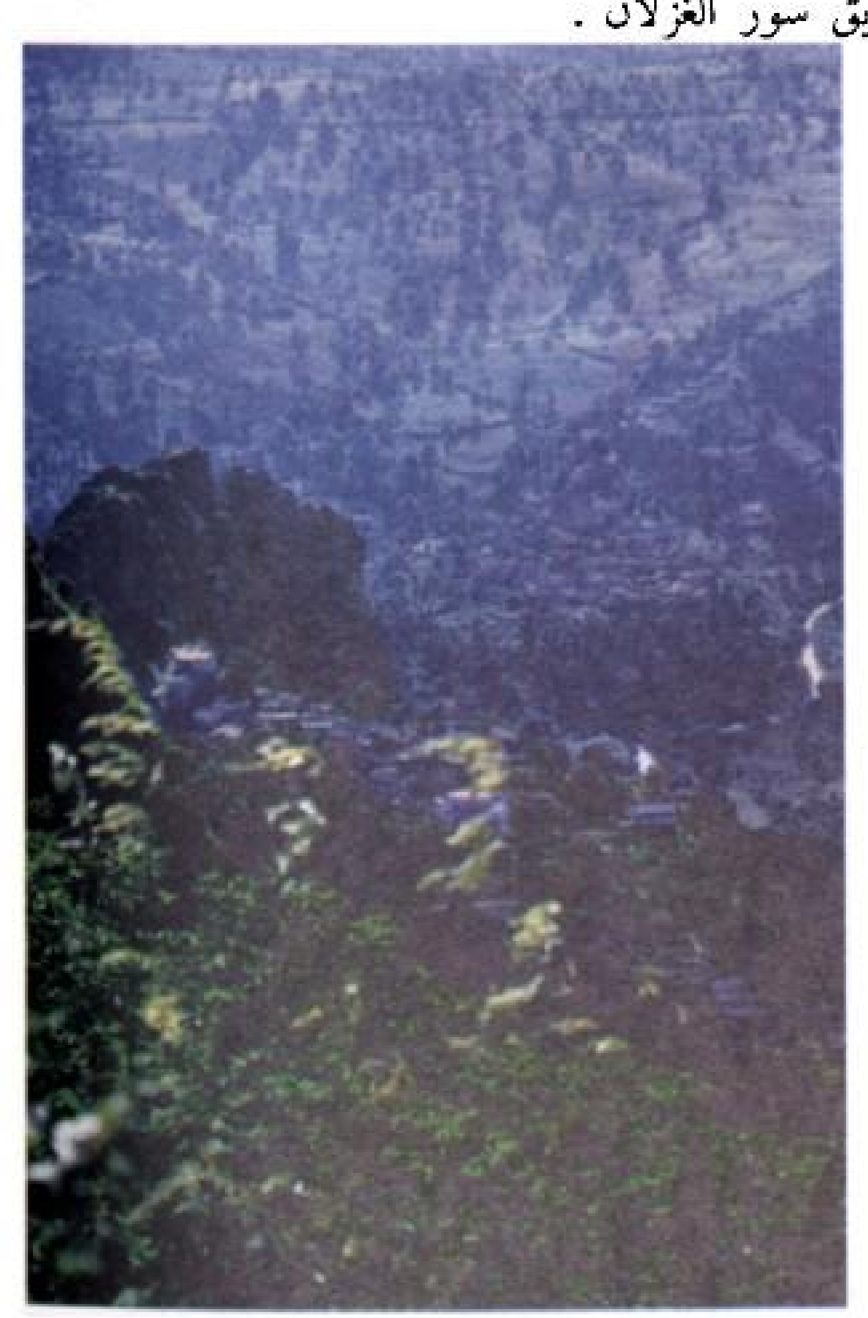
لها . وبالقرب منه تخصص ساحة للجمعية أو الجماعة . ويواجه مقر الجماعة الطبيعة أو الناحية الخارجية وفي بعض الأحيان يعلو هذا المقر سقف أو طابق مثل ما هو موجود في القرارة وتوجد به مقاعد على طول الجدران بها بريق من كثرة الاستعمال ويعتبر هذا المقر مركزاً حيوياً في القرية . حيث يجتمع فيه الشيوخ وأرباب العائلات في أوقات معينة فيناقشون شؤون القرية ويعالجون المشاكل القائمة بين العائلات ويبرمون عقود الزواج . كما تستشار الجماعة في الأمور . وليست الجماعة محلا خاصاً ومغلقاً . بل هي محط الرجال وجزء لا يتجزأ من حياة القرية . فلا يجتمع الشيوخ على إنفراد بل بالعكس فهم يشاركون في كل أوجه نشاط القرية وفي نفس الوقت يمكن أن تتحول الجماعة إلى مجلس تناقش فيه المواضيع التوحيدية والفلسفية وغيرها .

فالمميزات الثلاثة للقرية القبائلية تتمثل إذن في وجود القرية على رأس الجبل وترتيب بيوتها حسب الأفنية المتعاقبة وأخيراً جماعتها . إن الوحدة البنائية هي الأخرى عامل من عوامل شخصية القرية القبائلية . فالمساكن في بلاد القبائل مشيد خارجها بالحجارة وهذا يفرض على البناء صرامة كبرى كما هو الحال في الأوراس لأن عمله سوف يبقى ظاهراً للعيان في كل تفاصيله . وكما هو الأمر في القصبة وفي المزاب فقلما نجد نوافذ تطل على الشارع حيث أن الفناء يكفي لدخول النور وأشعة الشمس والتهوية بل نجد بدل النوافذ ما يمكن أن يسمى « بالنظرات » . فالانارة واجهة المنازل يتفنن البناء في رسم هذه « النظرات » مؤكداً إياها بالقرميد أو برسوم من الآجر .

إن البيوت مبنية على عدة مستويات نظراً لوضعها الجبلي . ومعنى هذا أن البيوت ليست حتما بعضها فوق بعض لكنها مشيدة على أنصاف طوابق متداخلة أو بعبارة أخرى تكون أرض البيت الأولى على ارتفاع متر واحد من أرض البيت الثانية . وهذه طريقة لا يتردد العمران



ساحة ، اثنتان ، وعن قريب تنتصب قرية طريق سور الغزلان .



قرية في بلاد القبائل

الأوربي الحديث في إتباعها حيث يمكن لشخصين يسكنان حجرتين مختلفتين أن يتبادلا أطراف الحديث .

وداخل البيوت تطلى الجدران بدهن ملس وهذا يدل على أن عدم دهن الجدران من واجهتها الخارجية يعود لأسباب اقتصادية لا غير .

وأهم أثاث يتمثل في الصندوق الكبير الذي يصنعه الحرفيون المتجولون للعائلات التي تكفل لهم الأكل والمسكن حتى يتم صنع الصندوق فيتلقون بعد ذلك أجرهم . ويبلغ الصندوق طول الانسان . وتوضع فيه مجوهرات العائلة والأمتعة وحتى الحبوب في بعض الأحيان . وكثيراً ما

↑ وادي الصمام .

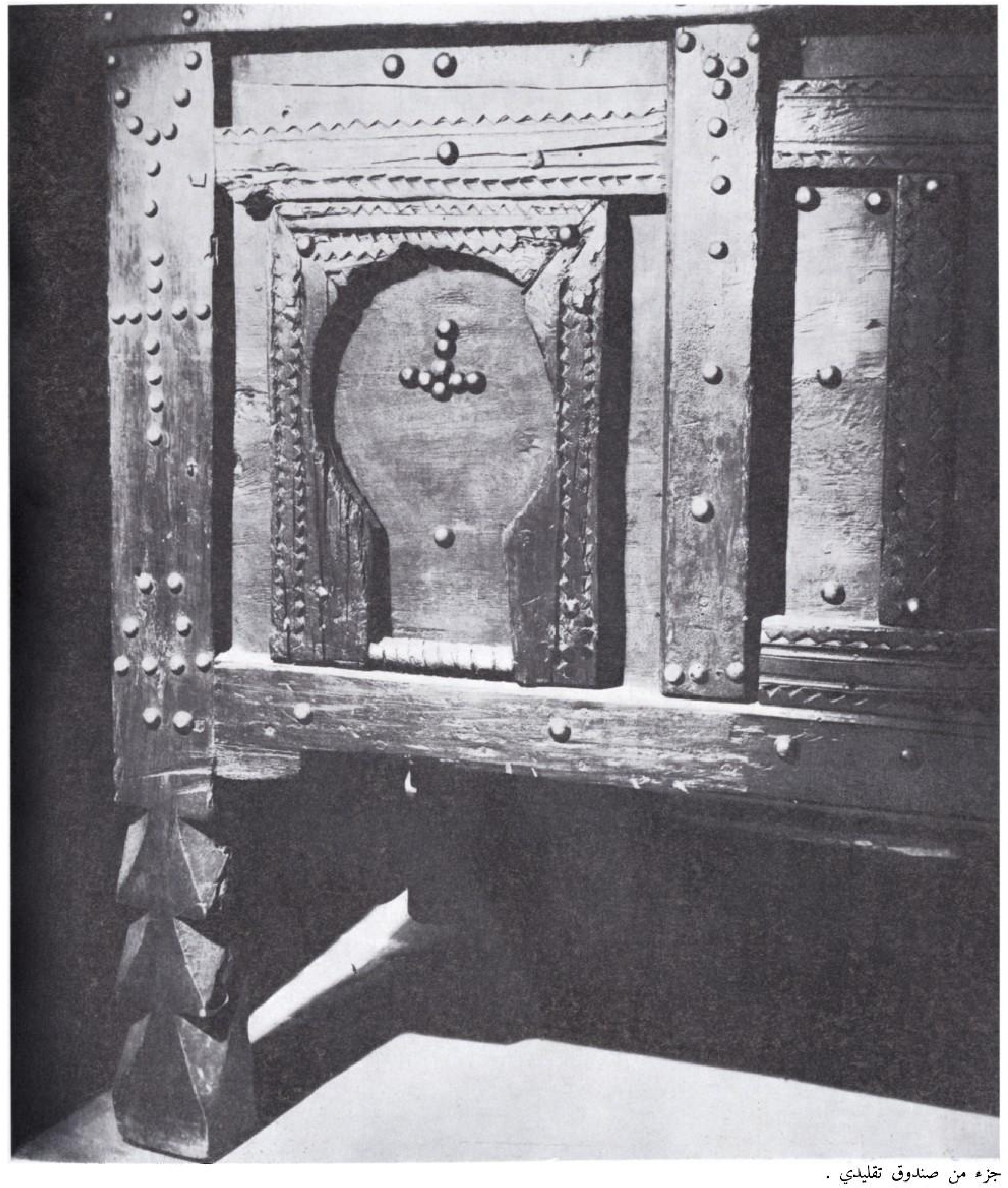
يتخذ رب العائلة هذا الصندوق سريراً للسهر على أملاكه . أما الأثاث الآخر فهو يتكون من البناء مثل المشكاه والرفوف المبنية وخاصة الأواني الخزفية التي توضع على المقاعد وعلى مخازن الحبوب المرتفعة التي تلتحم مع الجدار الذي شيدت عليه وهي مزدانة برسوم هندسية من جميع الجهات مثل الصناديق الخشبية .

إن الأواني الخزفية القبائلية تستحق دراسة على حدة . فان كان لها طابعها الخاص فهي متنوعة تنوعاً كبيراً . وعند ما لا تستعمل هذه الأواني توضع على رفوف عالية فيصبح مظهرها مثل مظهر واجهة الدكاكين العصرية .

ولحماية الحيوانات من رداءة الطقس تلجأ العائلة إلى إسكانها معها ولا يؤثر هذا مطلقاً على



الديار القبائلية كثيراً ما تبنى بالأحجار المجففة وهو ما يتطلب من البناء نوعاً من الدقة والقوة .

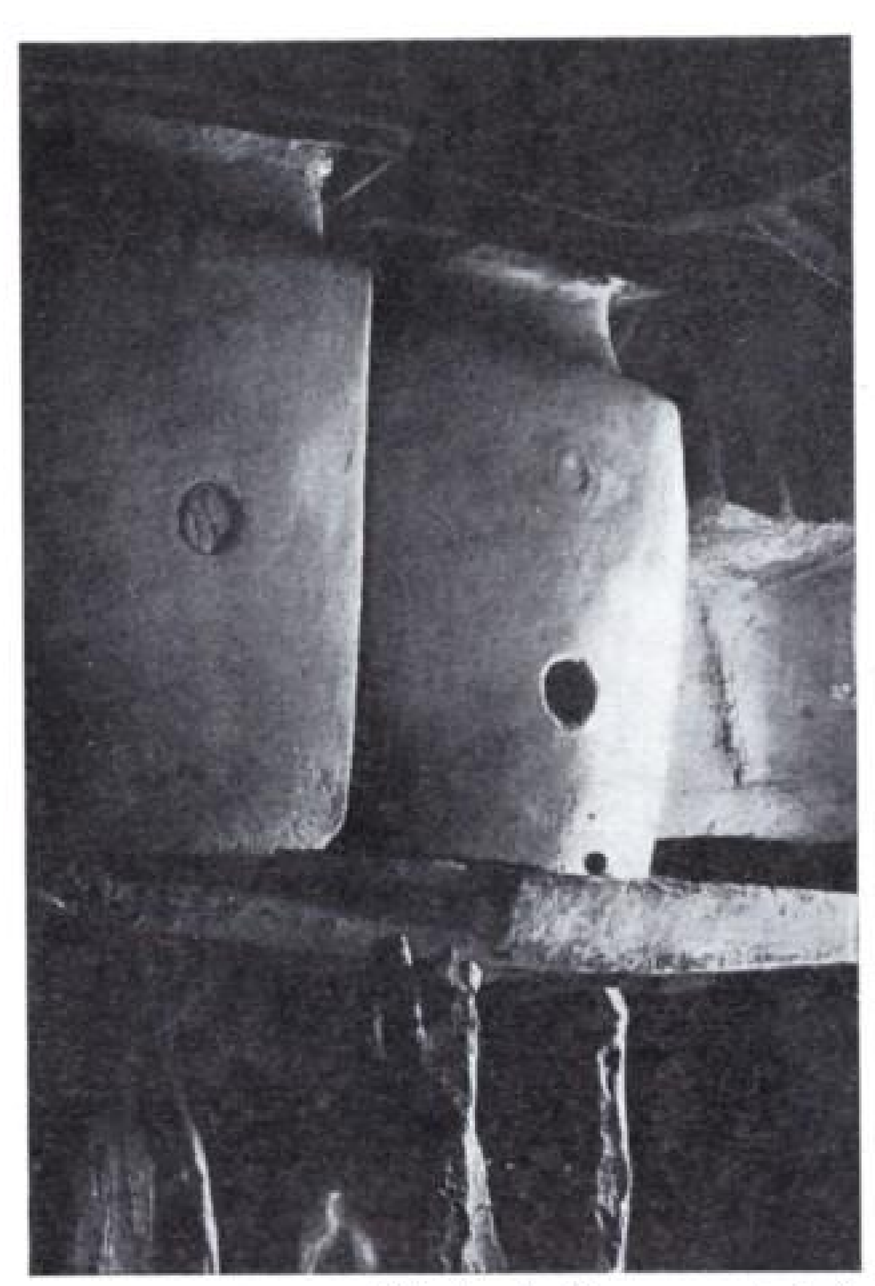


جزء من صندوق تقليدي .

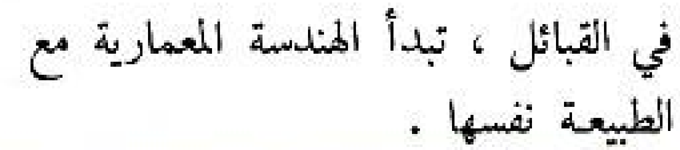
نظافة المنازل حيث يخصص للحيوانات القسم الأسفل من الدار وهي مساحة منحدرة بها بالوعة حتى يسهل تطهيرها .

وبين هذه الحفرة والقاعة لا يوجد منفذ آخر غير حاجز مثقوب يساعد على الحراسة من جهة وعلى توزيع القشور للحيوانات من جهة أخرى فيسوي بذلك مشكل القاذورات المنزلية . وهذا الحاجز المثقوب يطلى بدهن ملس حتى يسهل غسله .

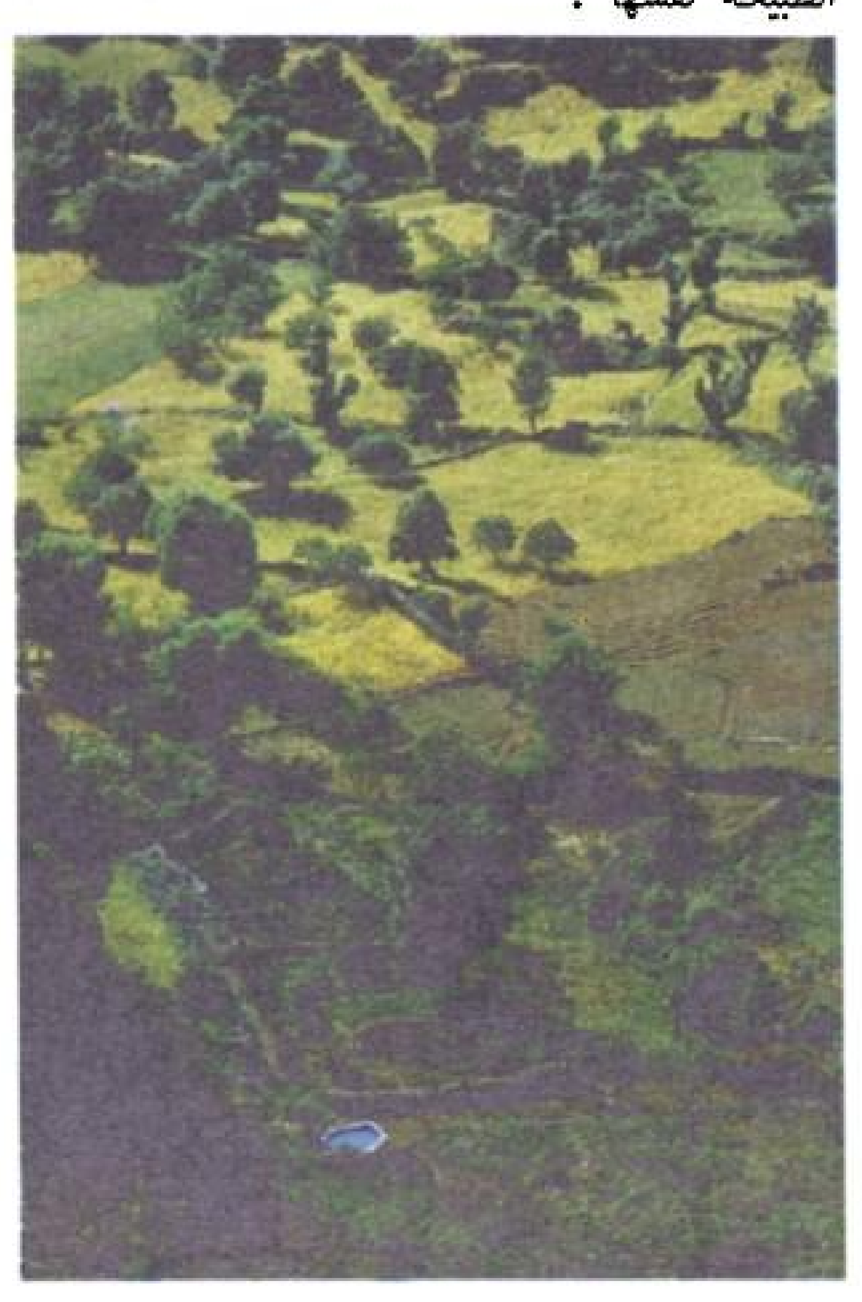
إن ترتيب البيوت في بلاد القبائل اختصاص من اختصاصات المرأة . فهي التي تصنع الآثاث الخزفية المختلفة لذا نرى الترتيب الداخلي للحجرات في غاية من الجمال والنزوة المتجددة . وهناك عامل آخر لا نراه في الجهات الجزائرية الأخرى عامل من اختصاص المرأة أيضاً ألا وهو زخرفة الجدران التي تتمثل في أشكال هندسية حديدية اللون سوداء يعود أصلها إلى أقدم العصور وهي أشكال ناطقة معبرة . ومعلوم أن اللغة القبائلية ليست لغة مكتوبة . وهذه الرسوم التي



مخزن للحبوب بالتراب الجاف .



في القبائل ، تبدأ الهندسة المعمارية مع الطبيعة نفسها .



أثاث من الأحجار غير المكوية : مخازن للحبوب .

زينت بها الجدران هي رسوم وصفية تعبر عن معاني لا يدرك مغزاها سوى النساء وهن لا يبحن سرها .

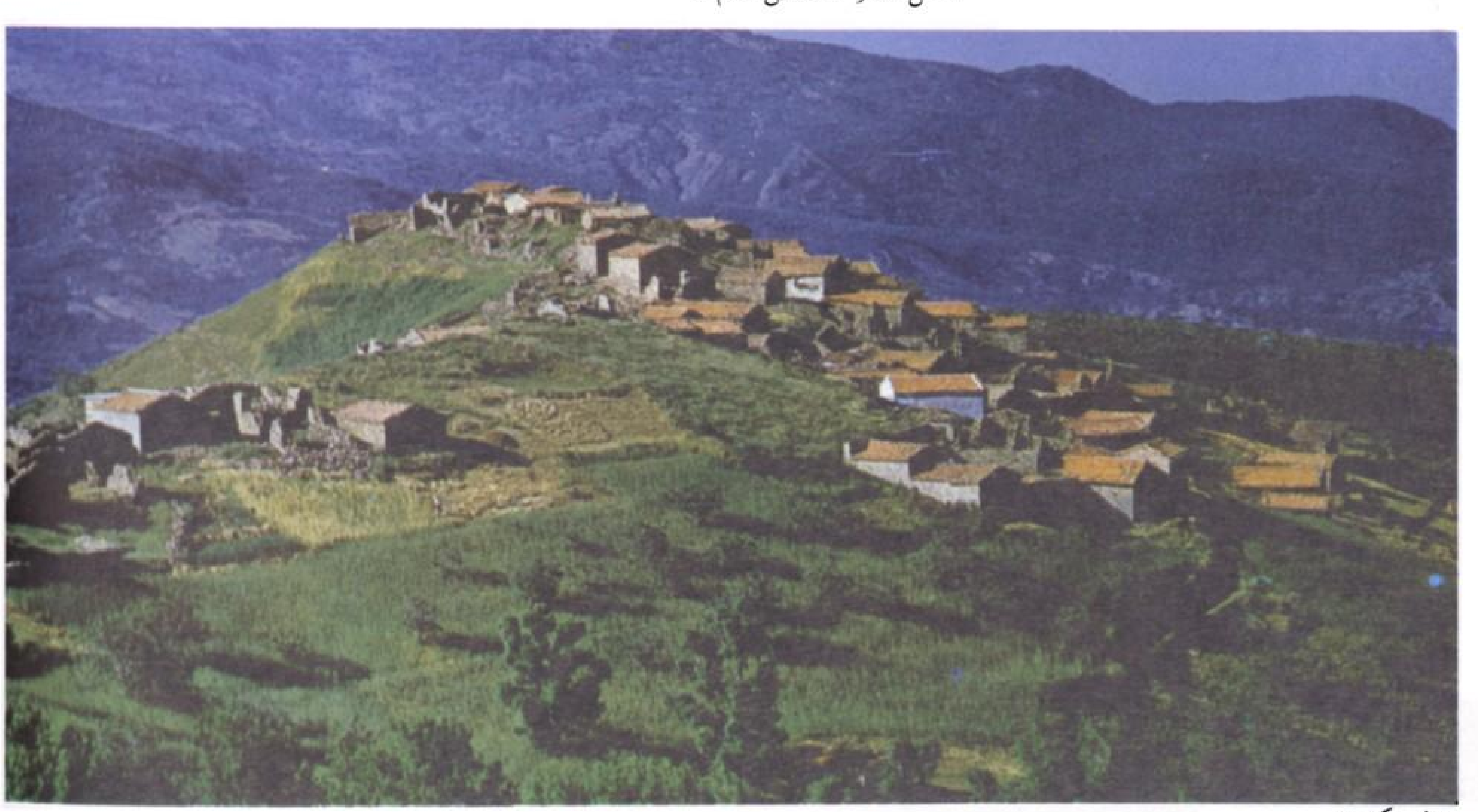
وإذا كان مظهر البيوت الخارجي مستقيماً صارماً لا تعلوه سوى بعض الفتحات من القرميد والآجر فان داخل البيوت عبارة عن تحفة جديرة بالهام الاخصائيين . ولقد قال الكوبيزي :

« أذهب إلى حيث يمارس الرجال أعمالا يتقوتون منها وحيث يتخذون المبادرات الرامية إلى التخفيف من آلامهم . وهم يفعلون كل ما يجب فعله للحصول دون تكاليف على أفراح الحياة الاجتماعية : الحرف ، العائلة والحياة الجماعية وبوصفي مهندس ومعماري فأنا على يقين من أنني سأتعلم حرفتي لدى الرجل أو الرجال » .

بقي علينا أن نذكر الآن الأماكن الموجودة في جهات معينة والتي تمثل إما شخصية معمارية



داخل الدار : قفص حمام .

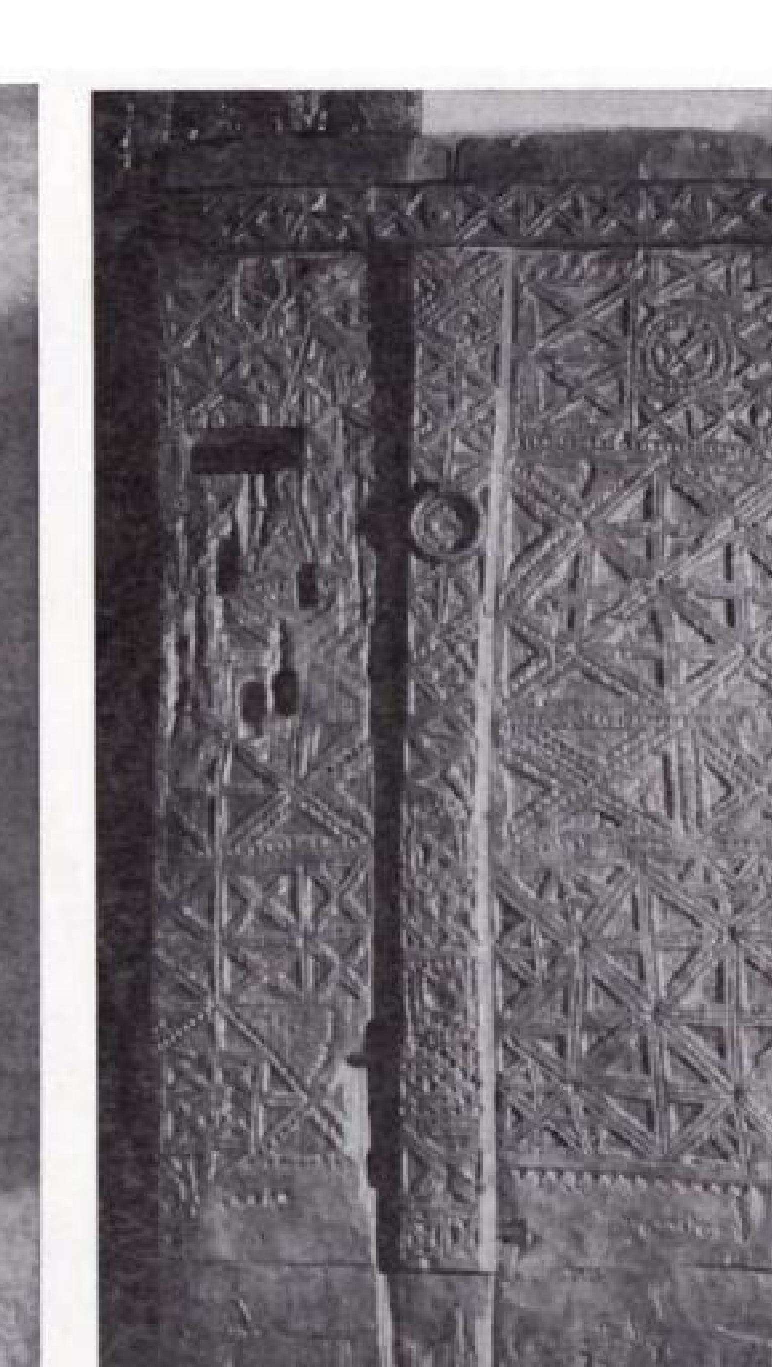


منظر يكورن .



يكـورن

قويـة وإما مزيجـاً من التـأثيرات المفيـدة . ففي الجنـوب كما أسلفنـا تعتبر مـدينـة « تيميمون » نموذجـاً حقيقيـاً للعمران الصحراوي الـذي يمتد من الساورة إلى جنات . ففي « تغيت » ـ بالساورة ـ مثلا نجد السقوف ذات الشكل النصف الأسطواني كما هو الحال في « تيميمون » . ونجد في جانب البـاب المقوس الـذي يبنى على جدارين صغيرين يكونان مضيقاً عند المدخل هذا النوع من الأبواب لا يعثر عليه لا في الساورة ولا في سوف ولا في المـزاب . وبالقـرب من « تقرت » تـقـوم قريـة « تماسين » المحصنـة على طبقـة أفقية من أعجاز النخيـل التي تكون مرتفعاً اصطنـاعياً في صحراء منبسطة . وفي منطقة الزيبـان بالقرب من مدينـة بسكرة تبنى جـدران الحـدائـق هي الأخرى على أعجاز النخيل . وتمتاز منطقـة الزيبان بأصالة لا



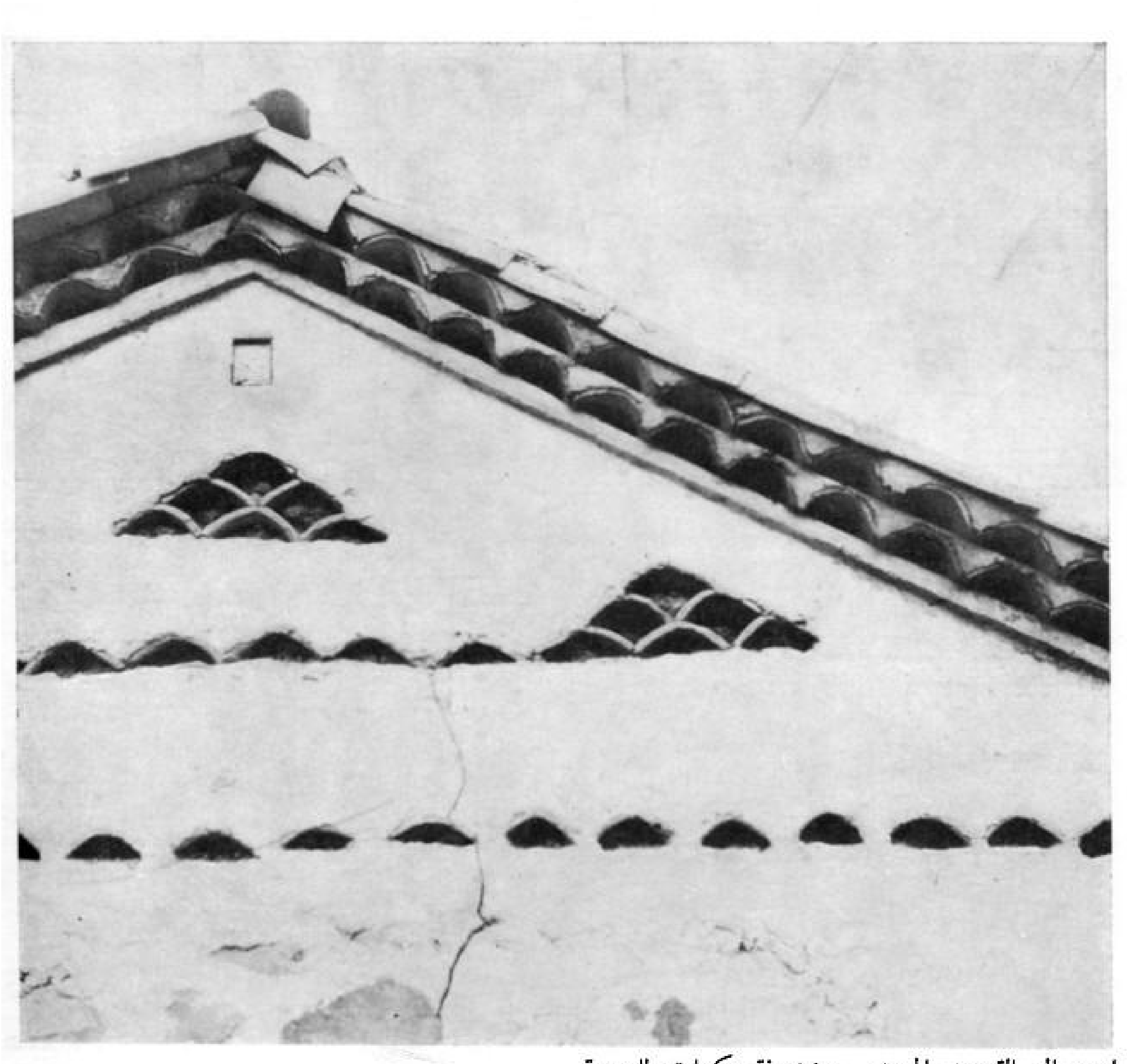
باب قبائلي قديم ، المتحف الوطني الجزائري



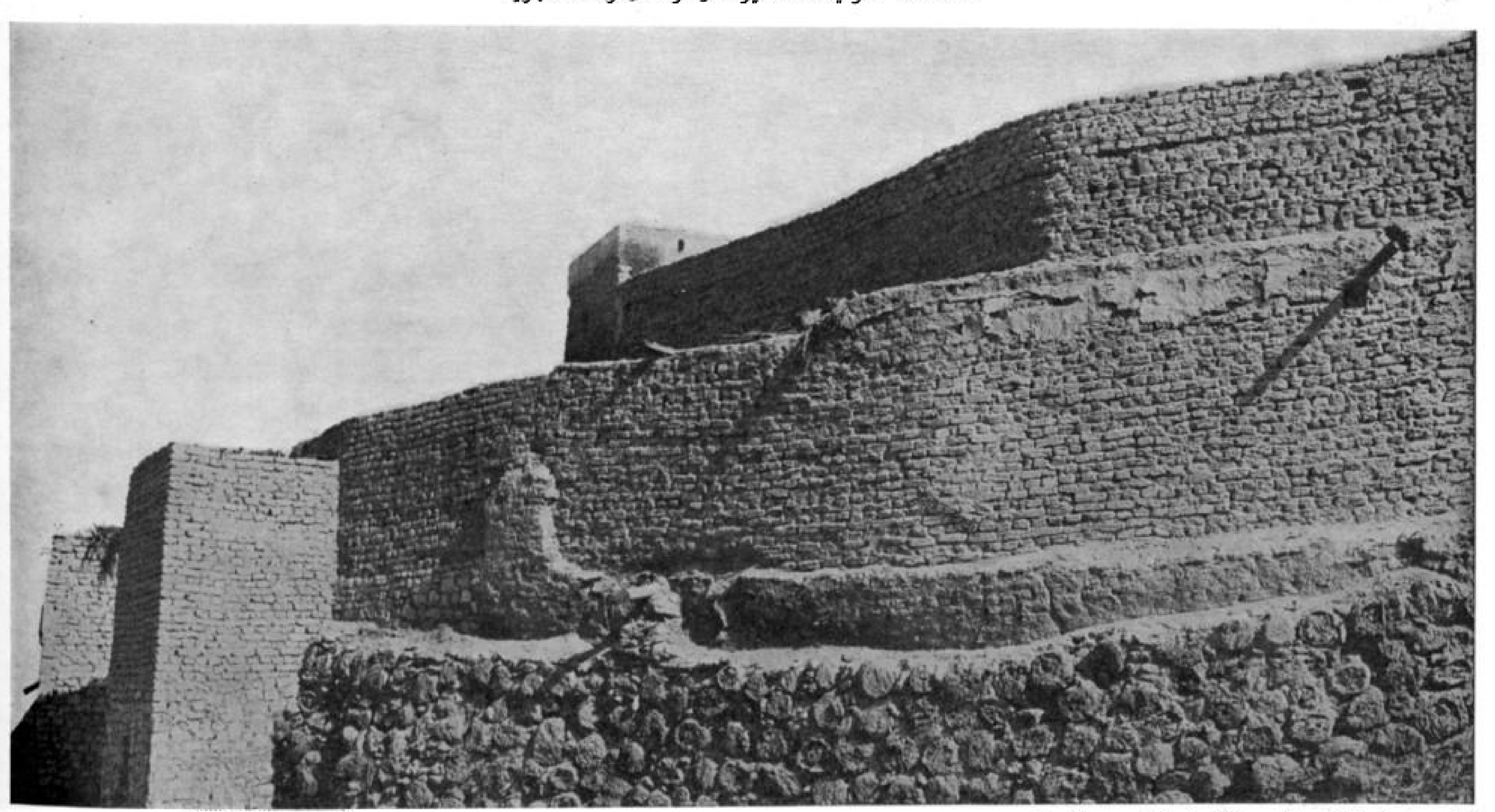
الهندسة المعمارية في كل شيء (كوربوزييه) .
فخار قبائلي ـ متحف باردو .

بد من تأكيدها : وهي أن أضرحة المشائخ التي تشبه أضرحة المزاب من حيث جودة قبابها الشاعرية ذات النوافذ الصغيرة لا تخضع لقاعدة هندسية بل يترك فيها العنان للشاعرية والتفنن . ومنطقة الزيبان مبنية بالحجارة المرتبة ترتيباً هائلا . والممرات المغطاة في القرية واسعة إلى درجة استعمال الركائز لشد السقوف . ودائماً في ضواحي بسكرة نلاحظ خلافاً لما هو موجود في مدينة « طولقا » إن القرى التي تحيط مسجد سيدي عقبة القديم مبنية بالطوب تشبه بذلك قرى جنوب الأوراس القريبة منها . وهذه القرى تكاد لا ترى ذلك أنها محاطة بالنخيل وليست موجودة على مرتفع طبيعي .

وشمالا يمكن أن نذكر المزارع المنخفضة التى شيدت باللبنات بضواحي مسيلة . (وهذه المزارع كلها مشيدة حول فناء) وهي موجودة هنا وهناك في هذه السهول المجردة التى تمتد حتى جبال الحضنة .



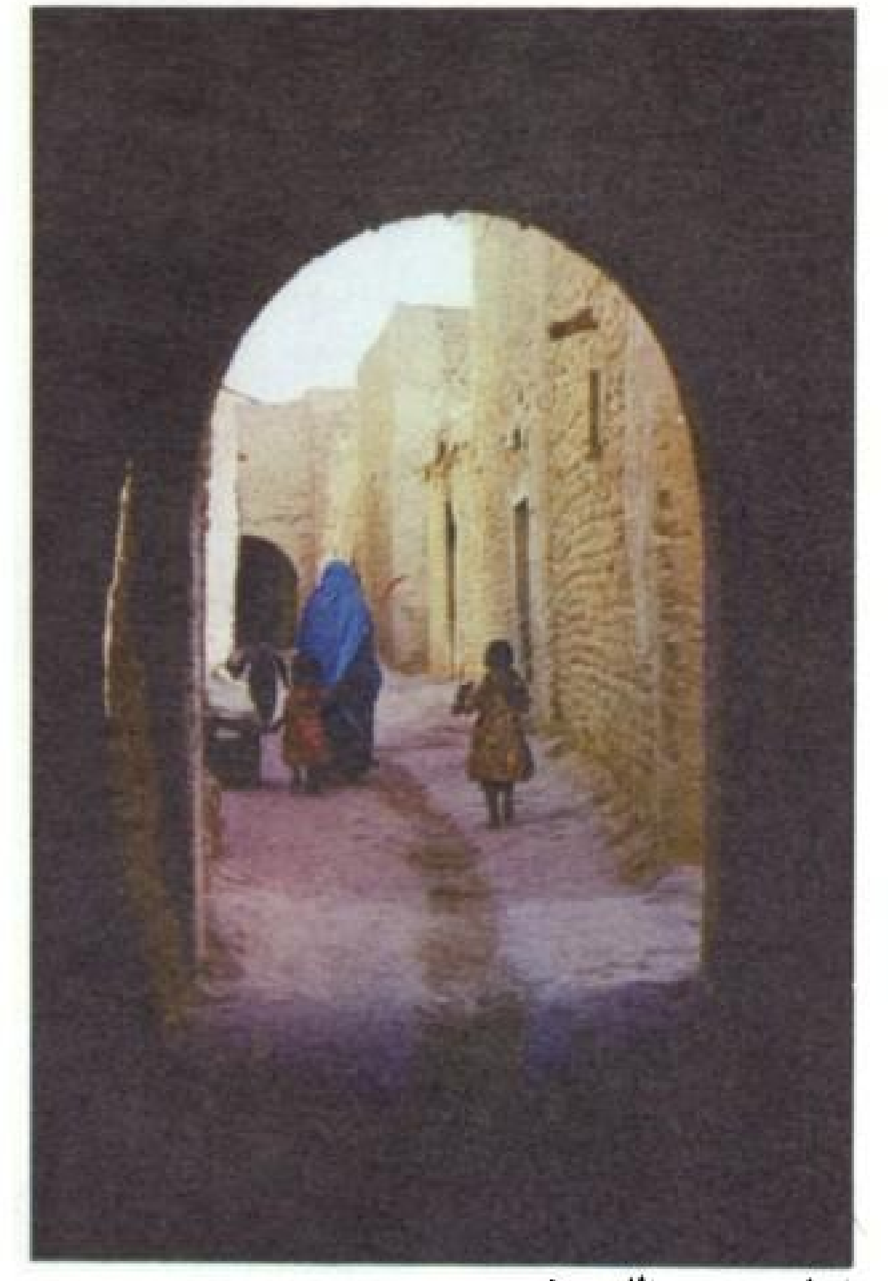
استعمال القرميد المستدير ، زخرفة وكوات للتهوية



تماسين ، قرية محصنة ، مبنية على قطع من النخيل .

وتمتاز جهة بني منصور على طريق سطيف بحجم حجارة جدرانها وترتيبها الجميل . وفي بلاد القبائل الصغرى بين جيجل وفج مزالة نجد مساجد ريفية صغيرة تمتاز بجمالها وصومعاتها المستديرة التى تعلو قبيبات متوجة بشرفات حديدية وفي المنطقة الوهرانية تتميز بالأضرحة المتعددة ذات القباب المتنوعة وهي تحتاج لوحدها دراسة خاصة وبالقرب من قسنطينة و « تقزدت » توجد مدينة ملية التى بنيت على أنقاض مدينة رومانية .

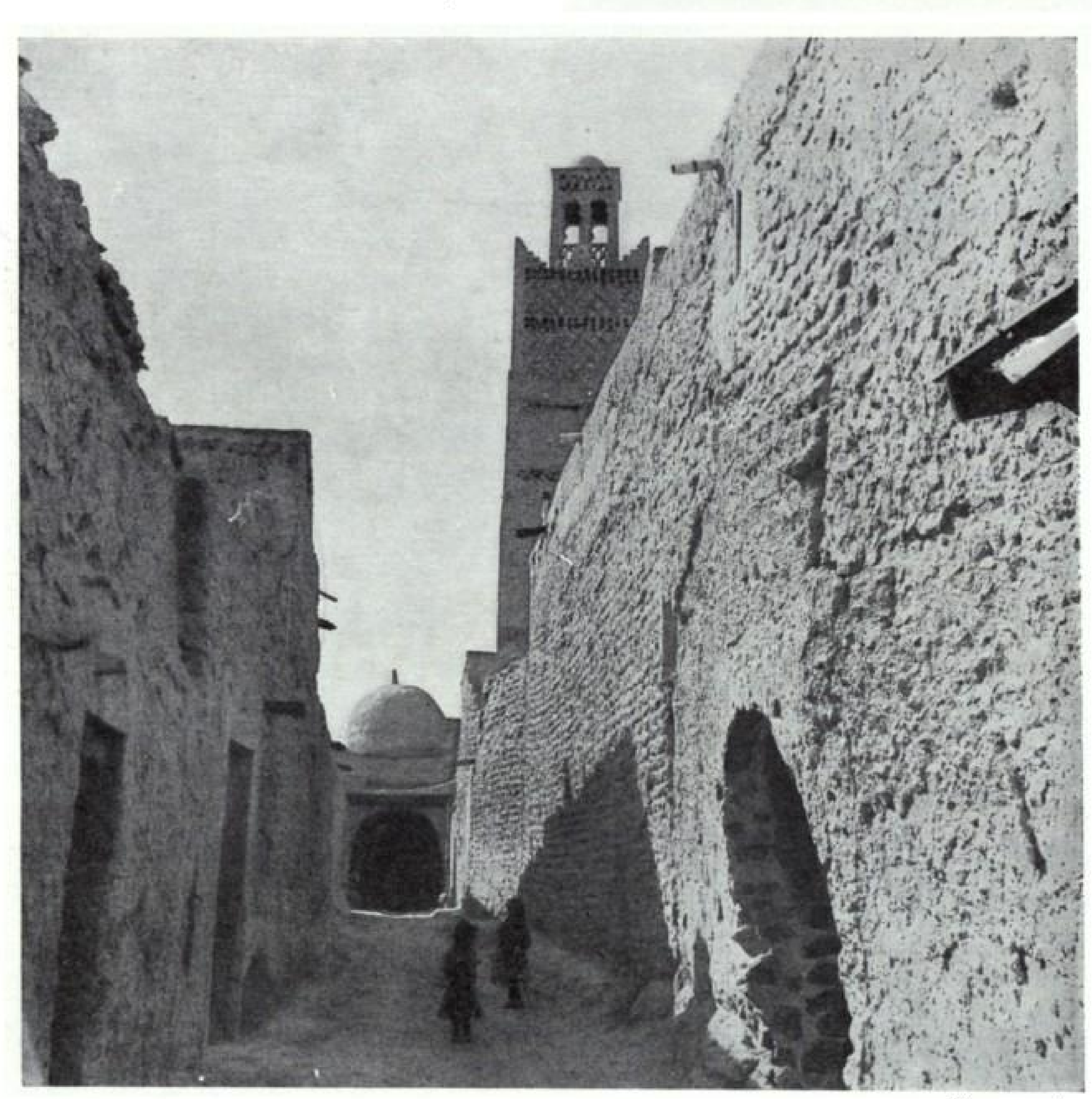
وأخيراً وفي ضواحي تلمسان نجد علاوة على مساجد عهد عبد الواد وبني مرين هندسة معمارية



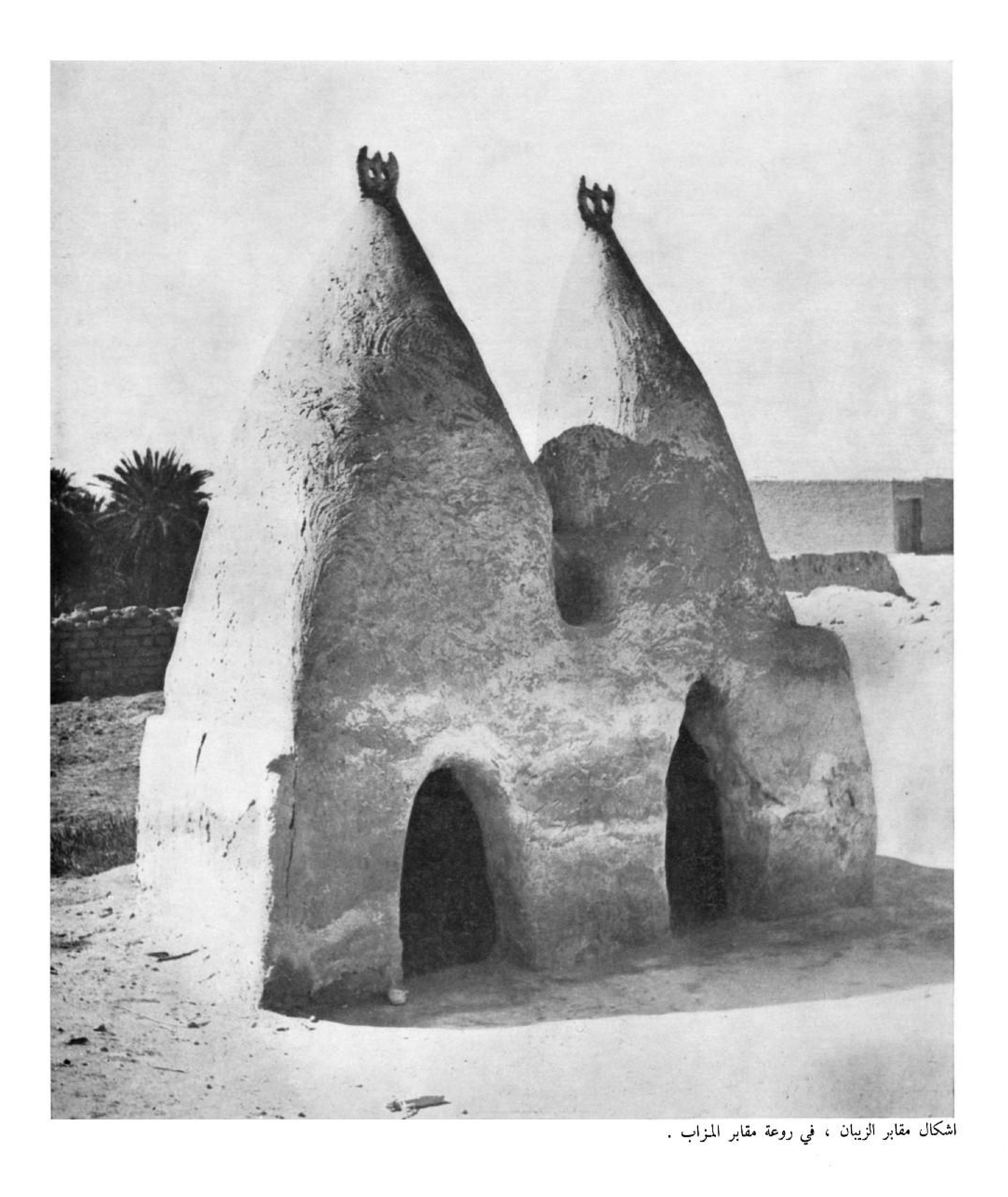
تماسين ، ظل وشمس .



سقف من القشور والسفط في تاغيت نجده في كامل الساورة وأيضاً في جنات .



تماسين ، المسجد .



اشكال مقابر الزيبان ، في روعة مقابر المزاب .

نظراً لضعفها فهي لا تكشف عن أي تزويق ، بل هي تنزوي في هدوء مسرحي محتضنة كل أسرارها وحباسها .

القرية كلها في شكل واحد .
الشمس ، الأرياح ، والأمطار النادرة .
جدران مختلفة ، واجهات موحدة ذات زوايا رائعة .

خاصة تتميز بها السطوح وهو فن نعثر عليه في بلدان بحر الأبيض المتوسط . وهذا العمران الذي يذكر بالجزر اليونانية يحتفظ بالأسلوب الذي يجعل البيوت تبنى حول الفناء وهذه قاعدة جزائرية بحتة . ويمتد هذا العمران التلمساني إلى مدن تليتا والخميس وتفسرة (وتمتاز هذه المدينة الأخيرة بمسجد يعد تحفة من حيث بساطته وجماله) . والطقس في هذه القرى بارد والثلوج فيها تتهاطل في فصل الشتاء . وهكذا نرى المدخنات تشهد على ضرورة التسخين وهي ذات حجم كبير ويبنى على فوهتها سقف صغير .

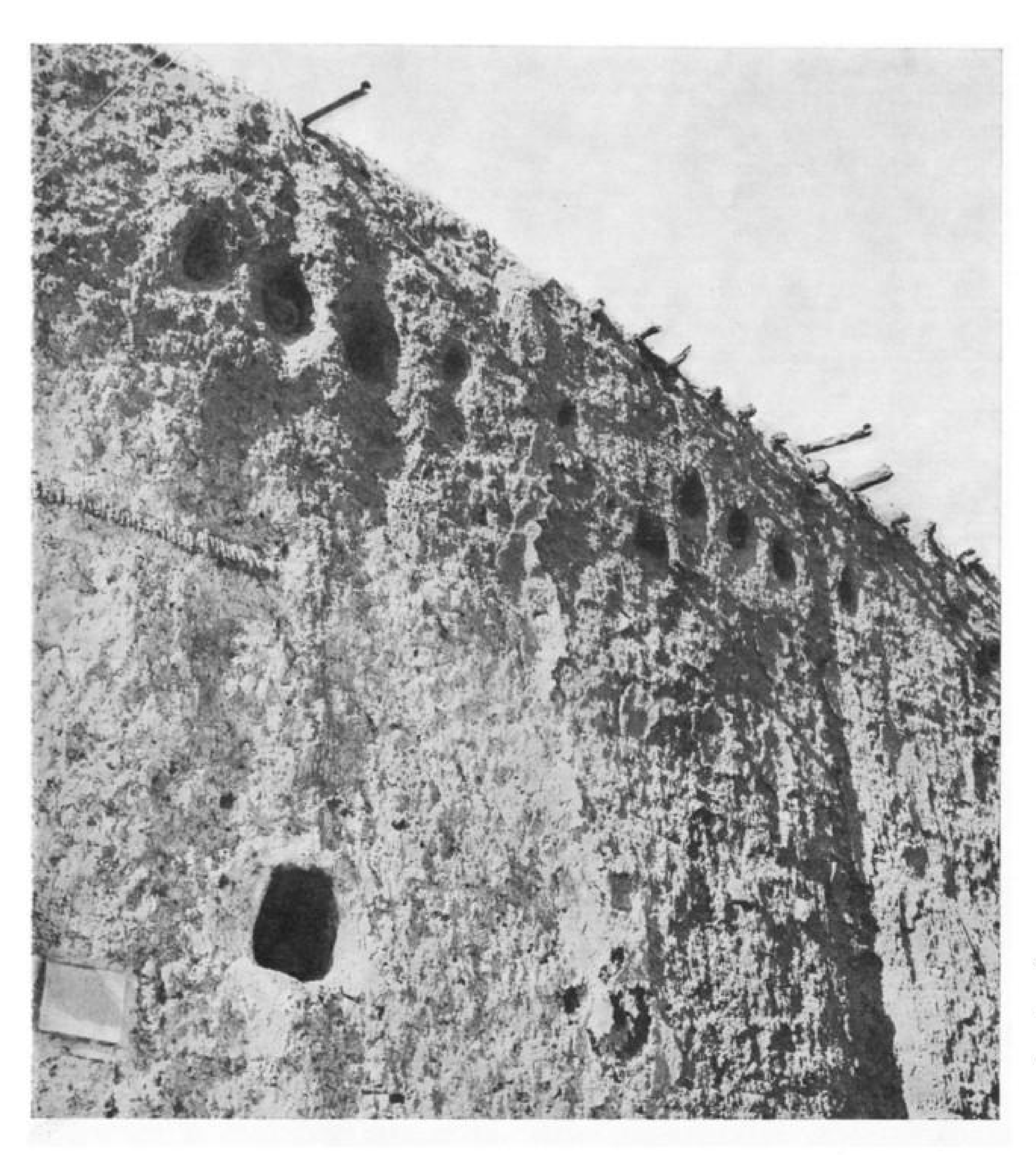




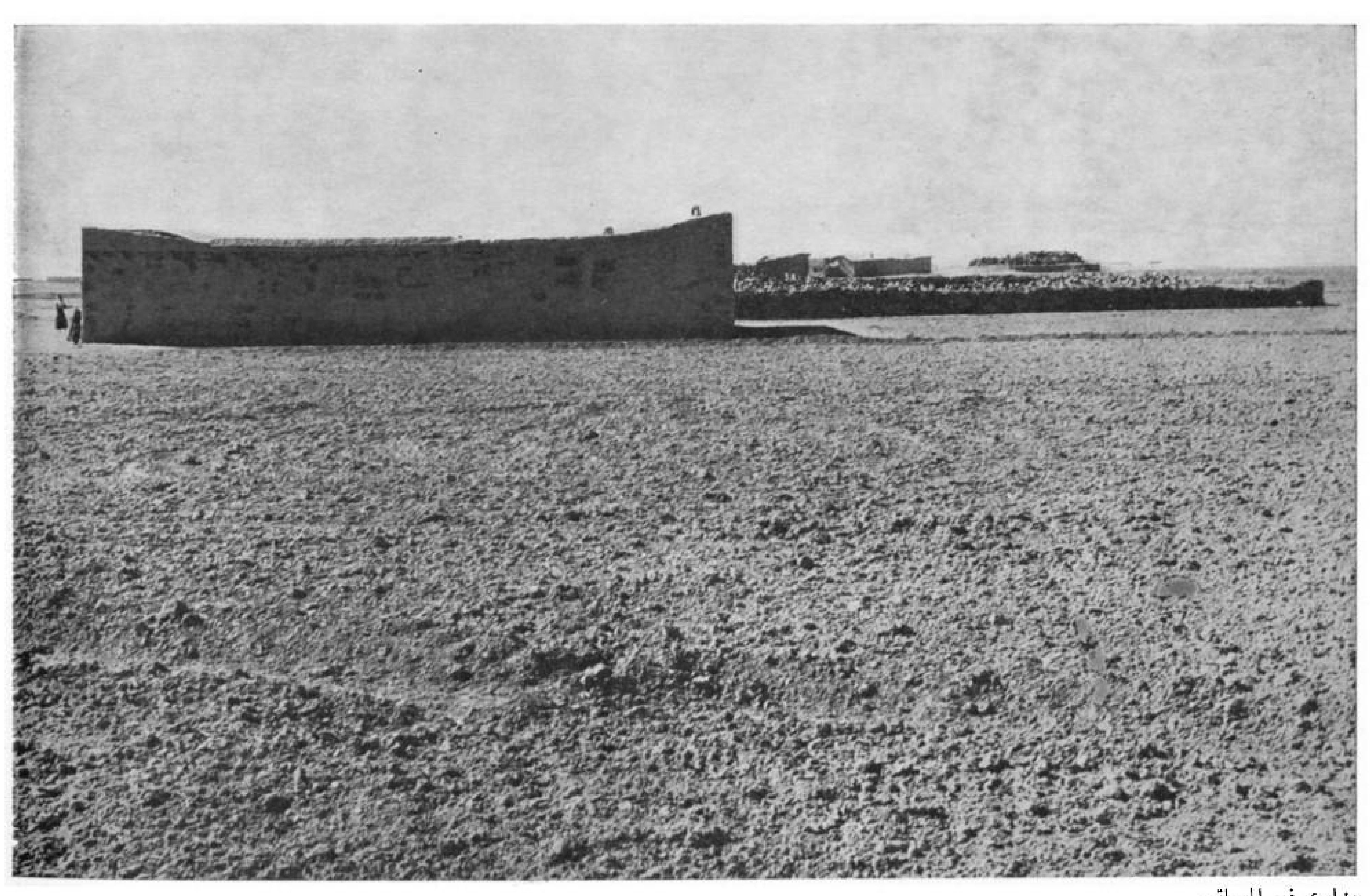
سيدي عقبة



ولي في الزيبان .



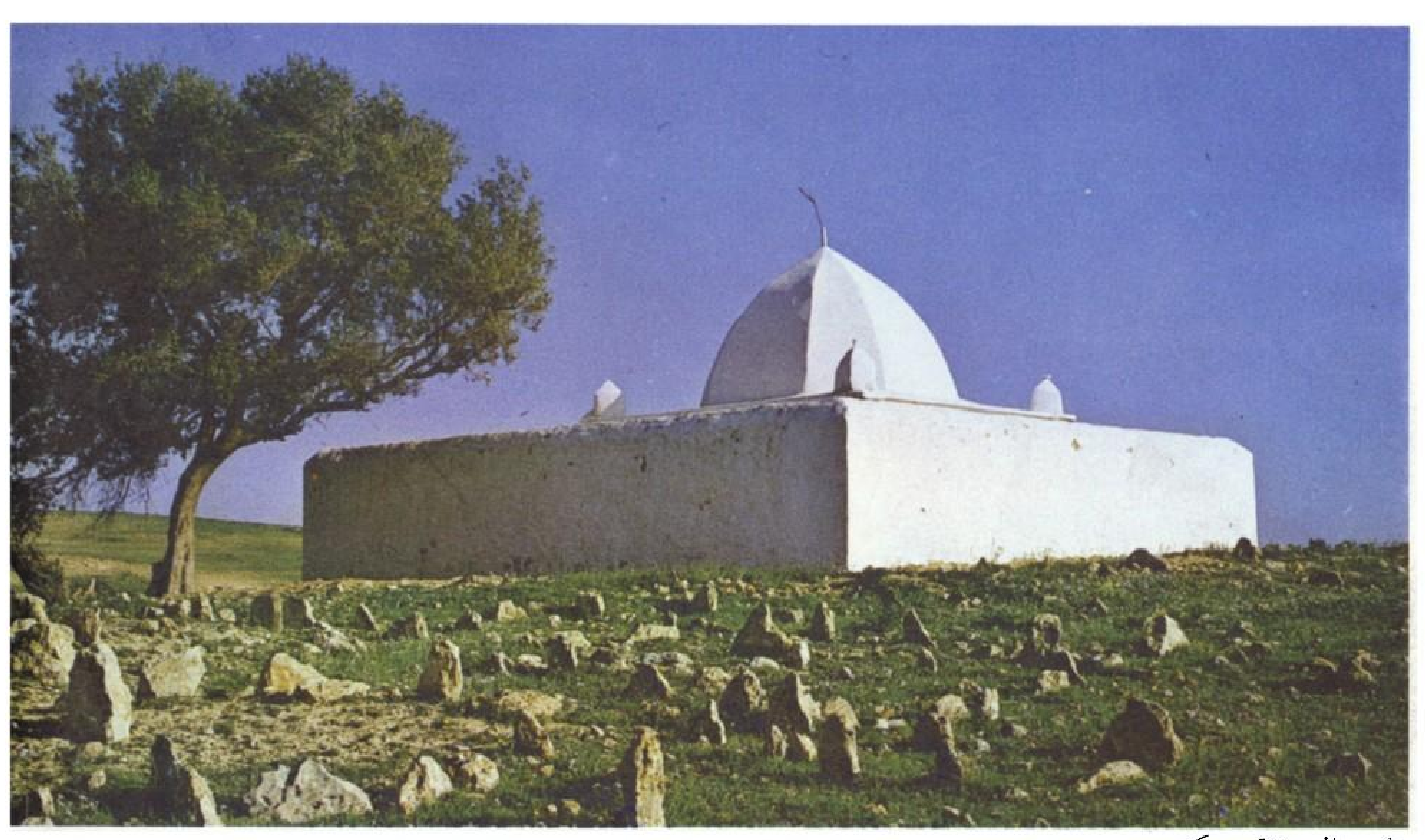
سيدي عقبة ـ القرية . ←
الانجراف جعل من هذا الجدار حالته هذه وأعطاه هذا المظهر البربري . الجدران الطوبوية تتقادم في وحدة لونها وأشكالها الجميلة .



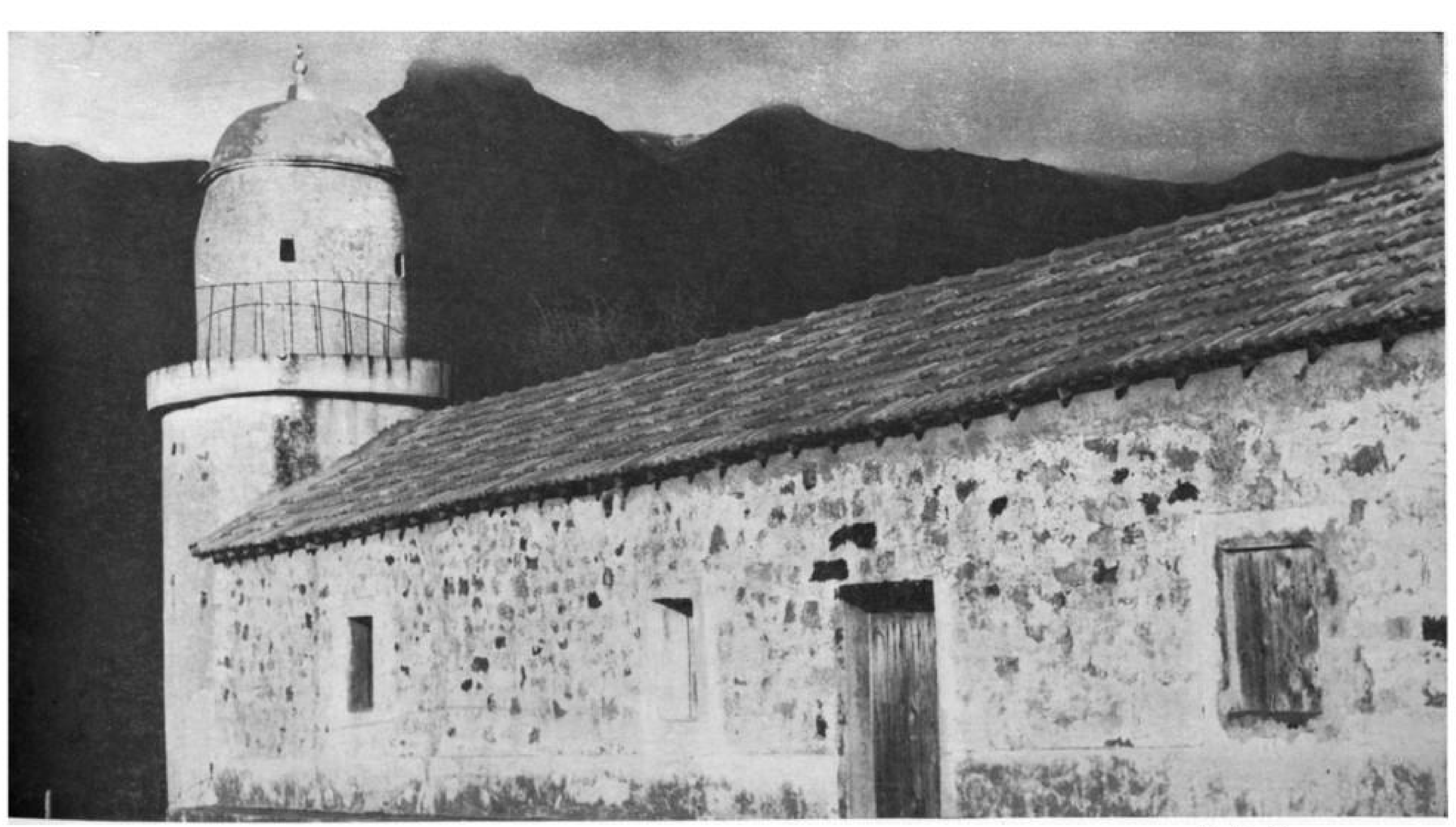
مزارع في المسيلة .



قرية جديدة من الأحجار الجافة في بريان .



ولي حوالي مدينة معسكر .

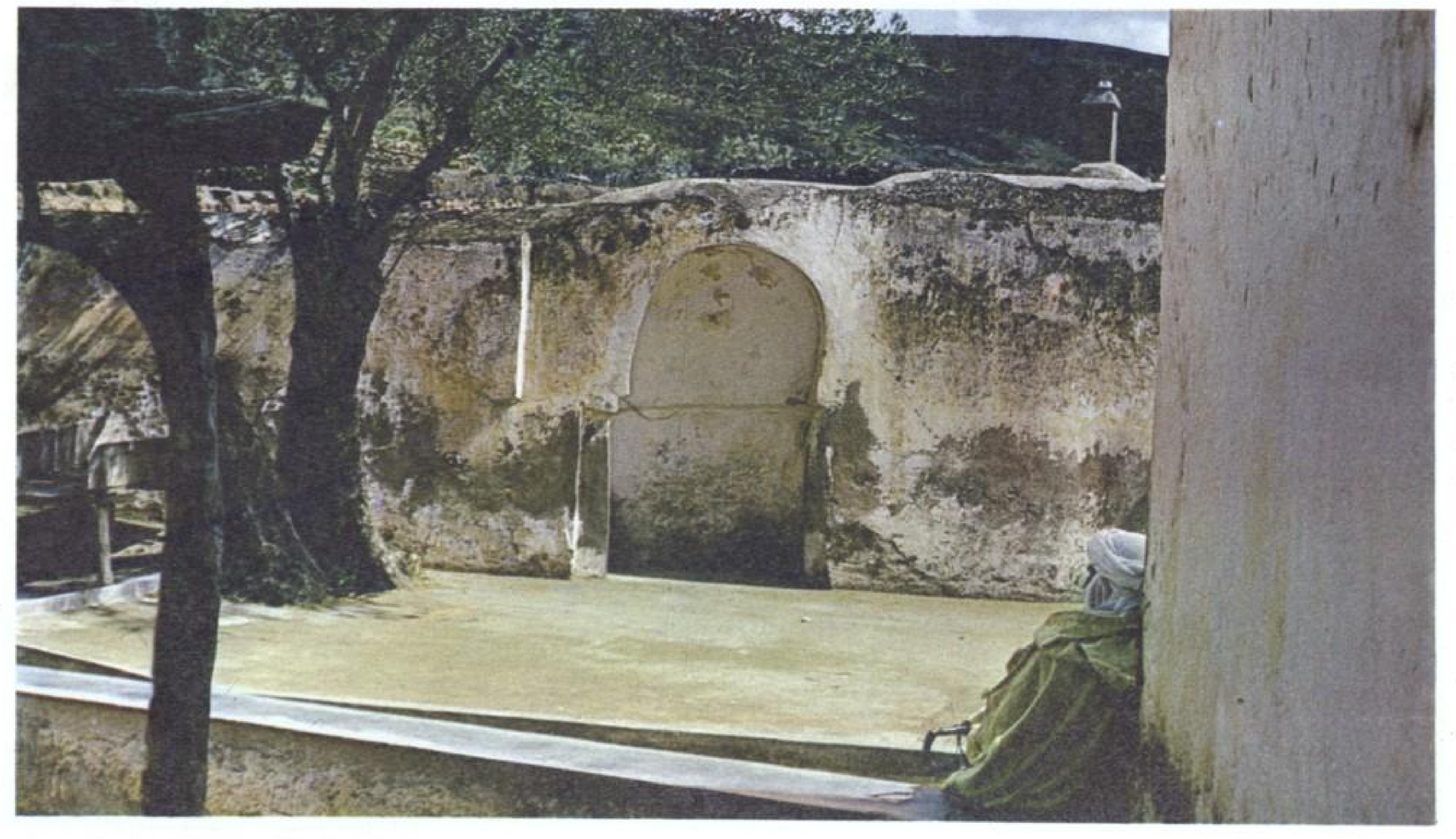


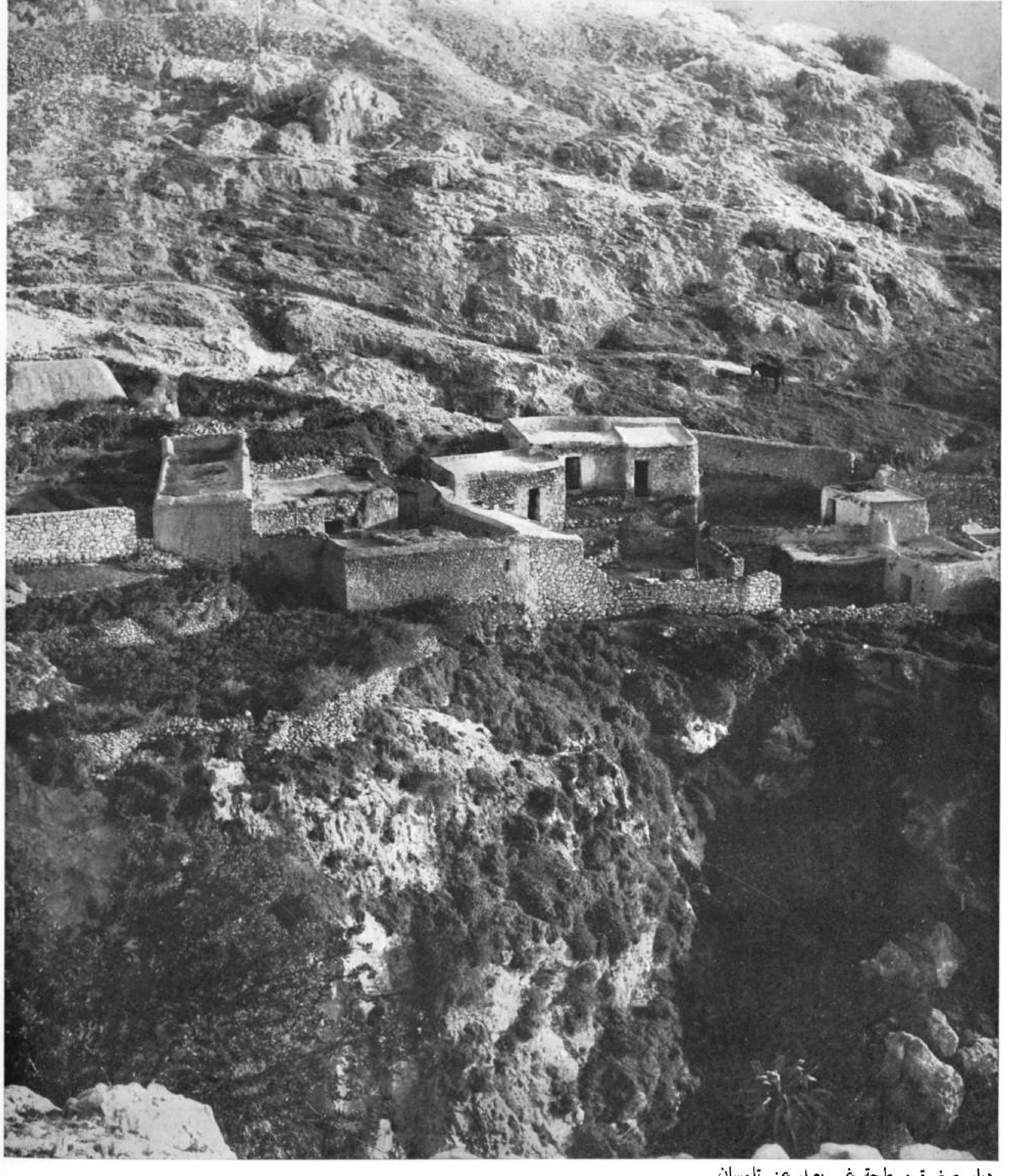
مسجد صغير في القبائل الصغرى .



جامع تفسارة ، يرجع إلى عهد عبد الواحد . ←
متواضع ، مبني على الطريقة القديمة ؛ ثلاث
أروقة بمزالجها ، سطح صغير ذو أربع صفرات
فوق المرحب .

في تفسارة ، سطوح كما نجدها حوالي تلمسان .
مرحب ساحة الجامع ، مصور على الجدار . لم
يثقل بالنقوش .
إن مقابلة الاله تسمو عن كل زخرفة . ↓

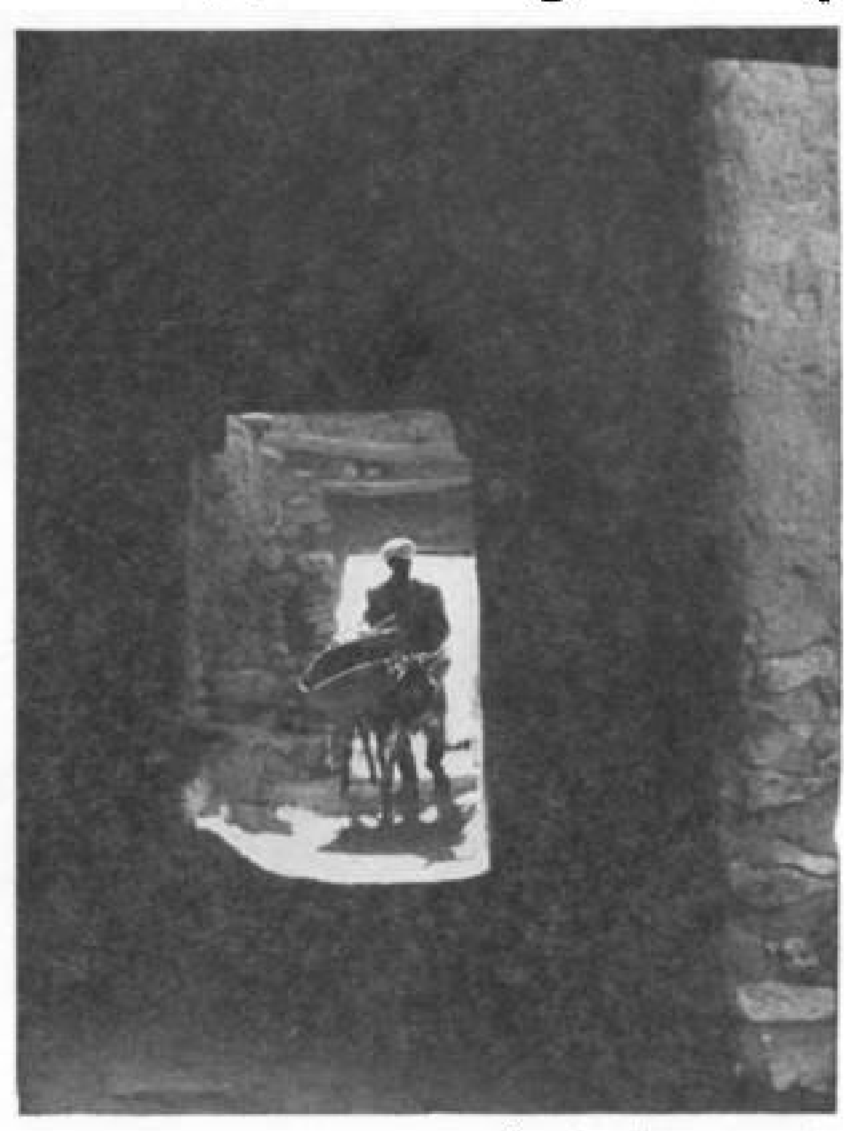




ديار صغيرة مسطحة غير بعيد عن تلمسان .



في تفسارة ، سطوح كما نجدها حوالي تلمسان



ثاغيت . شارع مغطى .

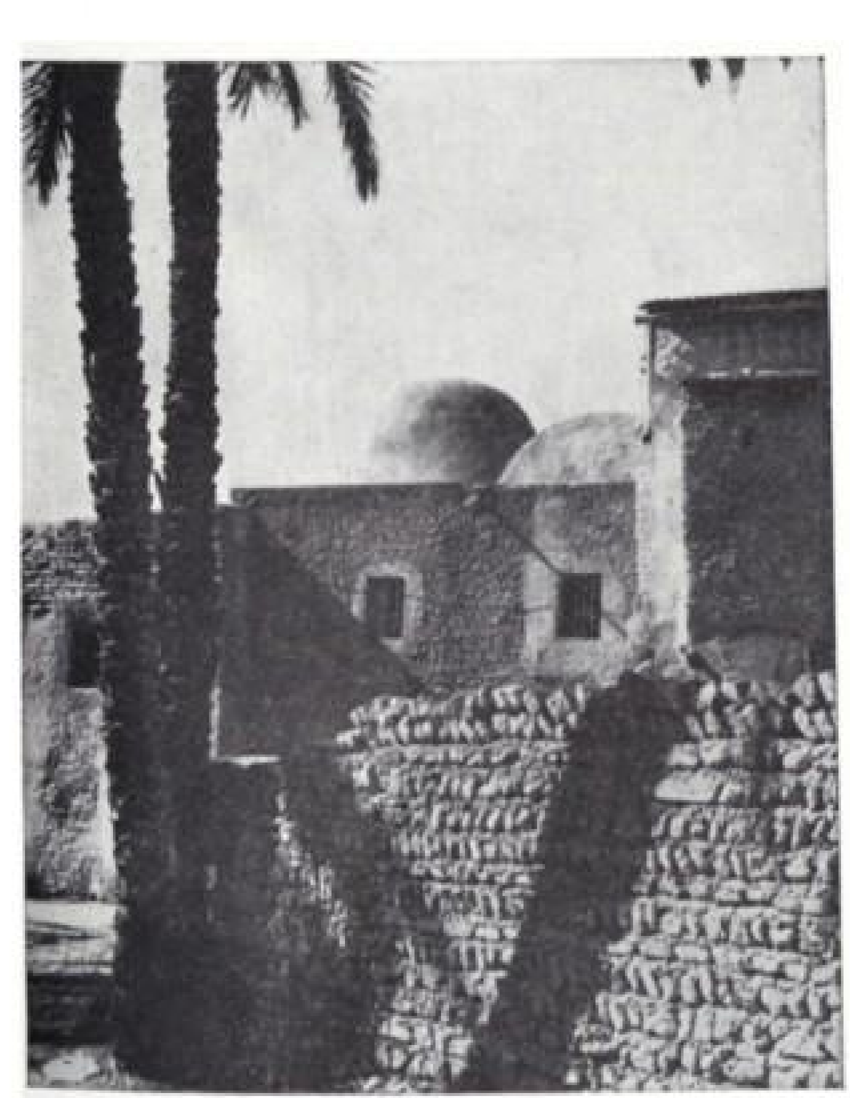
إن مدينة تنس القديمة التي لم نشر إليها في القسم التاريخي حيث لم يذكرها التاريخ إلا قليلا تمثل هذه المدينة آثاراً من القرون الوسطي ومسجداً شيد في القرن الثالث عشر يمتاز داخله بخاصيات تشبه خاصيات مسجد القيروان الأعظم . حيث نجد نفس التيجان الرومانيه من على الكوات ذات المقاطع المربعة والارتفاعات المختلفة وذلك لتدارك تفاوت التيجان . وهكذا تكون الأعمدة في طول واحد . والأقواس التى ترتسم في الجدران لها تقاطيع رشيقة من حيث بساطتها وأناقتها .

أجمل صومعة في الزيبان .

قلعة بني راشد .

وفي ضواحي معسكر تقوم قلعة بني راشد في منطقة حجرية مجردة ويقال أنها كانت إحدى ملاجيء ابن خلدون العظيم .

إن الفن المعماري الجزائري وإن اختلفت مظاهره واحد . وهذه الوحدة هي وحدة الشعب التى اتصفت عبر التاريخ بميلها إلى الصرامة والصفاء اللذين لا بد أن يميل إليهما الفن المعماري الحديث حتى لا يكون فناً عابراً يزول مع الأيام . ان « لوكوبيزيي » المهندس والمعماري الشهير الذي وجهت إليه الانتقادات المختلفة واتهم بكونه تجاوزته الأحداث قد اهتم بالجزائر إهتماماً خاصاً . فلقد تغنى بها في أشعاره وهو نعم الشاعر

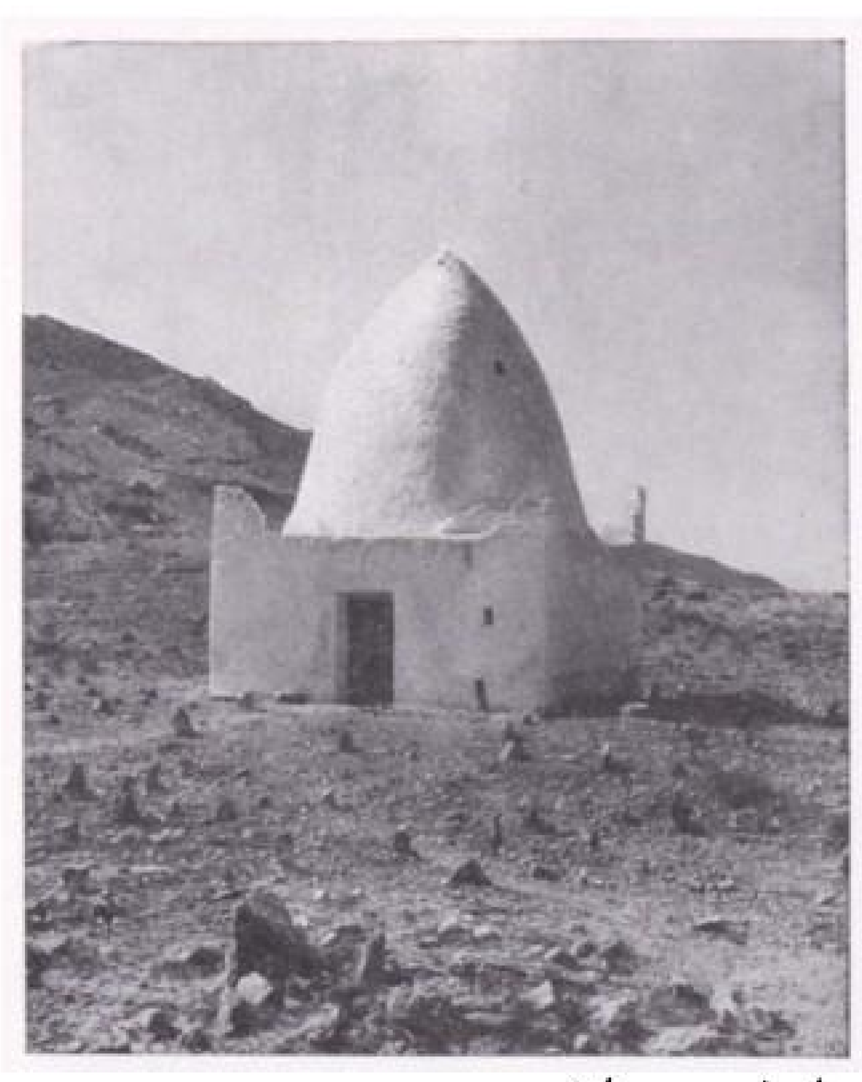


قبب ، مشربية . جدار باب مسكن جميل في الزيبان .

قد تكون جرة اتخذت زينـة لهذا الجناح لاحدى المساجد .



داخل جامع ، قبر قديم في الزيبان .



ولي في بوسعـادة .

تاملهات ، قرب توقرت .




↑ حوالي مدينة معسكر .


ولي في سيدي خالد (الزيبان) .

وصورها في رسومه وهو الرسام المبدع ودرسها في فلسفته وهو المفكر المتبصر . إن الجيل الناشيء للمهندسين المعماريين الجزائريين لمدرك لهذه الخصلة المتمثلة في أصالة الأساليب التى حنكها الدهر والتى تسفر عن عمران يناسب الانسان والوطن .



سور من قطع النخيل .

وبفضل الأدوات الجديدة أصبح التقدم يفتح أبواب الراحة والمرافق فلا بد إذاً من البحث عن التوازن . وفي مجال الهندسة المعمارية يتيه العالم أجمع في أبحاث غالباً ما تكون فاشلة لأنها لا تعتمد على حقيقة سليمة . فهي أبحاث تجريدية تنتهي إلى نتائج مجردة من الصبغة الانسانية إن المعماريين الجزائريين الذين اكتسبوا الفنيات الحديثة يعرفون أن العبرة هنا ولا بد من دراستها والتعمق فيها وتأييدها وأن هذا العمران ليس معناه علم طبقات الأرض لكنه عمران عصري حديث .



جدار باب لحديقة في الزيبان .

هذه السلسلة تنشرها وزارة الأخبار
النصوص : وزارة الأخبار
صور وتصميم : وزارة الأخبار
التوزيع : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مطبعة التاميرا - روتوبريس ش. م.
مدريد - اسبانيا
جوان ١٩٧٠


Bibliotheca Alexandrina
06557377